سيرة شجاع

مطبوعات مكتبة مصر

سيرة شجاع

تأليف

علي احمد باكثير

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الإهداء

إليك ياجمال .

وإلى رفاقك الأبطال .

وإلى هذا الجيل الذى شهد هذا البعث الجديد .

الذى أجراه اللّه على أيديكم .

فأيقظ مصر بعد سبات وأحياها بعد موات .

ودفع بها فى سبيل القوة والعظمة والمجد .

ثم سرت روحه إلى سائر العرب فى مختلف أقطارهم .

فأهابت بهم أن حىّ على القوة والعظمة والمجد .

أهدى هذه القصة التى استقيت حوادثها وحقائقها من مسطور تاريخنا العظيم الحافل .. واستوحيت معانيها ومغازيها من مشهود هذه الثورة العظيمة الخلاقة .

فالتقى فيها الماضى المجيد بالحاضر المجيد .

واجتمعت بطولات الأمس وبطولات اليوم فى صعيد .

وسقط ما بين ذلك من عهود الظلم والفساد والذل والاستعباد فكأنها لم تكن إلا عبرة لمن اعتبر وذكرى لمن ادَّكر .

ولك بعد ـ إن شاء اللّه ـ الغد الأمجد ياجمال ولرفاقك الأبطال ولهذا البلد الخالد وشعبه الناهض .

وللأمة العربية جمعاء .

المؤلف

السفر الأول

١

هذه هى الليلة الثالثة منذ نشبت المعركة بين الوزيرين المتنافسين على كرسى الحكم : شاور وضرغام ، أو بالحرى منذ بدا لضرغام ابن سوار اللخمى صاحب الباب ورئيس الحرس الخاص لقصر الخليفة الفاطمى العاضد لدين اللّه . فثار على الوزير شاور بن مجير السعدى ليزحزحه عن كرسى الحكم وينصب نفسه وزيراً مكانه .

وكان الجيش جيش الدولة . قد انقسم فريقين ، يكادان يكونان متعادلين من حيث القوة والعدد . أحدهما يذب عن الوزير العتيد ، والآخر يناصر المغامر الجديد ، ولكن الجولة الأولى التى كسبها ضرغام بفضل المباغتة التى أذهلت خصمه ، كانت كافية فى تقرير مصير المعركة ، إذ أدرك الجميع حينئذ أن الذى يؤيده صاحب العرش من وراء الستار هو الذى سينتصر فى هذه المرة أيضا ، كما كان ينتصر دائما فيما سلف . فأخذت كفة ضرغام ترجح ، وأخذ أنصاره يكثرون بمن

ينحازون إليه ممن كانوا مع شاور ، فلما يئسوا من انتصاره انفضوا عنه وصاروا مع خصمه إلباً عليه .

و لم يكن ذلك بدعا من جند مصر فى تلك الحقبة من تاريخها . فهكذا كان ديدنهم ينقسمون ما ينقسمون حين يبرز إلى الميدان طامع جديد فى الحكم قد يدال له وقد يدال عليه ، حتى إذا ماتبين لهم الخيط الفاصل بين الغالب والمغلوب . انضم بعضهم إلى بعض فاتحدوا جميعا لتأييد من يحكم البلاد غدًا على من يحكمها اليوم .

ويجىء دور صاحب القصر عقب ذلك ، فينعم بالوزارة على هذا المنتصر ويعلن رضاءه عنه ، وسخطه على المنهزم ولو إلى حين .

أما عامة الناس من أهل هذا البلد الأمين وأبنائه الطيبين فقد صار قصارهم إذ ذاك أن يتفرجوا من قريب أو من بعيد على هذه الفصول التى تمثل على مسرح بلادهم . فيضحكوا إذا شهدوا مايضحكهم ، ويبكوا إذا شهدوا ما يبكيهم ، ويحمدوا الله على كل حال إذا انحصر الصراع فى اللاعبين على المسرح ، دون أن يتعداهم إلى المتفرجين ، أو إذا أصابهم منه أذى قليل .

حتى إذا رجعوا إلى نفوسهم بعد مايسدل الستار على المأساة أو الملهاة وبدأوا يفقهون ما تنطوى عليه من العبرة . ويدركون أنهم هم الذين يمثل بهم ويعبث بمصالحهم . وأنهم فى النهاية هم الخاسرون ، امتلأت نفوسهم حينئذ بالأسى الدفين ، فلا يجدون متنفسا عنها غير النكات اللاذعة يرسلونها على هذا الطاغية أو ذاك . فلا يجد الطاغية من سبيل عليهم لأنها كالرسائل الأغفال تدور مفتوحة فى كل مكان بحيث يراها كل ذى عين ويسمعها كل ذى أذن .

٢

كانت القاهرة بميادينها وأحيائها وشوارعها ودروبها وأبوابها من الجهات الأربع والحصون القائمة عليها بحال هذا العراك الدامى بين هذين المتنازعين على الحكم طوال هذه الأيام الثلاثة . فتعطلت فى خلالها الأسواق وأغلقت المتاجر والحوانيت وأقفرت الشوارع من المارة . إذ لزم الناس بيوتهم خشية أن يصيبهم الأذى من جراء تطاحن الجنود وتعاركهم عن قصد أو غير قصد . وخوفا من بعض الأشرار الذين ينتهزون فرصة اختلال الأمن فيسطون وينهبون دون أن يلحقهم عقاب أو حساب .

وكذلك كانت الحال فى مدينة الفسطاط أيضا وإن كانت بمعزل عن معترك الجنود ، إذ لم تمتد إليها ساحة القتال فى هذه المرة بعد ، فقد لزم معظم أهلها بيوتهم أيضا ، ولاسيما فى الليل ، لأن حبل الأمن يضطرب فيها باضطراب حبله فى العاصمة ، وإن كان المحتسبون من أهلها ، وهم المتطوعون حسبة لله تعالى ، يجولون بأسلحتهم فى الطرقات ليلا ونهارا ، ويدورون على البيوت والمتاجر يحفظون الأمن ويصونون النظام .

والجميع يتسقطون أنباء المعركة الدائرة رحاها فى تطلع واهتمام. ويترقبون متى تنجلى هذه الغمة عنهم فيعودون إلى معتاد حياتهم ومزاولة أعمالهم فى سكينة وأمن ، وقلما يعنيهم بعد ذلك أى المتنازعين ينتصر ، وأيهما ينهزم . نعم إنهم ـ أهل الفسطاط جميعا ، وبعض أهل

القاهرة ـ يتشيعون فى العادة للجانب الذى لايؤيده صاحب العرش على الجانب الذى يلقى منه التأييد ، وهم لذلك يتمنون اليوم فى أعماق نفوسهم أن ينتصر شاور على ضرغام . ولكن الأيام قد علمتهم أن يقتصدوا فى تشيعهم لهذا وتعصبهم على ذاك . عسى أن يخلف هذا ظنهم فيكون شراً عليهم إذا ولى الحكم من ذاك .

على أن ذلك لم يحل دون قلق الناس كلما اقتربت المعركة من نهايتها ، إذ كان هواهم فى الجملة مع شاور ، وقد استخلصوا من الأنباء المتضاربة أن الرجاء فى انتصاره قد انقطع أو كاد . وبلغ هذا القلق أوجه فى ليلة هذا اليوم الثالث من أيام المعركة ، فقد بات كثير من الناس ساهرين حتى آخر الليل يتوقعون فى كل لحظة أن يسمعوا النتيجة الحاسمة بعد ماترامت إليهم الأخبار المتضاربة عن مصرع شاور أو فراره من القاهرة . ولكنها جميعا تؤكد أن أتباعه قد أسلموه أجمع وانفضوا عنه . وأن أبناءه الثلاثة قد وقعوا فى قبضة ضرغام . فقتلهم أو حبسهم ، ولكن من يدرى بعد ؟ لعل النتيجة الحاسمة تنقض كل ما سمعوه وتأتى بخلاف ما يتوقعون .

وطال بهم الانتظار وقد أرهقهم السهر وأغراهم برد الشتاء بالاضطجاع والتدثر . فلما وجدوا لذة الدفء تسلل النعاس إلى عيونهم ، فلم يستطع أن يغالب النوم منهم إلا القليل .

٣

وخيم السكون على مدينة الفسطاط بعد ما نام أهلها فى بيوتهم، واطمأن المحتسبون على سلامة المدينة وأمنها حين انسلخ الشطر الأكبر من الليل وأوشك الفجر أن ينبلج فآووا أيضا إلى مضاجعهم ليأخذوا قسطهم من النوم فيستعينوا على سهر الليلة القادمة .

وساد الظلام ، إذ انطفأت المصابيح والقناديل ، فما بقى مضيئا إلا قنديل واحد في حجرة واحدة من بيت واحد فى حى واحد . أما الحى فهو الليث بن سعد على غلوة سهم من الجامع العتيق ، جامع عمرو ، وأما البيت فبيت أبى الفضل الحريرى من كبار تجار الحرير فى الفسطاط والقاهرة ، وأما الحجرة فلابنته الوحيدة بمية البالغة من العمر ستة عشر ربيعا ، وهى مستلقية على فراشها لوعكة أصابتها منذ أيام ، وقد جلست أمها أم الفضل على أريكة صغيرة بمجاورة لسرير العليلة . وعليها عباءة ثقيلة من الوبر تتدثر بها من البرد ، وتحت قدمها فوق البساط المفروش على الحصير ، جلست جاريتها السوداء مُسيكة لتقوم على خدمة سيدتها إذا احتاجت إلى شىء : وهى تنظرفى حنان بالغ إلى سيدتها الصغيرة التى تحبها حبا جما . وترنو من خلال الضوء الخافت للقنديل المتدلى من سقف الحجرة إلى وجه دقيق الملامح مليح القسمات ، قد استطاعت العلة أن تنقص من نضارته وتورده . ولكنها لم تستطع أن تغض من حسنه وفتنته إذ كسته شحوبا زاده جمالا وروعة ، وتهدل

شعرها الذهبى المغدون صوب كتفيها فجعل يتموج على جبينها من الجانبين كأنه يحاول جاهدا أن يضرم وجنتيها بتلهبه ليعيد إليهما ما سلبت العلة من توردهما الحبيب .

وتحركت العليلة الحسناء فى فراشها كأنها تريد أن تنهض أو تستوى جالسة ، فنهضت الجارية لتساعدها ، وتحركت أمها أيضا لتعينها . فما أمهلتهما سمية أن رفعت الغطاء عن صدرها بقوة . فجلست ثم جذبت الوسادة التى كانت تحت رأسها فنصبتها لتتكئ عليها وهى تقول :

ـ استريحا .. أنا قادرة أن أجلس وحدى ...

ـ هل تريدين شيئا يا سمية ؟

ـ نعم .. لو تأوين يا أماه إلى فراشك فتنامى قليلا وتستريحى !..

ـ أنّى يأتينى النوم يا بنتى ونحن فى هذا الحال ؟

ـ إن كان من أجلى فإنى الليلة بخير ..

ـ ومن أجل أبيك الذى لم يعد من القاهرة منذ يومين ..

ـ لا تقلقى يا سيدتى فسيعود سيدى غدا فى الصباح ..

ـ أجل يا أماه .. لعله رأى من الحكمة ألا يعرض نفسه لأخطار الطريق فبقى عند أخى الفضل فى بيته ..

ـ ما كان ينبغى أن يذهب ألبتة إلى القاهرة والحرب فيها قائمة ..

ـ أراد أن يطمئن على متجره هناك وعلى الفضل ...

ـ بل أراد أن يطمئن على شىء آخر .. أنا لا يعجبنى هذا العمل منه يا سمية وأخشى أن يناله منه شر ...

ـ كلا يا أماه . لاخوف على أبى من ذلك .. فالناس يعلمون أن ليس بينه وبين عمى شاور إلا صلة الصهارة ولا شىء غير ذلك ..

وهنا تذكرت أم الفضل شقيقتها زبيدة زوجة شاور ، فانبرت تقول : « ترى ما حال أختى زبيدة الآن ؟ لا بد أنها فى ذعر وقلق ! »

قالت ذلك ثم وجمت كأنما ندمت على أن ندت من لسانها هذه الكلمة . ولا سيما إذ نظرت إلى وجه ابنتها فرأته قد أربد وجللته غاشية من الحزن واللوعة ، ثم أخذت عيناها تبرقان بالدمع ، وهى تزم شفتيها متجلدة تحاول أن تغلب البكاء ولكن اللوعة كانت أقوى منها ، فانهمر الدمع من عينيها وارتمت على فراشها تنشج وتنتحب و لم تستطع أم الفضل أن تحبس لوعتها هى كذلك . فارتمت بجانب ابنتها تشاطرها البكاء والنشيج .

أما الجارية الوفية المخلصة فقد حارت لا تدرى كيف تواسى سيدتيها وكيف تسرى عنهما ، ولكنها لم تعجب لما حدث ، فهى تعرف السبب الذى بكتا ذلك البكاء من أجله ، بل تعرف أيضا أنه مصدر هذه العلة التى أصابت سمية فألزمتها الفراش .

إنه القلق على حبيبها وخطيبها وابن خالتها شجاع بن شاور !!

٤

ولم تكن أم الفضل تعلم حين أرسلت كلمتها تلك معربة عن قلقها على شقيقتها ، أن شقيقتها قد تركت منذ ضحى ذلك اليوم دار الوزارة التى كان يقيم فيها شاور مع أهله وانتقلت بحاشيتها وخدمها وحشمها إلى « بيت سعيد السعداء » الذى يملكه زوجها والذى كان قد نزل بأهله فيه أول مقدمه من الصعيد قبل أن يلى الوزارة بقليل .

ولا كانت تعلم أيضا أن رجال ضرغام لم يتركوها بعد ما تركت لهم دار الوزارة ، بل ظلوا يتعقبونها فى بيتها الجديد ، فطرقوا بابه عليها ليلا فروّعوها وروعوا حاشيتها ، ثم اقتحموه ، فطفقوا يفتشونه حجرة حجرة وركنا ركنا وهم يبحثون عن شاور لعله أن يكون مختبئا فيه ، فلما لم يجدوا له أثرا ، أقبل رئيس الجماعة نحوها فى وقاحة وسوء أدب فقال لها فى غلظة وتهديد :

- خبرينا الآن يا هذه .. أين هرب زوجك !

فاستشاطت أم سليمان غضبا وصاحت فى وجهه :

- قبح اللّه من أرسلك ، ألم يجد رجلا غيرك يعرف كيف يخاطب النساء ويحترم آداب البيوت ؟

- ويلك أما تعرفين من أنا ؟

- من تكون ؟

ـ أنا همام بن سوار أخو ضرغام الذى ألصق أنف زوجك بالرغام !

ـ حقا قد نم أصلك عن سوء أدبك .. والله لئن يكون أخوك مثلك ليكونن سبة هذا البلد إلى الأبد !

ـ آه لو لم تكونى امرأة !

ـ ماذا كنت تصنع أكثر مما صنعت ؟

ـ خبرينى أين اختبأ زوجك ؟

ـ لو كنتم تفقهون لعلمتم أن أبا سليمان لا يختبىء فى البيوت كالنساء .

ـ فأين ذهب ؟

ـ يا لك من أريب ألمعى ! تراني قابعة هنا فى بيتى وتسألنى أين ذهب ، ذهب ليضرمها نارا عليكم !

ـ هيهات ! لنمسكنه غدا فلنصلبنه على باب القنطرة !

ـ إن ظفرتم بأبى سليمان فلا تستشيرونى فيه !

فانتفض همام غضبا ، وتهدج صوته وهو يقول متشفيا :

ـ إذن فاعلمى يا أم سليمان أن سليمان قد ذبح .

فانتفضت أم سليمان جزعا ثم تجلدت وقالت :

ـ إن يكن ما تقول حقا فلا بأس ، قد بقى لى طىء وشجاع .

ـ وطىء أيضا قد ذبح !

فوجمت أم سليمان هنيهة ونظرت إلى من حولها من الحاشية فوجدتهم جميعا واجمين ، وكأنما أشفقت أن يقول لها : « وشجاع أيضا » فصمتت ولم تجب :

ولكن هماما مضى يقول : « ولولا أن ضرغام أخى قد غلبه الكرم وهزته الأريحية لألحق شجاعا أيضا بأخويه » !

وهنا استعبرت أم سليمان إذ قطعت هذه الجملة كل شك عندها فى صدق ما سمعت . فلو كان يريد ترويعها بالكذب لزعم لها أيضا ذبح شجاع . فلاذت بمنديلها تجفف به دمعها ، ثم التفتت إلى همام وقالت له فى صوت هادئ .

ـ إذا رجعت إلى أخيك ضرغام فبلغه عنى السلام وقل له : تقول لك أم شجاع جزاك الله عن ابنها خيرا !

فأطرق همام لما سمع هذه الكلمة كأنما يلوم نفسه على ما بدر منه فى حق هذه السيدة الثكلى من الغلظة والجفاء ، ثم رفع رأسه فى حياء وتمتم قائلا دون أن ينظر إليها :

ـ سأبلغه رسالتك يا أم سليمان !

قال ذلك وأومأ إلى رجاله فخرجوا خلفه ؟

٥

وأشرق فجر اليوم الرابع فهب الناس فى القاهرة وفى الفسطاط على سماع أصوات الصائحين ، وبأيديهم الطبول يدورون فى كل حى وكل زقاق ، وقد اختلطت أصواتهم ودقات طبولهم بأصوات المؤذنين لصلاة الفجر ، وهم يرددون :

بيان للناس فى كل مكان .

بأمر أمير المؤمنين العاضد لدين الله .

شاور المخدوع قد عزل .
وتقلد الوزارة أبو الأشبال ضرغام .
الأمان مستتب فى كل مكان .
ادعوا لمولانا العاضد بالنصر والتأييد .
والعمر المديد السعيد !!!

وطفق أهل القاهرة يعلنون الفرح والاستبشار ، وانطلقت حناجر النساء ترسل الزغاريد ، واستعد كثير من وجهائهم وأعيانهم للسعى إلى دار الوزراء ليرفعوا تهنئتهم إلى الوزير الجديد ثم إلى القصر الشرقى ليعربوا عن ولائهم وإخلاصهم للعرش والجالس عليه .

وكأى من شاعر أخذ يقدح زناد فكره ، وطفق يتصفح أبواب المديح والتهنئة من دواوين الشعراء القدامى ، يحرك بها قريحته ، ويلتمس الوزن الذى يروقه أو القافية التى يستحسنها لينظم قصيدته الجديدة على المنوال الذى يرتضيه ، وهو يمنى نفسه بصلة من الخليفة أو منحة من الوزير ، وإن كان لا يخفى جزعه من أن يكون جزاءه على مديحته الخيبة والحرمان . فقد تغير الزمان ، وذهب الملوك والأمراء الذين يهتزون لكريم القول ويجيزون عليه ، على أن حسبه - إذا لم يجز على شعره - أن يغيظ حساده ومنافسيه من الشعراء ، فما ينبغى أن يتفوق أحدهم عليه ، فيذهب بفخر هذا اليوم المجيد دونه .

هب الجميع هكذا يعلنون الفرح والاستبشار لا عن حب للوزير الجديد أو إيثار له على سلفه الذى غرب نجمه ، ولا عن ولاء للخليفة أو إخلاص له ، ولكن بعضهم يفعلون ذلك جريا على العادة المتبعة فى مثل هذه الأحوال من حيث لا يشعرون ، وأكثرهم يقومون بذلك

خشية أن يعرف عنهم أنهم من المعادين لصاحب العرش أو الضائقين بأسرته الحاكمة أو المناصبين لمذهبها الإسماعيلى الذى لم يستطع بعد مضى قرنين من الزمان أن يزحزح المذهب السنى الذى يتمسك به أهل البلاد عن بصيرة وإيمان .

وليس فى وسع هؤلاء الذين يقيمون بقاهرة المعز أن يجاهروا بكراهيتهم للعاضد وأسرته ومذهبه ، ماضين فى ذلك على سنة آبائهم وأجدادهم الذين كانوا يؤثرون السلامة بمجاملة هذه الأسرة ومداراتها أن يبطش بهم أو تتعرض مصالحهم للسوء ، ولا سيما فى عهود الأقوياء من خلفائها السالفين الذين كانوا لا يتوانون عن القضاء على من يرتابون فى إخلاصه لبينهم أو يؤنسون لديه أى مناهضة لمذهبهم فى السر بله العلانية .

فكان أحدهم إذا ضاق ذرعا بهذه الحال . ولم يستطع بعد صبرا عليها . انتحل عذرا من الأعذار ، يترك به القاهرة ، وينتقل بأهله إلى الفسطاط مأزر السنة وملاذها العتيد وحصنها المنيع حيث يستطيع أن يستروح شيئا من نسيم الحرية . وإن كان لا يأمن فيها أيضا أن تمتد إليه يد البطش والاضطهاد ، إذا لم يقصد فى إعلان عداوته للبيت الحاكم وسخطه عليه .

أما أهل الفسطاط أو مدينة مصر - إذ كانوا يؤثرون أن يطلقوا هذا الاسم على مدينتهم ، ولهذه التسمية دلالتها كأنهم لا يريدون أن يعترفوا بأن القاهرة عاصمة القطر كله . وإنما هى عاصمة هذه الدولة القائمة ، وستدول يوما ما كما دالت من قبلها دول . فأما العاصمة الباقية الثابتة على الأيام فهى مدينتهم العتيقة المجيدة التى كانت أول مدينة أسسها

الإسلام على التقوى فى هذا الوادى الأمين أول ما أشرق فى سمائـه نـوره . فخليق بها أن تكون عنوانا لهذا القطر الكريـم . وأن تحمـل هـذا الاسـم الحبيب الذى اختصه الله بالذكر في محكم كتابه فزاده شرفا على شـرف ـ أما أهل هذه المدينة فقد وجموا لسماع النبأ ، ثم أخذوا يتباثون حزنهم وأسفهم لما وقع إذ أدركوا ببصيرتهم أن ضرغام لم يتنصر حـين انتصـر ، وإنما انتصر العاضد . فهو الذى دفع ضرغـام مـن وراء الستار للوثـوب على شاورور حينما رأى أن شاور قد سطع نجمه وزادت قوته على الحـد الذى ينبغى فى رأيه ألا يتجاوزه لئلا يتعرض سلطانه هو للخطر .. فهـو يعلم كره الشعب لـه خاصـة ولحكـم أسرته عامـة ، وأن هـذا السـخط يتضاعف على الأيام ولا يؤمن أن ينفجر يوما فيأتى على عرشـه وعـرش آبائه من القواعد .

فلتكن سياسته إذن أن يوازن بين القوى ويضرب بعضها ببعض فيؤيد اليوم هذا الزعيم ليضرب به زعيما آخر يخشى منه ثم يعود فيضرب هـذا الزعيم بزعيم جديد وهكذا دواليك . وقد خيل إليه أنـه بذلـك يستطيع أن يلهى الناس عنـه ويصرفهـم عـن السـخط عليـه بمـا يشغلهم بـه مـن الاهتمام بتطاحن هؤلاء الزعماء وتنافسـهم علـى كرسـى الـوزارة ذلـك الكرسى الذى يتزعزع على الدوام ولا يثبت لوزير إلا ريثمـا يزيحـه عنـه وزير ، والعرش مـن وراء ذلـك ثـابت لا تنالـه الزعـازع ولا ترقـى إليـه الخطوب .

وكان أشد ما يريب العاضد من أحد الـوزراء وأقـوى مـا يدفعـه إلى الكيد له والسعى لإسقاطه أن يرى منه تقربـا إلى الشـعب وتزلفـا لـه بمـا يقوم به من إصلاح أو عمران يعود بالنفع على عامته فهـو حينئـذ يظهـر

الرضى عن هـذا الوزيـر مـا ظـل ينسـب فضـل هـذا العمـل إلى الخليفـة ويضيفه إلى مآثره ومآثر أسرته . حتى إذا مـا آنـس مـن النـاس ميلا إلى الوزير وإقبالا عليه وأنهم لا يعترفون بـالفضل إلا لصاحبـه وأن كرههـم للعرش باق كما كان فإنه لا يمهله حينئذ بـل يعصـف بـه ويقضـى عليـه بنفس الطريقة التى أقعده بها على كرسى الحكم .

٦

ولقد بلغ من كره الناس للجالس على العرش أن كانوا ربما يضيقـون بالوزير من الوزراء ، ويبغضونه أشد البغض وتلعنه ألسنتهم وقلوبهم ثـم يتفق أن يضطهده العاضد لأمرما ، فإذا قلوبهم تعطف عليـه وتأسى لما أصابه . وكذلك كانوا ربما يحسنون الظن بأحد الكبراء ويصفونه الحـب حتى إذا ما رأوا الجالس على العرش قد قربه إليه واجتباه ، أساءوا الظـن به وأبغضوه .

وإنهم ليذكرون ـ وما بالعهد من قدم ـ كيـف ضـاق العـاضد ذرعـا بوزيره الأسبق طلائع بن رُزّيك ، لما سمع الناس يلهجون بالثنـاء عليـه لما رأوا من عدله واهتمامه بمـا يصلحهـم ويسـعدهم فمـا لبـث العـاضد أن أوعز سرا باغتياله إذ لم يكن له سبيل إلى التخلـص منـه إلا بـالقتل . ثـم كيف أنه أراد تسكين خواطر الناس بعـد مقتلـه فأسند الـوزارة إلى ابنـه رزيك بن طلائع . ولم يلبث أن ضاق برزيك أيضا. فما شـعر النـاس إلا بشاور بن مجير السعدى يتحرك من الصعيد حيث كان عاملا علـى قـوص :

ويقدم إلى القاهرة فيحارب رزيك حتى يغلبه ثم يقتله فيوليه العاضد الوزارة مكان الوزير القتيل ابن الوزير الشهيد .

وإنهم ليذكرون كيف استقبلوا عهد شاور أول ما ولى الحكم بالتذمر والسخط دون أن يعرفوا من سيرته وطباعه شيئا إلا أن العاضد قد صنعه واتخذه أداة لتحقيق غرضه ، فكان هذا وحده كافيا أن يحملهم على بغضه والازراء به .

غير أن ذلك لم يستمر طويلا . فسرعان ما نسى الناس أو تناسوا أن العاضد هو الذى اصطنعه منذ بدأ شاور يستقل شيئا فشيئا بسياسته عن سياسة مولاه . فأخذ يتحبب إلى الشعب بما يظهر من الاهتمام بمصالحه ويتصل بذوى الرأى من العلماء والوجهاء ، ونقباء التجار والصناع وأهل الحرف يفتح لهم بابه ويستمع إلى مشوراتهم ومقترحاتهم وشكاويهم ، فيحقق لهم ما يستطيع من ذلك . ويعتذر عما لا يستطيع ، متلطفا فى ذلك مفضيا إليهم بالتلميح والإيماء أنه ليس مطلق اليد ، كما يظنون ، وأن القصر قد يعترض على بعض ما يقترحون . فينصرفون من عنده وقد وقر فى قلوبهم أن هذا العرش القائم فى بلادهم إنما يبقى . ليحول دون ما يبتغون :

ولم تكن عين الخليفة غافلة عن شاور . فللخليفة عيونه وجواسيسه الذين ينقلون إليه كل ما جل ودق من أخباره : كيف يتصل بذوى الرأى من الشعب ويتحبب إليهم ، وكيف يعمل على تأريث عداوتهم للقصر بذلك الأسلوب الخفى الناعم الذى يجيده شاور والذى يسوقه لهم مساق العذر للخليفة ونفى اللوم عنه فى أغلب الأحيان . حتى إذا أتيحت له فرصة للإفضاء بذات نفسه أمام قوم يأمن جانبهم من

الساخطين على العرش المتذمرين من سوء الحالة كشف لهم عن حقيقة رأيه فى الخليفة ووعدهم بقرب الخلاص وأوصاهم بالصبر والكتمان حتى يحين الأوان المناسب للوثوب وتغيير الحال .

وكان العاضد قد استعد لمثل هذا الاحتمال حتى قبل أن يبلغه عن شاور ما بلغه ، فلم يكد شاور يتربع على دست الوزارة حتى شرع العاضد يبحث عمن يمكن أن يخلفه فى الحكم إذا دعت الضرورة للتخلص منه .

ومن أصلح لهذا الغرض من ضرغام بن سوّار . ذلك القائد الشجاع الذى يحمل القلم ، والأديب الشاعر الذى يحمل السيف ؟ نعم إن ضرغام كان من صنائع الوزير الأسبق طلائع بن رزيك ،فطلائع هو الذى عرف فضله فرفع قدره وجعله مقدم العساكر ، وقد أبت مروءة ضرغام وشهامته إلا أن يعلن سخطه واستياءه يوم اغتيل طلائع ، ثم ينحاز إلى ابنه رزيك بعد ذلك فى العراك الذى دار بينه وبين شاور متحديا بذلك رغبة الخليفة حتى استوجب بذلك غضبه وغضب وزيره . فأقصاه شاور عن منصبه فى قيادة العساكر .

ولكن ذلك لم يمنع العاضد حين احتاج إلى ضرغام أن دعاه إليه فأعلن عفوه عنه وشمله برضاه وقال له : « إنى راجعت نفسى فى أمرك فوجدتك غير ملوم فى تعصبك لآل رزيك عرفانا منك لفضلهم عليك . وقد أساءنى إقصاؤك من منصبك ، ولكن لاحيلة لى فى ذلك ما بقيت تجهر بعداوتك لشاور » ! فأجابه ضرغام : « إن كان مولانا يريد منى أن أخضع لوزيره شاور حتى يعيدنى إلى منصبى فإنى أشكر عنايته وأستعفيه ».

ـ كلا لا أريد أن أكرهك على الخضوع لمن لاتحب .. سأسند إليك منصبا أفضل .. سأجعلك رئيس حرس القصر إذا أحببت .

وأدرك ضرغام ما يرمى إليه العاضد . ووجد فيما اقترحه سبيلا إلى الانتقام من عدوه شاور إذا واتته الظروف فى المستقبل . فأعلن قبوله للمنصب .

واستاء شاور لما بلغه أن الخليفة قد ولى ضرغام رياسة حرس القصر دون أن يستشيره فى أمره . ولكنه لم يشأ أن يعترض على هذه التولية لعلمه أن اعتراضه لن يجديه شيئا . فقد أدرك هو أيضا مرمى الخليفة من ذلك ، فآثر أن يغضى الطرف عنه ، بل رأى من الكياسة أن يبدى رضاه وموافقته ، غير أنه استعد منذ ذلك الحين لمواجهة ما يسفر عنه المستقبل إذا بدا للخليفة أن يثير ضرغام عليه.

٧

وكان لهذه العمل من الخليفة أثره فى دفع شاور إلى المضى قدما فى السياسة التى انتهجها . تلك التى تقوم على التودد إلى الشعب والاتصال بزعمائه ونقبائه ليكونوا له ردءا يوم يجد الجد ولا يجد محيصا من تحدى القصر .

ولم يُعرف قبل شاور وزير بلغ فى مناهضة سلطان القصر وتأليب الناس عليه فى السر ذلك المدى الذى بلغه شاور . ذلك أنه كان أبلغ إدراكا ممن سبقوه وأصح فهما لما يعتلج فى نفوس طبقات الشعب من الضيق والسخط . وقد أعانه على ذلك اتصاله بأبى الفضل الحريرى منذ شبابه الأول . إذ تجمعهما رابطة الصهارة . فزوجته زبيدة هى شقيقة أمينة زوجة أبى الفضل . وأبو الفضل هذا فيما يعرف الناس تاجر كبير من تجار الحرير لا تقتصر تجارته على القطر المصرى وحده بل تبلغ إلى بلاد الشام والعراق وإلى الحجاز واليمن وطرابلس الغرب ، وله عملاء من تجار تلك البلاد يراسلهم ويراسلونه ويتبادل معهم البضائع والسلع وقد تردد إلى تلك الأقطار كثيرا وتجول فيها ، ولا سيما بلاد الشام . ولكنه فيما يجهل الناس ثائر قديم يضطرم غيرة على وطنه مصر خاصة وعلى بلاد العرب والإسلام عامة ، وهو يتلظى سخطا لما وصلت إليه الحال فى بلده من طغيان القصر وفساد الحكام من الوزراء والمستوزرين ، وبغى الجند وضياع مصالح الشعب ، فإذا خلا إلى خاصة أصحابه ممن يثق بهم اندفع كالبركان يندد بهذا الفساد ويدعو إلى تغيير الحال ،

وينذر بسوء المصير ، ولكنه حريص على الكتمان يبالغ فى الحذر والحيطة ويؤمن أن النجاح حليف السعى الدؤوب المتواصل .

وقد استمع شاور إلى كثير من آرائه وأحلامه منذ كان قائدا صغيرا من قواد الجند فى القاهرة قبل أن ينتقل إلى الصعيد الأعلى عاملا على قوص . فلما رجع إلى القاهرة وتولى الوزارة مكان رزيك ، عاد اتصاله بأبى الفضل كما كان ، بل زاد قوة لأن أبا الفضل كان يأمل أن يتحقق على يد شاور كثير من الإصلاح الذى يحلم به . ولكنه ظل يكتم عنه من باب الاحتياط وجود جماعة من أصفيائه ، سماهم «جماعة المصلحين» ، قد تخيرهم على مر الأيام واستطاع أن يجمعهم حوله من مختلف طبقات الشعب ، فمنهم الفقيه والمتصوف والكاتب والخطيب فى الجامع والمحتسب ، وفيهم التاجر والسقاء والجزار ، قد تعاهدوا جميعا على القيام بحركة سرية ثابتة منظمة ترمى إلى تخليص البلاد مما فيها من الفساد .

فلما بدأ شاور ينتهج سياسته الجديدة ، لقى كثيرا من تأييد أبى الفضل وتشجيعه ، وأفاد من رأيه ومشورته ، وتردد عليه نفر من أولئك الجماعة ، فسمع منهم وسمعوا منه ، دون أن يعرف تلك الرابطة الخفية بينهم . بل كان لا يدرى أن كاتب إنشائه عبد الرحيم بن على البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل كان من هؤلاء .

وكان شاور خليقا أن ينجح فى سياسته هذه ، فقد كان شجاعا مقداما وكان ذكيا داهية ، وكان قوى العارضة ، فصيح القول ناصع الحجة ، يستطيع أن يقنع من يشاء بما يشاء فى كلمات قليلة معدودة يرسلها فتجرى أحيانا مجرى الأمثال تؤثر عنه وتحفظ ، ويكون لها صدى

عميق فى نفوس السامعين . وكان كريما سخيا من ذلك الطراز النهاب الوهاب الذى يحب المال حبا جماً ، لا ليجمعه أو يؤثله ، بل لينفق منه ويتكرم به ويصطنع به الرجال والأعوان ، ثم كان مديد القامة عريض المنكبين ، مفتول الذراعين . شامخ الأنف ، واسع العينين ، بشوشا أنيسا إذا رضى ، ومرهوبا إذا غضب .

ولكنه كان ضعيفا فى محاسبة أبنائه ، لشدة حبه لهم ، فاستغلوا نفوذه وسلطانه ، فأطلقوا أيديهم فى أموال الدولة وأموال الشعب بما يتحيفون من الأوقاف أو الصدقات العامة ، ويتقبلون من الرشا والهدايا على قبول الشفاعات . وتولية المناصب ، وتنفيذ الأحكام ، وجر المغانم ، أو دفع المغارم ، وجرى على آثارهم فى ذلك بعض حاشيته وبطانته حتى ضج عقلاء الأمة منهم . وكان شاور يسمع ويرى ولكنه كان يتغاضى عنهم ، فإذا عوتب فى ذلك انتحل لهم المعاذير ، أو وعد بأنه سيردعهم عن ذلك ، ولكنه لا يفعل شيئا ، حتى إذا اشتد النكير عليه من بعض خواصه ، قال لهم :

ـ دعوهم .. هذه دولة أبيهم .. فإذا لم يجمعوا فيها . فمتى يجمعون؟

ثم كان يقول لهم :

ـ حدثونى عن وزير واحد لم يأخذ أبناؤه وحاشيته من أموال الدولة فى عهده شيئا ..

وكان أشد الناس نكيرا عليه أبو الفضل ، فطالما لامه وعنفه وأنذره بسوء العاقبة وذكره بالعهد الذى قطع على نفسه بأن يستن سنة الإصلاح فى وزارته ، فكان شاور يقبل رأسه وما بين عينيه وهو يقول متلطفا :

ـ يا أخى ، يا أبا الفضل .. إنك ترانى لم أجمع لنفسى شيئا .. أما أبنائى ـ وهم أبناؤك ـ فليسوا ملائكة .. وهم يرون نظراءهم من أولاد الوزراء . فلا يريدون أن يكونوا دونهم . وعامة الناس بخير لا يشكون شيئا .. وما يلغط بالنكير والتشهير غير الحساد !

ولم يعد شاور الحقيقة حين قال : إن عامة الناس لا يشكون من ذلك ولا ينكرون عليه ، فقد صار عندهم أمرا مألوفا وحقا مشروعا، وحسبهم عرفانا لجميل شاور أنه أسقط عنهم بعض الرسوم وخفف بعض الضرائب .

ولم يقتصر أبو الفضل على نصيحة شاور ، بل اتصل بأبنائه الثلاثة ينصحهم ويعنفهم ، فكان سليمان وطئ يعدانه بالكف مرة بعد مرة دون أن يكفا ، ثم صارا يتهربان من لقائه لئلا يحرجهما أو يحرجاه ، ولكن شجاعا وهو أصغر الثلاثة قد استمع لنصحه فكف أواقتصد . لأنه كان أطهرهم نفسا ، وأرقهم شعورا ، وأميلهم إلى الخير والاستقامة ، ولأنه كان كثير التردد على بيت أبى الفضل شديد الإعجاب به والتوقير له ، ولأنه فوق ذلك كله كان يحب سمية !

وقد تزعزعت ثقة أبى الفضل من جراء ذلك بشاور ، وقل أمله فيه ، ولكنه لم يفقدهما جملة ، فما زال يرى شاور أجرأ وزير على مناهضة القصر للحد من طغيانه ، ويرى فى عهده أصلح عهد لنمو الحركة السرية التى يقوم بها هو وأصحابه .

ولكن العاضد ، وهو يرقب سياسة شاور فى قلق ، ويتربص لإسقاطه، قد وجد فيما ارتكبه أولاده مغينا عليه ، وبشيرا له بأن الساعة قد حانت ، فما هو إلا أن وثب ضرغام وثبته تلك ، فإذا نصف جنود

الدولة قد صاروا فى صفه ، وإذا البرقية ـ وهم من أقوى الفرق وأشجعها ـ قد وثبوا على أبواب العاصمة واحتلوا حصونها فسيطروا على الموقف. وأعلن ضرغام أنه مؤيد من العاضد فتخاذل أنصار شاور فى أول يوم ، وطفقوا ينحازون عنه حتى لم يبق معه منهم إلا قليل ، وأدرك شاور فى اليوم الثالث أنه سيحاط به إن بقى فى العاصمة فيقبض عليه ، فجمع أولاده الثلاثة وجماعة من رجاله الأوفياء ، وفرسانه الشجعان فانطلق بهم صوب الشمال . فهاجموا باب الفتوح . واشتبكوا مع حاميته فى قتال عنيف استطاع شاور فى خلال ذلك أن ينجو بنفسه دون أن يلحظه أحد ، وكان فارسا لا يشق له غبار ، فاختفى من موضع المعركة فى طرفة عين .

وقبض على من بقى من جماعته ، ومنهم أولاده الثلاثة ، فسيقوا إلى ضرغام فعذبهم ليستخرج منهم سر شاور : أين ذهب ، فلما أعياه ذلك منهم أمر بهم فقتلوا جميعا إلا شجاعا ، فقد أبقى عليه ، واكتفى بحبسه فى دار الوزارة .

وانطلق رجال ضرغام يبحثون عن شاور فى كل مكان ، فقد كان العاضد حريصا على قتله ، ولا يأمن مكره . إلا إذا رأى رأسه محمولا إليه فى طبق . ولكنهم حتى آخر الليل لم يعثروا له على أثر ، ولم يتضح لهم أنه هرب إلى الشام إلا بعد ذلك بيومين .

٨

واستاء العاضد كثيرا لما علم بنجاة شاور . وأنحى باللائمة على ضرغام إذ لم يستطع رجاله أن يقبضوا عليه ، غير أنه سرى عنه قليلا إذ تذكر أن خروج شاور من القطر كان أهون على كل حال مما لو اعتصم بالصعيد . فالتجأ إلى أشياعه هناك . إذن لربما استطاع أن يجمع منهم ومن عربان الصحراء جيشا فيكر بهم على القاهرة كما فعل من قبل حين أوعز إليه العاضد ليقضى به على وزيره رزيك .

وما كان يعلم حقيقة مقصد شاور من هربه إلى الشام إذ ذاك غير أبى الفضل وجماعته المصلحين . ذلك أن أبا الفضل كان فى دكانه بالفسطاط حين بلغه وثوب ضرغام ، ولم يكد يقفل دكانه ويعود إلى داره حتى هاله ما سمع من رجحان كفة ضرغام من أول يوم ، فأشفق أن يقضى على شاور فيقضى على الأمل الذى عقده عليه ، فبات مؤرقا طول الليل . لم تكتحل عينه بنوم ، وأخذ يستعرض ما انتهت إليه الأمور ، وما يتوقع أن تنتهى إليه إذا تمت هزيمة شاور . فسيزداد العاضد طغيانا ، وسترسخ قواعد عرشه القائمة على الفساد ، وستظل البلاد ترزح تحت نيره فى حالتها الفوضى حتى تفضى بها فى يوم قريب أو بعيد إلى الكارثة وما أدراك ما الكارثة : سقوط مصر ، هذه القلعة الكبرى الباقية للإسلام فى أيدى أعدائه المغيرين من فرنج الشام ، ويومئذ تكون الطامة الكبرى .

فلما أصبح الصباح قال لأهله :إنه ذاهب إلى القاهرة ليزور ابنه الفضل ويطمئن على متجره الكبير هناك ، فحاولت أم الفضل أن تثنيه عن ذلك خوفا عليه من خطر الحرب القائمة ، فشرح لها ضرورة ذهابه وأكد لها ألا خوف عليه ، وكانت تعلم أن زوجها إذا صمم على أمر فلا سبيل إلى رده . ففوضت أمرها إلى اللّه وابتهلت إليه بالدعاء أن يصون زوجها من السوء . ونظر أبو الفضل إلى ابنته سمية ، فلمح عبرة تترقرق في عينيها ، فأدرك ما يعتلج فى قلبها ، فدنا منها ومسح رأسها بيمينه وهمس فى أذنها قائلا :

ـ لا تقلقى عليه .. فستنتهى الأمور إلى خير .

فتورد وجهها حياء وغضت طرفها وهى تقول :

ـ صانك اللّه يا أبى .. سلم لى على أخى الفضل .

وتوجه أبو الفضل على بغلته الشهباء صوب القاهرة ، وأمامه خادم يخب أمامه فى الطريق حتى بلغا باب زويلة فحمدا اللّه إذ وجداه فى أيدى رجال شاور بعد . فلما رأوه أوسعوا له . فاكتفى بتحيتهم ومضى فى سبيله يتوخى الدروب الصغيرة الآمنة من المدينة ، ويصل إلى سمعه الفينة بعد الفينة حس الفرسان يطارد بعضهم بعضا فى الشوارع والسكك . حتى بلغ سالما إلى دار ابنه الفضل .

وهى دار كبيرة لها عدة مداخل من أزقة مختلفة ، وتشتمل على قاعات متعددة وحجرات كثيرة تفصل بينها دهاليز وأبواب معظمها مخازن لحفظ السلع والبضائع ، وتتوسطها القاعة الكبرى لاستقبال العملاء ، وعرض السلع عليهم ، ويقيم الفضل وأهله فى الطبقة العليا من هذا الربع .

وفى هذه الدار كان أبو الفضل يعقد اجتماعاته مع أصحابه المصلحين يدخلونها فرادى من أبوابها المختلفة ، وكأنهم من زوار الفضل أومن عملائه ، ثم يجتمعون فى قاعة جوانية يغلقون عليهم بابها ، فلا يشعر بوجودهم أحد .

ولم يكن بالربع أحد من الزوار والعملاء إذ ذاك ، فقد أقفلت الحوانيت ولزم الناس دورهم ، فلما دخل أبو الفضل وصاحبه تلقاهما ابنه الفضل مرحبا ، ثم أخبر والده أن بعض الجماعة قد حضروا من الصباح وهم مجتمعون فى قاعتهم ينتظرونه ، فالتفت أبو الفضل إلى صاحبه قائلا :

ـ اسبقنى يا نعمان إليهم وسألحق بك ..

وصعد أبو الفضل مع ابنه فحيا زوجته وأولاده وجلس معهم قليلا ثم نزل إلى قاعة الاجتماع ، فإذا ثلاثة منهم رابعهم السقاء الذى قدم معه من الفسطاط ، أما الثلاثة فهم نجم الدين الخبوشانى الصوفى الزاهد . وأبو الليث المحتسب ، وابن حكيم إمام الجامع الأقمر .

ـ الحمد لله إذ وجدتكم هنا ...

ـ لقد توقعنا أن تحضر فحضرنا ..

ـ نعم مافعلتم .

وأخذ الجماعة يتحدثون عن المعركة القائمة ، ويروى بعضهم لبعض ما سمعوا من أخبارها وتطوراتها حتى إذا انتهوا من ذلك ، التفت إليهم أبو الفضل وسألهم :

ـ ماذا ترون الآن ؟ ماذا ترى يانجم الدين ؟

وكان نجم الدين مستغرقا فى تسبيحه وهو يقلب حبات سبحته كالذاهل ، فكأنما انتبه من ذهوله .. حين التفت إلى أبى الفضل فقال :

ـ الرأى رأيك يا أبا الفضل .. فتكلم أنت .

ـ بل تكلم أنت أولا فإننا نتبرك بحديثك ..

فوضع نجم الدين سبحته وأخذ بطرف لحيته يمسحها ويقلب شعراتها وهو يقول :

ـ يفعل الله ما يشاء .. ولله حكمة فيما قضى .. وإنكم لتعلمون رأيى فى شاور .. فلست آسف عليه إذا غلب ...

فقال ابن حكيم :

ـ وهل يعجبك ضرغام يا نجم الدين ؟

ـ إنا لم نجربه بعد ، وقد جربنا شاور فوجدناه رجلا يعتبر البلد ضيعة له ولأولاده ...

ـ ستترحمون غدا على عهد شاور إذا بلوتم عهد ضرغام !

ـ من يدرى ؟ يقال لإنه ذو عفة وشهامة ، وفى موقفه من آل رزيك مصداق لذلك .

ـ قد باع نفسه للعاضد بعد ذلك .

فتنحنح أبو الفضل حين ذلك وقال :

ـ ماذا يعنينا الآن أن نوازن بين شاور وضرغام ؟ إن علينا أن نقرر ماذا نصنع ؟

فقال أبو الليث مؤيدا :

ـ أجل يا قوم ، قرروا ماذا نصنع :

ـ إذا شئتم درت على أصحابنا من نقباء أهل المهن والحرف ليهيبوا برجالهم إلى عمل شيء ..

قال نجم الدين :

ـ ويئك يا نعمان .. إلام تريد أن تدفع بهؤلاء ؟ إلى قتال الجند ؟

فقال ابن حكيم :

ـ و لم لا يا نجم الدين ؟ إنهم يقدرون أن ينتصروا لما نريد !

ـ بأى شيء يا ابن حكيم .. بهرواتهم وعصيتهم ؟

فقال نعمان :

ـ لعلك لا تعلم يا سيدى الشيخ أن كثيرا منهم قد اقتنوا السيوف والحراب ، وعندهم جميعا الشفار والفؤوس !

فقال أبو الفضل :

ـ كلا يا نعمان .. لم يحن أوان مثل هذا العمل بعد ، ثم إنه لا فائدة منه اليوم بعد ما ظهر أن كفة ضرغام هى الراجحة ..

فقال ابن حكيم :

ـ رجحت كفة ضرغام لأن العاضد معه و لم ينتصر لشاوز أحد .. حتى عامة الناس الذين من أجلهم ناهض شاور القصر أسلموه وتركوه لعدوهم العاضد ! حتى نحن الذين أيدنا سياسته صرنا اليوم لا نأسف عليه إذا غلب ..

ـ باللّه يا ابن الحكيم لا تسئ فهم ما أريد . إنى ما أتحامل على شاور لأمر بينى وبينه ، ولكننا نرمى إلى التخلص من حكم العاضد وأسرته وليس شاور بالرجل الذى يصلح للنهوض بهذا الأمر ...

فسأله ابن حكيم :

ـ ومن يصلح لذلك ؟

ـ لا أدرى متى يقيضه الله لنا . ولكنه لن يكون شاور بحال .. لأنه لو نجح لأقام من نفسه عاضدا جديدا ..

ـ أتعلم الغيب يا نجم الدين ؟

ـ الله وحده يعلمَ الغيب . ولكنى أتفرس ذلك وأتوسم من طباعه وفعاله ..

فقال أبو الفضل ...

ـ أنا أيضا لا أثق بشاور كل الثقة .. ولكنى أرى عهده ذا فائدة لنا إذ يدنينا خطوة مما نريد ؛

فسأله نجم الدين :

ـ واليوم يا أبا الفضل ، أمازلت تراه كذلك ؟

ـ نعم .. بل لعلنا نستطيع أن نفيد منه اليوم أكثر مما أفدنا منه أمس ...

ـ كيف ؟

ـ ألا تذكرون خطر الفرنج الذى يتهددنا من الشرق ؟

فأجابوا جميعا : بلى !

واستطرد نجم الدين قائلا :

ـ هذا بلاء عظيم قد وقع علينا منذ وطئت أقدامهم أرض الشام إلى أن تمكنوا من معظم مدنها وسواحلها . وقد أكل الثور الأحمر يوم أكل الثور الأبيض !

قال ابن حكيم :

ـ صدقت يا نجم الدين ، ولولا نور الدين فى دمشق لما تأخر زحفهم إلى بلادنا حتى اليوم ...

ـ بل قد زحفوا على بلادنا بالفعل يوم اقتطعوا منها عسقلان ، فلم نحرك ساكنا ، ثم فرضوا علينا الجزية ثلاثة وثلاثين ألف دينار فى السنة فقبلناها صاغرين !

فقال أبو الفضل :

ـ هذا بيت القصيد يا قوم .. لعلكم تذكرون أننى طالما حدثتكم أن وجود هذا العدو الدخيل في فلسطين وسائر بلاد الشام قد جعل مصير الأقطار العربية واحدا مرتبطا بعضه ببعض .. ولن يتم لها الخلاص من هؤلاء الدخلاء إلا إذا تعاونت جميعا على إخراجهم وطردهم .

قال ابن حكيم .

ـ هذا حق ؛ ولكن أكثر الناس هنا لا يدركون هذه الحقيقة ..

قال أبو الفضل :

ـ الفرنج أنفسهم يدركونها ويدركها أيضا نور الدين ..

فقال نجم الدين :

ـ لكن خبرنى يا أبا الفضل هل يدركها شاور صاحبك ؟

ـ أظن أنه قد صار يدركها بعد ما كلمته كثيرا فى هذه المسألة :

ـ فماذا فعل ؟ هل قطع الجزية عنهم ؟

ـ لم يحل موعد دفع الجزية فى عهده .

ـ هل بعث إلى نور الدين أمر هؤلاء للتعاون معه على دفعهم ؟

ـ كلا ما فعل شيئا من ذلك بعد .

ـ أفترجو يا أبا الفضل أن يفعل اليوم شيئا من ذلك ؟

ـ نعم ..

فعجب نجم الدين من جوابه كما عجب الآخرون . ولكن أبا الفضل مضى يقول :

ـ إني فكرت البارحة في الأمر . فرأيت أن شاور منهزم لامحالة ، فماذا لو انتهزنا هذه الفرصة فأشرنا عليه أن يهرب إلى الشام ويستنجد بنور الدين ...

ـ على من ؟ على العاضد إذ طرده من الحكم ؟

ـ نعم ..

ـ وهل يوافق نور الدين ؟

ـ أرجو أن يوافق ، ولا سيما إذا شرح له شاور حقيقة الحال في مصر ووجوب إصلاحها وتقويتها خشية أن تقع في أيدى الفرنج .

فاستصوبوا جميعا هذا الرأى إلا نجم الدين فإنه استدرك قائلا :

ـ لو قام بهذه السفارة رجل غير شاور ... فإني أخشى ألا ينال ثقة نور الدين الخبير بالرجال ...

فقال أبو الفضل :

ـ لا تنس يا نجم الدين أن شاور هو النائحة الثكلى في هذا الشأن .. وليست النائحة الثكلى كالمستأجرة ، ومهما يسؤ رأيك فيه فلن تستطيع أن تنكر حسن بيانه وقوة حجته .

ـ أجل إنه يقدر أن يلبس الباطل ثوب الحق ...

ـ فأحر به أن يقدر على إلباس الحق ثوب الحق ، ولا سيما لرجل مثل نور الدين حريص على أن تتاح له مثل هذه الفرصة لتحقيق ما يصبو إليه من توحيد كلمة العرب والمسلمين .

فاستنار وجه نجم الدين وقد انشرح صدره ، فقال وهو يضرب بيده على كتف أبى الفضل :

ـ اللّه ... اللّه يا أبا الفضل ، إن اللّه إذ جعل الإخلاص يتقد فى قلبك قد جعل الحكمة تقطر فى لسانك ...

ثم أخذ القوم يتشاورون كيف يتصلون بشاور ليفضوا إليه بذلك الأمر ، على أنه مشورة من أبى الفضل وحده . وأن أبا الفضل يعده بأن يكاتب نور الدين من ناحيته وبوسائله الخاصة مؤيدا طلب شاور ومؤكدا وجوب نصرته . إلى أن اتفق رأيهم على أن ينتدب نعمان السقاء لإبلاغ ذلك إلى شاور عن طريق كاتبه القاضى الفاضل .

٩

كان شاور قد أيقن بالهزيمة واعتزم الفرار إلى الصعيد ليحتمى بأشياعه هناك ويستنجد بهم ، وقد أخذ يعد العدة لذلك . فأخبر أبناءه الثلاثة بعزمه ، وأوصى زوجته بأن تترك دار الوزارة من الغد وتنتقل بحاشيتها إلى دار سعيد السعداء . فلما أسر إليه القاضى الفاضل برسالة أبى الفضل جعل يوازن بين الخطتين أيتهما أفضل . وكان أكثر ميلا إلى الخطة الأولى لولا أن القاضى الفاضل جعل جهده يراجعه ويشرح له مزايا الخطة الثانية حتى اقتنع بها بعد لأى . وأوصاه القاضى الفاضل أن يكتم وجهته هذه حتى عن أولاده خشية أن يقع أحدهم فى قبضة ضرغام فيستخرج منه سره بالقوة والتعذيب . فعمل شاور بنصيحته . فلم يعلم بوجهته يوم نجا بنفسه أحد غير شجاع ابنه . أسر إليه بذلك القاضى الفاضل دون علم شاور ليحمله بذلك على شد أزر أبيه والاجتهاد فى معاونته على تحقيق مهمته ، وهو على ثقة أن شجاعا يؤثر أن يلقى الموت على أن يبوح بسر خطة أشار بها أبو الفضل .

وقد تحقق ما قدره القاضى الفاضل حينما وقع أولاد شاور وبعض فرسانه فى الأسر . فأمر ضرغام باستنطاقهم وتعذيبهم ، فأقروا جميعا بأن شاور قد اعتزم الفرار إلى الصعيد ماخلا شجاعا ، فقد لزم الصمت ولم ينطق بكلمة ، واحتمل العذاب فى صبر وشجاعة إلى أن حضر ضرغام ، فلما رأى ذلك أمر فعزل شجاع من بينهم وقتل الباقون .

وعجب رجال ضرغام . ومن بينهم أخواه همام وحسام ، لما علموا أن ضرغام قد نقل شجاع بن شاور من الحبس فأنزله عنده فى دار الوزارة ، إلا أنهم ظنوا فى أول الأمر أنه يريد أن يستنطقه بنفسه ، ثم يقتله بعد ذلك ، ولكن أخويه وبعض خاصته مالبثوا أن أعلموا أنه بالغ فى تكرمته وحسن معاملته . حتى اختار له نفس الحجرة التى يقيم بها من الدار فى عهد أبيه . وأمر بتوفير كل ما يحتاج إليه من أسباب الراحة ، فكان لا ينقصه شيء إلا أنه معتقل فى ذلك الجناح لا يغادره ، وكان ضرغام يدخل عنده الفينة بعد الفينة فيقضى معه بعض الوقت يؤانسه ويطيب خاطره ثم يخرج .

قال له حين دخل عليه ثانى يوم بعد ما اعتذر له عماً أصابه من مس السياط :

ـ أتدرى ياشجاع لماذا صنعت بك هذا من دون إخوتك ؟

فأجابه شجاع فى شيء من السخرية :

ـ لعلك تعمل بسنة الأريحيين الكرام .. إذا ملكت فأسجح :

ـ كلا ياشجاع .. لو كنت كذلك لأبقيت على إخوتك أيضا .. ولكنك أسديت إلى يدا .. فأردت أن أجزيك عليها ..

ـ أى يد تعنى ؟

ـ إن كنت حقا لا تذكرها .. كان ذلك أعظم لك فى نفسى .. ألا تذكر كلمة قلتها لأبيك يوم أراد أن يقصينى من منصبى فى قيادة العساكر ؟

ـ بلى تذكرتها الساعة .. ولكنا كنا وحدنا إذ ذاك .. فكيف علمت ؟

- قد بلغتنى من بعض من حضر فحفظتها لك ...

- ولكنها لم تصنع لك شيئا ..

- هذا ذنب أبيك .. وليس بذنبك .. وأنا لا أنسى الحسنة يا شجاع كما لا أنسى السيئة ...

وسكت ضرغام قليلا وهو ينظر إلى الفتى . كأنه يريد أن يتبين أثر كلامه فيه ، فرآه قد وجم وسرح ذهنه فى أودية الفكر ، فقال له :

- إن كنت ترغب فى شيء فاقترح ما تشاء .. أجبك إليه فى الحال ..

- قد جزيت الحسنة بالحسنة .. فما بقى لى عندك شيء !

- بل اقترح على ما تشاء فما جزيتها لك بعد ..

- ربما أطلب منك شيئا يعز عليك !

فتوقف ضرغام هنيهة وجال فى ذهنه أنه قد يطلب إطلاق سراحه ، فهم أن يستثنى ذلك من الطلب . ولكنه لم يفعل ، بل قال له :

- كلا لن أضن عليك بما فى مستطاعى ...

فتهدج صوت شجاع وهو يقول :

- إذن فهل لك ياضرغام أن توصى رجالك بأمى خيرا ، فلا يزعجوها ولا يروعوها فوق ما أصابها من الكريهة والثكل ؟

ولم يكد يتم كلمته حتى غامت عيناه بالدمع .

فتأثر ضرغام لما رأى وسمع ، وعضه الندم على ما كان من رجاله الليلة البارحة إذ فتشوا بيت شاور ، فروعوا من فيه ، فقال لشجاع :

- لا تبتئس ياشجاع .. فستكون والدتك محل الرعاية منى ومن رجالى منذ اليوم ...

فقال شجاع وهو يمسح دمعه متجلدا :

ـ الآن استوجبت شكرى يا أبا الأشبال .. فشكرا لك .

ـ أما عندك طلب آخر ؟ ..

ـ لا ، وأشكرك .. حسبى هذا منك ...

وخرج ضرغام من عنده وهو يتعجب من سلوك هذا الشاب وكمال خلقه ، ويحمد الله إذ ألهمه فأبقى عليه .

وخلا شجاع إلى نفسه ، وقد أسره ضرغام برقته ومروءته حتى كاد قلبه يميل إليه ، لولا أنه تذكر أنه عدو أبيه اللدود الذى طالما ناصبه العداء ، ثم وثب عليه واغتصب منه كرسى الحكم ، فهو اليوم شريد طريد مجهول المصير . وهل يستطيع أن ينسى أنه ذبح شقيقيه طيئا وسليمان ليطفئ نار الانتقام فى نفسه ؟ وماذا تكون حال أمه الواهنة العجوز إذا بلغها مصرع ابنيها فى يوم واحد ؟ ولعلهم قد أبلغوها ، فهى الآن تعانى وحدها أشد الكرب . وأمض الثكل لو أنهما صرعا فى الميدان لا حتمل الخطب ولأمكن العزاء ، أما أن يذبحا وهما فى القيد كما تذبح الأنعام فجرح غائر فى القلب ، ليس إلى اندماله سبيل !

ولكن خيال ضرغام يعود فيتمثل أمامه جميل الطلعة ، وضاح الجبين ينظر إليه فى عطف ، ويعتذر إليه فى رقة ، ويتودد إليه فى صدق وإخلاص ويسأله أن يقترح عليه ما يشاء فى لطف ، ثم يجيبه إلى ما سأل فى أريحية وكرم ، وقد ذكره بكلمة قالها يوما فيه لم يقصد بها إلا خير أبيه ، ولكن ضرغاما عدها يدا تجزى ولا تنسى ، أفيستحق البغض رجل هذا نعته وهذه شمائله ؟

عدو لأبيه ؟ نعم ، ولكن أباه أيضا قد عاداه وأقصاه عن منصبه . انتزع منه الحكم ؟ أجل ، ولكن أباه أيضا قد فعل هذا مع رزّيك . قتل طيئا وسليمان ؟ ترى ما كان يفعل أبوه لو ظفر بحسام وهمام ؟

وانطلق فكرَه يوازن بين الخصمين من حيث لا يشعر ، كأنما ليعلم أى الرجلين أجدر بهذا الكرسى الذى كان التنافس عليه سبب كل ما حدث ، ولكن ميزانه لم يلبث أن مال به الهوى فى كفة أبيه فقد أخذت ذكرياته مع أبيه تنتفض فى ذهنه من خلال عشرين عاما أو تزيد. حاملة فى أعطافها صورا لا تحصى من عواطف الحب والحنان ، ودلائل الرعاية والعطف ، متواشجة مع ذكريات أمه الحبيبة فى موكب واحد ، منذ كان طفلا يدرج ، فصبيا يلعب ، فيافعا يحلم ويتفتح ، فشابا يخوض غمار الحياة ويحب !

ويتوارى الموكب من مسرح ذهنه ، فإذا سمية وحدها تقبل فى موكب من الجمال والفتنة والنضرة والشباب ، تتراءى خلفها ذكريات هواه ، وتتواثب حولها وأمامها آماله وأحلامه فى المستقبل السعيد .

أواه ! أين هو منها الآن ، وأين هى منه ؟

لقد كان آخر عهده بها يوم زار بيت خالته أمينة ، قبل الواقعة بأيام، فلقيته سمية فى ثوبها اللازوردى . وجلست معهما أمها ، فطفقوا يتحدثون فى أمور شتى ، ثم استدرجهما بلطف إلى حديث الزواج ، فتعللت سمية حينئذ ببعض شئون البيت وخرجت من عندهما ، ففاتح خالته برغبته فى تعيين موعد الزفاف ، فقد طال انتظاره لذلك ، وكاد صبره أن ينفد من تأجيله مرة بعد مرة ، فوعدته خالته بأن تكلم أبا الفضل فى ذلك . وقالت له :

ـ إن شاء اللّه يا شجاع سيتم ذلك فى أوآسط الربيع القادم ..

ـ ولم لا يكون قبل ذلك ؟

ـ ويحك يا ابن أختى .. إنا لن نفرغ من إعداد جهازها إذا بدأنا فيه من اليوم ، قبل مضى أربعة أشهر أو ثلاثة على الأقل ..

ولما أراد الانصراف ، دعا سمية ، فهمس فى أذنها ، وهى تشيعه إلى الباب :

ـ هذا آخر شتاء تقضينه عند أهلك يا سمية !

فسألته متجاهلة :

ـ ولماذا ؟

ـ لأنك فى الربيع القادم ستقيمين فى بيتى !

ما كان يدرى فى ذلك اليوم السعيد أن الدهر له بالمرصاد ، وأن مثل هذا الخطب الجسيم يوشك أن يقع بعد ذلك بأيام فيعصف بين عشية وضحاها بذلك الحلم الجميل . واحسرتاه ! إن الشتاء سينقضى بعد فى حينه ، وسيقدم من بعده الربيع فى ميعاده ، ولكن ماذا يعنيه الآن أن يطول الشتاء ويتخلف الربيع ؟

١٠

ودخل ضرغام عنده يوما آخر ، أنبأه بأنه أرسل إلى والدته من أخبرها بأن ابنها مقيم عنده فى دار الوزارة بخير حال ، ففرح شجاع وشكره على ذلك .

ثم قال له ضرغام :

ـ ووالدك يا شجاع ألا تحب أن تعرف أين هو اليوم ؟

فاضطرب شجاع قليلا ثم قال :

ـ أين ؟

ـ فى الشام ...

ـ الحمد لله !

ـ كأنك كنت تعلم من قبل أين توجه ؟

ـ نعم ..

ـ فلم لم تزعم لنا أنه توجه إلى الصعيد .. فتضللنا بذلك عن حقيقة مقصده كما فعل أخواك !

ـ غفر الله لهما .. كانا يظنان حقا أنه توجه إلى الصعيد .

ـ أنت وحدك الذى كنت تعلم الحقيقة ؟

ـ نعم ..

فنظر إليه ضرغام مليا كأنه لا يصدق ما يسمع ..

ـ إن كنت ياضرغام قد ندمت الساعة على أن لم تستخرج السر منى بالقوة والتعذيب ، فاعلم أنى ما كنت لأبوح به ولو عذبتنى حتى الموت .

ـ لا والله ياشجاع ماندمت على ما فعلت ... وإنما ازددت إعجابا بهذا الصنيع منك .

ثم قال له :

ـ وددت ياشجاع لو خليت سبيلك .. ولكنى أخشى عليك من العاضد ..

ـ يريد قتلى ؟

ـ نعم .. قد طلبك منى ليقتلك .. فسألته أن يهبك لى على أن تبقى أسيرى ولا أطلق سراحك إلا إذا أذن .. فقبل بعد لأى ...

فظهر الاغتمام فى وجه شجاع ولم يتكلم .

قال له ضرغام .

ـ لا تبتئس .. فلن يلقاك هنا عندى إلا كل خير .

١١

ولما بلغ العاضد أن شاور ذهب ليستنجد بنور الدين ، وأن نور الدين ربما يلبى دعوته ، اغتم لذلك ، وحسب له ألف حساب . وخطر له أن يستنجد هو بالفرنج ، وفاتح ضرغام فى ذلك وهو على يقين أن وزيره سيحبذ هذا الرأى ليتقى به عودة شاور إلى الحكم بقوة نور الدين ومعونته ، ولكن ضرغاما لم يكد يسمع ذلك حتى استنكره قائلا:

ـ كيف تريد منى يا مولاى أن أفتح عهدى فى الحكم بمثل هذه الخيانة للدين والوطن ؟

فبهت العاضد ولم يكد يصدق ما يسمع ثم قال له :

ـ ويلك ياضرغام .. أتريد أن تتهمنى بخيانة الدين والوطن ؟

ـ كلا إنى لا أريد أن أتهم أحدا . ولكن هذا الفعل فى ذاته خيانـة ، ومن يرتكبه أو يرض به فهو خائن ..

فغضب العاضد فى الباطن وحقدها على ضرغام . وأدرك منـذ تلـك اللحظة أنه ليس هو الوزير المطلوب ، ولكنه تجلد وأظهر له قلة الاكتراث بما قال . بل أظهر له شيئا من الرضا إذ أجابه مبتسما :

ـ هذه صراحة تعجبنى منك يـا أبـا الأشبال ، ولكـن فـاتك أننـى لا أقصد تسليم بلادنا للفرنج بل حمايتها منهم ومن نور الدين ...

ـ إن نور الدين ليس عدو لنا كالفرنج .. وما يعنيه من مصـر إلا أن تكون بمنجاة من الوقوع فى أيديهم حتى لا يتقووا بها عليه ...

ـ هب هذا صحيحا .. ولكن ما تقول فى شاور ؟ أيرضيك أن يعـود إلى الحكم على رغم منى ومنك ؟ عجبا لـك يـا ضرغـام أنـا أسعى إلى تمكينك لتمسكى بك وثقتى فيـك وأنـت تسـعى إلى تمكـين عـدوك مـن نفسك ...

ـ شكرا لك يا مولاى .. ولكنى قد فكرت فى سبيل آخـر خـير مـن هذا السبيل ...

ـ ما هو ؟

ـ سأكتب إلى نور الدين .. أشرح لـه حقيقـة شـاور وحقيقـة نيتـه ، وأنقض دعواه فى ميلنا إلى الفرنج ومحالفتهم ...

فقاطعه العاضد قائلا :

ـ ومن أدراك أن شاور ادعى علينا ذلك عند نور الدين ؟

ـ لا ريب أنه فعل .. فلن يستجيب له نور الدين إلا إذا ادعى له ذلك .. ولكنى سأوكد أننا سدود عن حياضنا دون الفرنج . وأننا على استعداد للتحالف معه عليهم ...

ووقف العاضد فى مناقشة وزيره عند هذا الحد ، إذ لم يجد عنده ما يريد . ورأى أن يستقل من ورائه بتدبير مايراه . فعرض الأمر على دهاقين السياسة فى القصر ، ويقال لهم الأستاذون ، وهؤلاء هم الذين يحفظون أسرار السياسة التى يجرى عليها القصر منذ زمن قديم ويتوارثونها أستاذا عن أستاذ ، وهم دائما موضع ثقة الخليفة ، لا يقطع فى أمر دون مشورتهم ، ولا يتصرف فى شأن من الشئون العامة إلا بعد موافقتهم . وبفضل هؤلاء اطردت سياسة القصر منذ عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الذى كان أمة وحده ، على سنن واحد لا يختلف إلا باختلاف الظروف والأحوال ، على تعاقب الخلفاء الذين يجلسون على العرش . واختلافهم فى الكفاية والسن . فقد كان بعضهم أطفالا لم يبلغوا الحلم أو لم يصلوا إلى سن الرشد . وهذا العاضد نفسه كان عمره حين ولى الخلافة دون العاشرة ولم يزل حتى اليوم دون العشرين ، فما كان فى الإمكان أن يبدى ما أبدى من الدهاء وبعد النظر ، وسعة الحيلة والبراعة فى تدبير الأمور وإحكام الخطط وفى التلاعب بأقدار الرجال ـ لو لم يكن هؤلاء الأستاذون من ورائه يبصرونه ويسددونه ، وكان عنده ذكاء خارق فأعانه ذلك على أن يعى عنهم من أسرار السياسة المتوارثة فى القصر ما جعله وهو فتى دون العشرين

يتصرف تصرف الكهول بل يناطحهم دهاء وحكمة وكأنما كان يشعر فى أعماقه بقرب نهاية حكمه وحكم أسرته ، فتجمع فيه ما تفرق من مواهب آبائه وأسلافه ، كاللمعة الأخيرة قبل انطفاء السراج !

وبعد ما انتهى العاضد من التشاور مع دهاقينه المحنكين ، استقر رأيه على أن يكتب سرا إلى الفرنج ليمنعوا نور الدين عنه ، ويكتب فى الوقت نفسه إلى نور الدين يستنجد به ليخلص البلاد من بغى ضرغام وطغيانه .

١٢

أما أبو الفضل وجماعته ، فقد سرهم نبأ وصول شاور إلى دمشق بسلام ، ثم زاد سرورهم لما أطلعهم على رسالة سرية وردت إليه من شاور عن طريق بعض عملائه التجار يذكر فيها مالقى عند نور الدين من الحفاوة والتكرمة وماوجد عنده من الميل إلى تلبية الأمر الذى فاوضه فيه ، وما كان للرسالة التى تلقاها نور الدين من أبى الفضل من جميل الأثر عنده ، ويطلب منه لذلك أن يوالى الرسائل إليه ليستشير بها حماسته ويستنهض بها عزمه ؟

ثم كان عيدا عندهم لما أطلعهم أبو الفضل على كتاب جاءه من نور الدين بتوقيعه وختمه جوابا على رسالته . يعلن له فيه أن اللّه قد شرح صدره لتلبية الدعوة التى وجهها شاور إليه بلسان المخلصين من أهل مصر . عسى أن يوفقه اللّه إلى حفظ هذا البلد العظيم من الخطر العظيم .

وكانوا فى خلال ذلك قد اجتهدوا بمختلف السبل والوسائل فى إشاعة هذا الأمر بين الناس وتبشيرهم به ودعوتهم إلى تأييده ، فأخذ

كثير من خطباء الجوامع يذكرون الفرنج في خطبة الجمعة ، وما أوجبه الله على المصلين من جهادهم ، ويدعون الله أن يخلص فلسطين وبلاد الشام منهم ، وأن ينصر كل ما يجاهدهم في سبيله ، دون أن يذكروا نور الدين بالاسم خشية أن يتخذ ذلك دليلا على تشيعهم لشاور ، فيستوجبوا نقمة العاضد وضرغام .

غير أن واحدا منهم وهو إمام جامع عمرو بالفسطاط ، قد تحمس ذات جمعة فذكر اسم نور الدين صريحا ، ودعا المصريين إلى التآزر معه لحماية مصر من خطرهم ولطردهم من بلاد الشام ، فأشفق المصلون على إمامهم الجرىء ، وإن طربت أسماعهم لخطبته .

ولم يكد يفرغ من صلاته حتى سيق إلى العاضد ، فلما مثل أمامه ، وكان ضرغام حاضرا . سأله العاضد : ماذا حمله على ما فعل ؟ فأجابه الإمام بأنه لا يعلم بأنه سيغضب أحدا من المسلمين ، بله خليفتهم العاضد لدين الله ، أن دعا الله لنور الدين بالنصر على الفرنج ، وأن أهاب بأهل مصر أن يحموا بلادهم من خطرهم .

فقال له العاضد :

- بل قصدت بخطبتك أن تدعو الناس إلى المخذول شاور وتحرضهم على وزيرنا القائم أبى الأشبال ضرغام .. فمن حقه أن يعاقبك ..

وأدرك ضرغام بعض ما قصد إليه العاضد . فقال :

- شكرا لأمير المؤمنين إذ حكمنى فى أمر هذا المتطاول ..

ثم سيق الرجل إلى دار الوزارة ، وهو لا يشك أنه مقضى عليه ، فوطن نفسه على الصبر والشهادة ، فلما رأى ضرغام هناك التمس منه

أن يمهله حتى يكتب وصيته لأهله وعياله . فما كان أشد دهشه وسروره ، إذ قال له ضرغام :

- بل ارجع إلى أهلك وعيالك . فما ينبغى أن أعاقبك على كلمة حق قلتها ، ودعوة صالحة دعوتها للمجاهدين فى سبيل الله ...

وانتهى إلى العاضد ما فعله ضرغام فزاد من حفيظته عليه ، وإن لم يبد له بل أثنى عليه حين لقيه بعد ذلك . إذ خلى سبيل الرجل وعفا عنه .

وكان ضرغام كتب فى الرسالة التى بعثها إلى نور الدين أنه قد قرر أن يقطع الجزية التى فرضها الفرنج على مصر ، منذ أغاروا على عسقلان فاقتطعوها من مصر فى عهد الخليفة الفائز بالله ، الذى ولى العرش قبل العاضد ليثبت لنور الدين بذلك أنه على استعداد للتحالف معه على محاربة الفرنج ، ولكنه لم يذكر هذه الفقرة الخاصة بقطع الجزية للعاضد ، فلما سمع العاضد يثنى عليه ، إذ خلى سبيل الرجل وعفا عنه ، انتهز ضرغام هذه الفرصة ، فأفضى إليه بما اعتزمه من قطع الجزية عن الفرنج ، وقال له :

- قد لمست من مولاى هذا الميل القوى إلى مناهضة الفرنج ، فأثبت ذلك فى الكتاب الذى بعثته إلى نور الدين ..

فتغير وجه العاضد ، وقال له :

- لقد تسرعت ياضرغام .. هذا شأن خاص بيننا وبين الفرنج لا ينبغى لنا أن تدخل أنف نور الدين فيه ..

- أردت يا مولاى أن أبطل به دعوى شاور لديه .

ـ هذا عهد كتب بيننا وبينهم .. وما ينبغى لنا أن ننقض العهد لغير سبب ..

ـ بل هذا عار علينا فرضوه ، وذل علينا ضربوه .. وقد آن لنا أن نغسل عنا العار ونرفع عنا الذل !

ـ إنه لم يكتب فى عهدى بل فى عهد سلفى !

ـ عهدك يا مولاى ينبغى أن يكون خيرا من عهد سلفك ..

فسكت العاضد قليلا ، ثم قال له ليستر غضبه وهزيمته :

ـ ما أغضبنى منك فى هذا ياضرغام إلا أنك لم تأخذ رأيى فيه و لم تكاشفنى به قبل اليوم ..

١٣

كان هذا الصراع الخفى يجرى بين الخليفة والوزير دون أن يعرف الناس عنه شيئا ، بل كانوا يظنون أن ضرغام آلة صماء فى يد العاضد يصرفها كيف يشاء ، ويترقبون عودة شاور بمعونة نور الدين ليخلصهم من طغيان العاضد ووزيره معا .

ذلك أن ضرغاما ليس معنيا بالتحبب إلى الناس فى قوله ولا فى عمله ولا أن يجلو لهم حقيقة سياسته ومقاصده ، وإنما يمضى فيما يراه واجبا عليه دون أن يشاور أحدا حتى أقرب الناس إليه ، وألصقهم به ، فقد كان سيىء الظن بالناس جميعا ، قليل الثقة فيهم ، لا يراهم إلا طلاب منافع خاصة ، ينظرون فى مشورتهم إذا استشيروا إلى تلك المنافع كيف يحققونها ، هذا حسام وهمام أخواه ما كادا يريان أخاهما قد تسنم كرسى الحكم حتى خيل إليهما أنهما قد أصبحا شريكيه فيه وأن من حقهما إذا استأثر هو بالأمر والنهى أن يدع لهما الانتفاع بما يتيحه الحكم لأربابه من المغانم والمكاسب ، فلما اعترض سبيلهما دون ذلك وحاسبهما حسابا عسيرا على ما امتدت إليه أيديهما من أموال الدولة ، تأففا وتململا وظنا به الظنون . ولن ينسى أبدا حين وجدهما ذات يوم يتناجيان دون أن يعلما بحضوره فسمع أحدهما يقول للآخر :

ـ ماذا صنعنا إذن ؟ إن كان هذا جزاءنا فعلام خضنا الغمرات معه ؟

فلما استوفيا حديثهما أظهر لهما نفسه ووقف ينظر إليهما مليا وهو صامت لا يتكلم ، فطفقا يعتذران ويتنصلان ، ويقبلان رأسه ، ويناشدانه

الرحم أن يهب لهما ما سمع . ويعاهدانه أن يكونا بحيث يحب ، فلم يشأ أن يقول لهما شيئا ، بل خرج من عندهما صامتا كما دخل .

وهؤلاء البرقية الذين كانوا سواعده في الوثبة وتولوا معه كبير القتال والصراع ما كادوا يضعون السلاح بعد انهزام شاور وفراره حتى أخذوا يحلمون بزيادة الرواتب والأعطيات ، وإذ لم يصنع لهم شيئا من تلقاء نفسه أقبل أمراؤهم إليه يذكرونه بما نسى من شأنهم ، فلما صارحهم بأنه لم ينس شيئا . وأنه لن يعطى أحدا منهم فوق ما هو معلوم له على حسب قدره ورتبته صاحوا في وجهه :

ـ أتريد أن تسوى بيننا وبين أولئك الذين قاتلوك مع شاور ؟

ـ نعم .. أنتم جميعا جند الدولة ..

ـ إذن فعلام خاطرنا بأرواحنا معك ؟

ـ لو لم تقوموا معى .. أفكنتم تقبعون فى بيوتكم والحرب دائرة بينى وبين شاور ؟

ـ بل كنا نقاتلك مع شاور ..

ـ إذن فستخاطرون بأرواحكم كذلك .. فأى فرق بين الحالتين ؟

ـ ما كنت لتنتصر حينئذ عليه !

فألان لهم لهجته قائلا :

ـ يا إخوانى فى السلاح ! إنى لا أجحد فضلكم ولا أنكر شجاعتكم وبلاءكم .. ولكن ما قمتم به هو حق الدولة عليكم .. وحقكم عليها محفوظ لم يضع .. وموفور لم ينقص .

ـ لو كنا مع شاور فانتصر لأعطانا ما نريد ..

فبدا الغضب فى وجهه ولكنه تجلد قائلا :

ـ صدقتم ، وهذا فرق مابينى وبين شاور .. أفتظنوننى كنت أرضى أن أثور عليه لو كنت أريد أن أفعل مثل ما يفعل ؟

ـ إن مولانا العاضد هو الذى أوعز إليك ..

ـ أجل .. ولو علم العاضد أننى سأفعل مثله ماأوعز إلىّ ..

فسكتوا يتميزون من الغيظ ، إذ كان الجواب على أطراف ألسنتهم ولكنهم لم يجرؤوا أن ينطقوا به . أفى وسعهم أن يقولوا له إن العاضد قد أراده لأمر آخر ؟

ورأى ضرغام ماهم فيه ، فقال :

ـ إنى بعد لا أعتب عليكم فيما تطمعون .. ولكن اصبروا قليلا وانتظروا حتى تغزوا بلاد العدو أو تلقوا العدو فى بلادنا .. ويومئذ ستظفرون بالغنائم والأسلاب ، وما أشك أن نصيبكم منها سيكون عظيما لأن بلاءكم سيكون عظيما ..

فسألوه متجاهلين :

ـ هل تعنى نور الدين ورجاله إذا قدموا مع شاور ؟

ـ كلا .. بل أعنى الفرنج ..

فتضاحكوا مستهزئين ، ثم قالوا :

ـ هل تطمع أن تغلب هؤلاء ثم تغزوا بعدهم الفرنج ؟

فضاق صدره باستهزائهم ، ولم يستطع أن يملك نفسه ، فانفجر فى وجوههم صائحا :

ـ ويلكم يا شراة المال وباعة الشرف! اغربوا عن عينى فلا شىء لكم عندى !

فصاحوا جميعا :

ـ أتطردنا يا ضرغام مثل الشحاذين ؟

ـ بل مثل الكلاب !

احمرت وجوههم عند ذلك من شدة الغضب ، ثم اصفرت من فرط الحقد ، ونظر بعضهم إلى بعض ، ثم خرجوا متسللين واجمين .

واسترد ضرغام وعيه فى الحال ، وفكر فى الأمر كسرعة البرق فأسرع إلى الشباك وأطل منه على القوم وهم يعبرون الفناء نحو السدة فناداهم ، فوقفوا والتفتوا إليه فقال لهم :

ـ أيها الإخوة لا تؤاخذونى فيما ند من لسانى عند الغضب .. اذهبوا الآن فاجتمعوا وتشاوروا فيما بينكم عسى أن تدركوا حسن نيتى فيما قلت لكم فتعذرونى ولا تحقدوا على ...

فحركوا رؤوسهم ثم مضوا فى طريقهم دون أن يجيبوه بشىء .

واجتمع القوم فى دار أحدهم فأخذوا يتشاورون ويتآمرون حتى الليل ، فأجمعوا على الوثوب بضرغام ، وأرسلوا أحدهم ليقابل العاضد سرا ويرى ما عنده ثم يعود إليهم بالخبر ، فلما وصل إلى القصر قيل له إن ضرغاما عند العاضد ، فانسل راجعا من حيث أتى ليعود فى وقت آخر ، ولكنه حين دنا من الدار التى كانوا فيها ، انقض عليه رجال ضرغام فساقوه إلى دار الوزارة . فلما بلغ الفناء الخلفى نظر من خلال ضوء السراج الباهت فرأى نحو عشرين جثة مبعثرة فى الأرض ، فأدرك أنها جثث أصحابه ، وقبل أن يبدى حركة أو يرجع قولا بصر بالسيف يلمع حوله ، فإذا هو جثة فوق الجثث .

وثار البرقية لأمرائهم ، فكان ضرغام لهم بالمرصاد ، إذ ضرب على أيديهم وأوسعهم قتلا وتشريدا ، حتى ذهب أبطالهم ، واستكان الآخرون .

وذهل الناس لما سمعوا أنباء هذه المجزرة ، واقشعرت أبدانهم من هولها وقسوتها وقالوا : إن فعل هذا بأنصاره وأشياعه فما عسى أن يفعل بالآخرين ؟ فتضاعف كرههم له.وسخطهم عليه وأصبح اسم ضرغام منذ ذلك اليوم عنوانا على البطش وسفك الدماء ، غير أن اشمئزازهم من عمل ضرغام مالبث أن تحول إلى فرح خفي إذ رأوا فيه فأل خير يبشرهم بأن ضرغاما بعد ذهاب أبطاله من أولئك البرقية ، لن يثبت لشاور إذا أقبل بحملة نور الدين معه .

١٤

وأقبلت الحملة بعد طول ترقب ، يقودها أسد الدين شيركوه من كبار رجال نور الدين وأبطاله فى ألفين بين فارس ، وراجل ، واجتاز بهم الحدود ولقى الصعاب من اعتراض حاميات الفرنج ، فقد كانوا مسيطرين على السواحل كلها وعلى الطرق العامة دون حدود مصر .

وكان ضرغام قد أعد عدته لملاقاتهم ورسم خطته بنفسه دون أن يطلع أحدا من رجاله على سرها ، خشية أن يعلم العاضد بحقيقة قصده منها فيفسدها عليه .

وتراءى الجيشان دون بلبيس ، ونظر أسد الدين فعجب من قلة عدد الجيش المصرى ، والتفت إلى شاور يسأله فقال له شاور : إن ضرغاما لم يجئ إلا بقلة من الفرسان لعله لا ينوى أن ينهى المعركة فى بلبيس بل يريد أن يستدرجنا إلى الداخل ، وقد وزع جيشه على طول الطريق إلى القاهرة فيهاجمنا بهم فى كل مكان إلى أن يحدقوا بنا فى النهاية .

ونظر أسد الدين مرة أخرى فرأى فارسا ينهب الأرض نحوهم ، فأمر رجاله بألا يعترضوا سبيله لعله رسول من ضرغام إليه ، فلما دنا الفارس منهم فسحوا له الطريق فجعل يخترق صفوفهم متمهلا على جواده وقد تعلقت الأبصار به ، ولم يكد يترجل من جواده حتى صاح شاور فى دهش : شجاع ! ابنى !

ـ ابنك ؟

ـ نعم يا أسد الدين .. هذا ابنى الأصغر ..

قالْ ذلك وانطلق فاعتنقا وتبادلا القبلات فى شوق زائد وحنان غامر . ووقف أسد الدين ينظر إليهما متعجبا ، أيكون ابن شاور مع عدوه ضرغام .

وأراد شاور أن يسأل ابنه هذا السؤال ، فما أمهله شجاع أن انفتل منه وأقبل على أسد الدين فحياه ، ثم قال له : « إن ضرغاما يهديك التحية ، ويرغب فى مقابلتك على انفراد لتسمع ما عنده ويسمع ما عندك لعلكما تتفقان على خير فتحقنان دماء المسلمين » .

فصاح شاور :

ـ كلا ليس بيننا وبينه غير السيف !

ـ رويدك يا شاور .. دعنا ننظر فيما يقترح .

ـ هذه خدعة يا أسد الدين .

فقاطعه أسد الدين قائلا فى حدة :

ـ قلت لك انتظر يا شاور حتى أؤامر أصحابى .

وانتحى بابن أخيه صلاح الدين وبالفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى جانبا فتداول الرأى معهما ، فكان من رأى الهكاوى أن ليس من حقه أن يرفض المقابلة . ولكن لا ينبغى أن يذهب بنفسه بل يرسل أحدا من قبله ، فاستحسنه أسد الدين وقال لابن أخيه :

ـ اذهب أنت يا يوسف لمقابلته ..

ثم أقبل على الرسول فقال له :

ـ قل لضرغام إنى لا أستطيع أن أترك جيشى .. فإن شاء قدم هـ عندى وإن شاء بعثت يوسف ابن أخى مكانى فهو بمنزلتى ...

وذهب شجاع ثم عاد ليعلن لأسد الدين أن ضرغاما قد قبل ابن أخيه مكانه . وانطلق الشابان صلاح الدين وشجاع ، وشاور ينظر إليهما فى غيظ وقلق ، حتى غابا عن الأبصار .

وخلا ضرغام بصلاح الدين فى خيمة نصبت لهما ، فما انتهيا من حديثهما حتى أعجب كلاهما بالآخر . أعجب ضرغام بذكاء صلاح الدين وألمعيته على حداثة سنه ، وأعجب صلاح الدين بمهابة ضرغام وفصاحته وصراحته .

ورجع صلاح الدين فقص على عمه عجبا : إن ضرغاما يعظم نور الدين ويريد أن يحالفه على الفرنج لا أن يحاربه ، وأنه قد كتب إليه بذلك فلم يتلق منه جوابا . وأنه قد قطع الجزية عن الفرنج ولم يبال بغضب العاضد . وأن العاضد قد أراد أن يتصل بالفرنج فمنعه هو من ذلك ، وأنه يقترح الآن أن تعود حملتهم أدراجها ويعززها هو بالعتاد والرجال فتهاجم عسقلان وتأخذها من يد الفرنج وتعيدها إلى مصر .

فتردد أسد الدين قليلا ، ثم قرر أنه لا يعرف غير شاور وأنه لا يستطيع نقض الاتفاق الذى بين نور الدين وبينه حتى يظهر منه خلاف ذلك .

وحاول صلاح الدين أن يقنعه بقبول ما اقترحه ضرغام قائلا : هذا خير ياعم وإنه لصادق .. وسيفرح نور الدين بهذا الحل ..

ولكن أسد الدين أصر على رأيه ، وأبلغ ذلك لشجاع الذى كان واقفا مع أبيه على حدة يتناجيان فى انتظار الجواب . فلما سمع شجاع الجواب التمس من أسد الدين أن يأذن له فيستأنف الحديث قليلا مع أبيه ، فأذن له بذلك .

و لم يعلم أسد الدين ولا أحد من رجالـه مـا دار بـين الابـن وأبيـه إلا أنهم لحظوا عند انصراف الابن أن الكآبة بادية فى وجهه ، وآنسـوا فـى وجه شاور بعض الغضب .

وقرأ ضرغام الجواب فى وجه شجاع قبـل أن ينطـق بـه لسـانه فلمـا سمعه قال له :

ـ وهل كلمت أباك فى الأمر ؟

فتلجلج شجاع وهو يقول :

ـ نعم كلمته .. ولكنه رفض ..

ـ فاشـهد إذن أننـى نصحـت لدينـى ووطنـى .. وأبـرأت ذمتـى إلى الله .. وأن أباك هو المسئول ...

فسكت شجاع و لم يجب ، وجعل يغالب عبرة تترقرق فى عينه :

ـ أما أنـت يـا شـجاع فقـد أديـت واجبـك .. وأنـت الآن فـى حـل منى .. فاختر لنفسك ما يحلو لك .

فأطرق شـجاع صامتـا لحظـة قصـيرة مـن الزمـن . إلا أنهـا اتسـعت لفكره أن يستعرض كل الاعتبارات التى عنـده ليفـاضل بهـا بـين سبيل وسبيل ، فأخذت تتلاحق فى ذهنـه فـى مثـل ومضـات البرق عشـرات المعانى والصور ووجوه الأشخاص أيضا : وجه سمية ووجه أبيهـا ووجـه أمها ، ثم وجه أمه ووجه أبيه ، ووجه أسد الدين نائبا عن نور الدين .. وهلم جرا ، وسمع جليسه يقول مؤكدا :

ـ قرر الآن يا شجاع .

فرفع رأسه فى حياء وقال :

ـ إنه والدى يا ضرغام ولا يسعنى إلا أن أكون معه ..

ـ أجل . لا ملام عليك .. لست بدعا فى ذلك .. هذان أخواى همام وحسام .. إنما يقاتلان معى لأنى أخوهما فحسب !

وعجب أسد الدين إذ رأى شجاعا قد انضم إلى أبيه ، وأبدى بعض رجاله ارتيابا فى أمره ، ولكن أسد الدين اعترض عليه قائلا :

ـ ويحك إنه ابن صاحبنا .. فماذا نخشى منه ؟

وانتبذ شجاع وأبوه وأخذ كلاهما يروى للآخر قصته . وإنهما لكذلك إذ أقبل رسول آخر من ضرغام . فأنهى إلى أسد الدين أن ضرغاما يدعو شاور لمبارزته .

قال أسد الدين :

ـ ماذا ترى يا شاور ؟

فأجابه شاور قائلا :

ـ يا سيدى .. إنه يعلم أنه مقتول لا محالة ، فأراد أن يبارزنى .. ثم التفت إلى الرسول قائلا :

ـ ارجع إلى ضرغام وقل له : يقول لك شاور إن الميت أشجع من الحى !

ثم همس شجاع فى أذن أبيه :

ـ انظر يا أبت إلى رقة شعوره .. لم يشأ أن يحملنى هذه الرسالة لمكانى منك فكلف بها رسولا آخر ..

فتأفف شاور قائلا :

ـ دعنى من حديثك عنه .. تذكر يا شجاع أنه عدو أبيك وقاتل أخويك ومثكل أمك ...

١٥

وبدأت المعركة بعد ذلك بقليل . وانتهت بانهزام ضرغام وانسحابه إلى القاهرة بعد ما أظهر من الشجاعة والفروسية ما أدهش أسد الدين ورجاله ، وكان أشد الناس إعجابا به صلاح الدين ، إذ ظل طول المعركة يراقب حركاته ويتابع صولاته وجولاته فى نشوة وتطلع حتى كأنما يتفرج منه على لاعب لا على خصم محارب . وكم ود لو يتعرض له لينازله أو بالحرى ليلاعبه ، فما تمكن من ذلك لأنه كان على الميمنة ، وكان ضرغام يوجه جل هجماته إلى القلب حيث كان أسد الدين وشاور . كأنه كان موكلا بلقاء شاور ولكن شاور كان يتقيه جهده .

وكان واضحا للجميع أن ضرغام قد انسحب مختارا من المعركة ، إذ لم يُقتل من رجاله إذ ذاك أكثر ممّن قتل من رجال الحملة . فتقدم أسد الدين برجاله صوب القاهرة فى حذر شديد خشية أن يفاجئه كمين فى الطريق ، ولكنه لم يجد من يعترضه .

ونشط شاور فى أثناء الطريق فجعل يلم بكل بلد وكل قرية ، فيخبر الناس بانهزام ضرغام ، ويبشرهم بقرب الخلاص من طغيانه ، وطغيان القصر ، بفضل هذا الجيش الذى بعثه نور الدين .

وما إن وصل أسد الدين إلى ظاهر القاهرة حتى بلغه أن الجيش قد انشق على ضرغام وأن أهلها جميعا مستبشرون بقدوم الحملة ، فالتفت إلى ابن أخيه وهمس فى أذنه :

ـ ويحك يا يوسف ! ماذا لو أطعتك وعملت بمشورتك ؟ ألا ترى كيف أن الناس كلهم مع شاور !!

وبدأت المعارك تدور خارج القاهرة ثم فى قلبها ، وأخذت القيادة فى واقع الأمر تنتقل من يد أسد الدين إلى يد شاور ، فكان يُرَى وجهه فى كل معركة ، ويسمع صوته فى كل معمعة ، حتى صار رب الموقف وملك الزمام ، ولا سيما بعد ما انضم إليه الكثير من جنود البلاد ، وأصبح يعتمد عليهم ويستغنى شيئا فشيئا عن جنود الحملة . ولم يجد أسد الدين في نفسه حرجا من ذلك ، بل سر لما أبداه شاور من النشاط والهمة والشجاعة والبطولة ، مما كان له الأثر الأكبر فى التعجيل بالنصر .

ووقف العاضد فى أول الأمر يتفرج كأن الأمر لا يعنيه . لقد اطمأن أنه باق على العرش مهما تكن النتيجة . أليس قد كتب إلى نور الدين يستغيث به هو أيضا من طغيان ضرغام ؟ بل لعله الآن يميل إلى انتصار شاور لأنه لم يفقد الأمل فيه كما فقده فى ضرغام . هل بلغ شاور قط من الجرأة عليه بعض ما بلغه ضرغام ؟

ولكنه لم يجاهر بميله إلى فريق شاور وأسد الدين ، إلا حين أيقن أن الدائرة ستدور على ضرغام .

أما ضرغام فقد أحس أنه يقاتل فى المعركة وحده . فالقصر يكرهه ويضيق به ، والناس يكرهونه لظنهم أنه فى صف القصر ، وأسد الدين لم يستجب إلى ما دعاه لأنه لا يثق بغير شاور . والجند قد انشقوا عليه كعادتهم حين يظهر فى الميدان منافس جديد ، فامتلأت نفسه يأسا وتنزى قلبه ألما ، ولكنه لم يجد بدا من المضى فى القتال ، فقاتل مستبسلا وهو يرى جنوده يتفرقون عنه ويتسللون ، ويرى الناس يلقون عليه وعلى رجاله الطوب والحجارة والماء السخن من سطوح

منازلهم ، ثم اجترأوا عليه بعد ذلك ، وقد تفرق عنه رجاله جميعا . فأدركوه فى الجسر الأعظم بين القاهرة والفسطاط ، فأردوه عن فرسه ، ثم قتلوه ، وهو يقول :

ويح فتى ضيعه قومه   يرجو لهم خيرا وهم ضده !
يريد أن يكشف ظلامهم   عنهم ، فظنوا أنه عبده
غدا يرون الويل من شاور   واليوم هم - يا ويحهم - جنده !

كان يوم مصرع ضرغام وانتصار شاور عيدا للناس ، أهل عليهم بعد طول انتظار فتلقوه بالبشر والترحاب ، واحتفلوا به احتفالا عظيما . فأقاموا الزينات ، وتبادلوا التهنئات ، وسموه يوم النصر .

عم الفرح كل بيت من بيوت القاهرة والفسطاط فى ذلك اليوم السعيد ، ولكن بيتين منهما كانا أعمق شعورا به ، وأشد اهتزازا به ، أحدهما فى القاهرة تقيم به أم شجاع والآخر فى الفسطاط تقيم به حبيبته ، وقد حار شجاع لا يدرى أبلقاه أمه هو أفرح أم بلقاء حبيبته ؟ هنا الحنان الغامر وهناك الحب الآسر . هنا تثوى ذكريات الأمس ، وهناك ترفرف أحلام الغد . وقضى يومين موزع القلب بينهما ، يتنقل بين القاهرة والفسطاط ، كأنما يريد أن يتملى من هذه ومن هذه قبل أن تفرق الأيام بينه وبينهما مرة أخرى .. فمن ذا الذى يأمن غدر الأيام ؟ وما كان أشد فرحه لما اجتمع شطرا قلبه ذات يوم وذلك عندما انتقل أبوه بأهله من دار سعيد السعداء إلى دار الوزارة ، فحضر أهل سمية إليهم زائرين مهنئين .

وكان مجلس جميل اجتمع فيه الشمل بالشمل ، والتقى الأهل بالأهل ، وتحدث صديق إلى صديق ، وحنت أخت إلى أخت ، وتناجى حبيب

وحبيبة ، ثم امتد المجلس إلى سمر ممتع ، قدمت فيه الألطاف وأديرت الأكواب ، وتشقق الحديث بينهم فى شئون مختلفة بين عامة وخاصة . فتتهلل وجوههم حينا بالبشر إذا ذكروا شيئا يفرح ، وتكتئب حينا إذا مال بهم الحديث إلى ذكرى مؤلمة ، ولكنهم فى الجملة يشعرون كأنما قد خلعوا الأحزان ، فألقوها وراء ظهورهم ، وأنهم لن يستقبلوا بعد ذلك غير الأعراس والأفراح .

هذا شاور يقص عليهم ـ وعلى أبى الفضل خاصة ـ ما جرى له من الأحداث منذ هرب من القاهرة ناجيا بنفسه ، إلى أن رجع إليها سالما منتصرا ، فذكر كيف وصل إلى الشام ، وكيف أكرمه نور الدين ، وأخذ يحدثهم طويلا عن نور الدين وصفاته وأخلاقه ، ونشاطه فى حرب الفرنج واستغراق فكره فى ذلك ، ثم حديثهم كيف سارت الحملة من الشام ، وما لقيت فى طريقها من مناوشات الفرنج ، ثم كيف فوجئ قبل معركة بلبيس بظهور شجاع ابنه رسولا من ضرغام .

وهذا شجاع يترحم على ضرغام ويقص عليهم كيف وقع فى أسره، وكيف أبقى عليه ، وكيف اعتقله فى نفس الحجرة التى يسكنها من الدار . وكيف كان يعامله معاملة طيبة ، ويتردد عليه فيجلس عنده يحادثه ويلاطفه ، حتى صارا صديقين حميمين ، وكيف فاوضه بعد ذلك فى أمر التوسط بينه وبين أبيه وقائد الحملة التى أرسلها نور الدين ليتفقوا على حقن الدماء . وجهاد الأعداء . وكيف رحب بهذا الأمر فأطلق ضرغام سراحه ، واستصحبه معه فى الجيش إلى بلبيس حتى كان هناك ما كان .

وكانوا جميعا يصغون إلى شجاع متعجبين ، ما خلا شاور ، فقد كان ضيق الصدر ، وكثيرا ما قاطعه فى أثناء الحديث محاولا وصف ضرغام بالمكر وسوء القصد فيما فعل ودبر ، وأنه استطاع أن يخدع شجاعا عن حقيقته ليستخدمه فى مصلحته ، وأنه هو لو وثق بصدقه فيما عرض يوم بلبيس لوافق على اقتراحه ، ولسعى حتى يقنع أسد الدين بقبوله .

ولم يعجب شجاع لذلك من أبيه ، ولكنه عجب من أمه ، إذ أيدته فى أول حديثه عن ضرغام ، فذكرت لهم ما لقيت من حسن الرعاية طول عهده ، فيما خلا الليلة الأولى من حكمه ، ولكنها انقلبت فى النهاية لما سمعت مقال أبيه ، فقالت :

ـ أجل يا شجاع لقد صدق أبوك .. ما أحسن ضرغام معاملتى ومعاملتك لوجه الله ، بل ليستغلك فيما بعد .. وقد فعل لولا أن والدك فهم مكره فأحبط تدبيره !

ثم أخذت تروى مصداقا لذلك ما جرى لها من أخيه همام ، إذ اقتحم بيتها تلك الليلة فروعها وروع من فيه .

وزبيدة أم شجاع امرأة فى الخمسين سمراء البشرة مليحة الوجه كأختها أمينة التى تصغرها بأعوام ، إلا أنها أطول منها قامة ، وأميل منها إلى البدانة ، وقد وخطها الشيب ، وزاد اشتعالا فى شعرها الأسود بعد فجيعتها بولديها طيىء وسليمان ، إذ حزنت عليهما أشد الحزن وبكتهما أحر البكاء ، حتى عمشت عيناها ، وكانتا من قبل كعينى أختها واسعتين حوراوين ..

وهى تمتاز على أختها أمينة الوديعة الدمثة بقوة الشكيمة وصلابة الإرادة وشجاعة القلب . وذكاء الرأى . إلا أنها تحب زوجها شاور حبا يشبه العبادة ، ويجعلها تعمى عن مساوئه ولا ترى غير محاسنه ، فهو عندها المثل الأعلى فى كل شىء لا يعلو على رأيه رأى ، ولا يفوق سلوكه سلوك . وإنها لترى الرأى أو تقول القول ، فإذا وجدت عنده ما يخالفه ، رجعت إلى رأيه أو قوله . دون مراجعة أو مناقشة . وزوجها يبادلها حبا بحب ، فهو يعزها ويدللها ولا يضن عليها بأى شىء تطلبه .

وقد نشأت أولادها على هذا النهج فى النظر إلى أبيهم ، واتخذوا أمهم قدوة لهم فى ذلك ، فنشأوا وهم يعظمونه تعظيما شديدا ويرونه المثل الكامل فى كل شىء .

أما أبو الفضل فلم يشترك فى الحديث إلا قليلا ، بل كان صامتا طول الوقت يستمع ويفكر فيما يسمع ، ولا سيما فيما رواه شجاع من قصة ضرغام ، وذلك العرض الذى عرضه على أسد الدين وشاور . فقد اهتم به اهتماما عظيما ، إلا أنه لم يبد لهم رأيا فيه أو يعلق عليه بشىء. أحقا كان ضرغام بتلك الصورة اللامعة ؟ أما ما عامل به شجاعا من الرقة والكرم فإنه على روعته غير مستغرب كثيرا من ضرغام ، فقد أثر عنه من الفعال ما ينم على شهامة وأريحية ، ولكن أحقا كان ينوى أن يعاهد أسد الدين على محاربة الفرنج والبدء أولا باسترداد عسقلان من أيديهم ؟ ثم أحقا كان من الحرص على ذلك بحيث يقبل أن ينزل لخصمه شاور عن الوزارة بعد استنقاذ عسقلان ؟ إن كان ذلك حقا فقد أخطأ أسد الدين وأساء شاور !

ثم مضى يقول لنفسه : « ماذا يجدى كل ذلك الآن ؟ ... قد ذهب ضرغام مظلوما أو غير مظلوم ، ولن يعود ! ولكن ماذا نقول فى شاور هذا الذى عقدنا الآمال على رجوعه إلى الحكم ؟ أحقا شك فى صدق ضرغام وخشى أن يمكر به فرفض هذا العرض منه ؟

ولم يستفق أبو الفضل من سرحان فكره ، إلا لما نبهه شاور قائلا :

ـ ماذا بك يا أبا الفضل ؟ فيم سرح فكرك ؟

فأجابه :

ـ لا شيء يا أبا شجاع .. إنما قلت لنفسى .. ماذا لو صدق ضرغام فيما عرض فقبلتماه أنت وأسد الدين ؟

فتضاحك شاور قائلا :

ـ ويحك يا أبا الفضل .. حاشاك أن تنخدع به ميتا كما انخدع به ابنى حيا .. إنما كانت منه توبة الفاجر فى السفينة الغارقة .

أما سمية فقد كانت فى أثناء استماعها إلى حديث شجاع عن ضرغام تراقب وجه أبيها خلسة ، وتلاحظ ما يرتسم عليه من أثر ذلك الحديث ، فاستطاعت أن تدرك بعض ما يضطرب فى ذهنه ويختلج فى صدره من الأفكار والخواطر .

وسمية فتاة رقيقة الحس عميقة الشعور ، تدرك ببصيرتها أكثر مما تدرك بذكائها . وهى صموت خجول منطوية على نفسها ، قلما تنطلق أو تميل إلى الكلام . وقد ورثت عن أمها وداعة النفس ودماثة الطبع . فكانت تبدو للناظر من رقتها ولينها كأنها قارورة من قوارير الزينة ، مصنوعة من البلور الهش تتصدع من أهون رجة وتنكسر من أيسر صدمة ، غير أنها تنطوى على شجاعة فى القلب وقوة فى الإرادة ،

تظهران عند الشدائد والملمات ، فإذا قارورة الزينة هذه ليست من رقيق البلور ، بل من أصلب المعادن كلها .. من الألماس !

وقد نزعت فى هاتين الخلتين إلى أبيها فى خُلقه . كما نزعت إليه فى كثير من صفات خَلقه ، فالوجه الأبيض المشرب بالحمرة ، والعينان الزرقاوان ، والشعر فى لون الذهب ، والشفتان الرقيقتان كل أولئك قد تحدر إليها من أبى الفضل ، وما اختلست من أمها إلا استطالة الوجه ، وامتدادا فى الجيد ، وشمما فى الأنف .

وكان هذا الشبه الغالب بينها وبين أبيها قد جعلها أشد التصاقا به منها بأمها . فنشأت شديدة التعلق به والحدب عليه والاهتمام بمشاركته فى همومه وشواغله العامة .

ولعل مما قوى هذا الميل فيها أيضا ما ترى من قلة غناء أمها فى هذا السبيل ، فهى امرأة بسيطة التفكير محدودة الأفق ، لا يعنيها غير تدبير منزلها ، وخدمة زوجها فى شئونه الخاصة ، وإذا امتد اهتمامها إلى أبعد من ذلك ، فإلى الأحوال المتعلقة بتجارته من زيادة ونقصان أو رواج وكساد . أما ماوراء ذلك مما يهتم به زوجها من شئون السياسة والإصلاح فقلما تدرك شيئا منه . وقصارى ما تشعر به حيال ذلك أنها تشفق على زوجها من عواقب الدخول فيما لا يعنيه وتود لو وهبت شيئا من الشجاعة وقوة المنطق . فاستطاعت أن تقنعه لينفض يده من ذلك كله . وإذ لم يكن ذلك فى وسعها صارت تكتفى بالدعاء إلى الله أن يهدى زوجها إلى قصد السبيل ويجنبه غوائل السوء .

وأبو الفضل ليس يميل بطبعه إلى اشتراك النساء فى غير شئون البيت ، فهن عنده ضعيفات الرأى ، قصيرات النظر ، لغلبة أهوائهن على عقولهن ،

فلا يكدن يميزن بين الحسن والقبيح والنافع والضار ، إلا فيما يتصل بشئون معيشتهن وزينتهن من الأطعمة والثياب والحلى . وتميل ألسنتهن إلى الثرثرة ولغو القول . فإذا ضمهن مجلس . فأشهى شيء عندهن الخوض فى حديث جاراتهن ومعارفهن ، لا يتأثمن من غيبة ، ولا يتكرمن على شماتة ، وأمثل ماتلغط به ألسنتهن وأبعده عن السوء أن يقلن : فلانة تزوجت وفلانة طلقت ، وفلانة راجعها زوجها ، وفلانة حملت ، وفلانة توشك أن تضع !

هكذا كان رأى أبى الفضل فى النساء ، فلم يفتقد فى زوجته شيئا مما يحببها إلى قلبه من كمال الطاعة والاستقامة وحسن الأدب وأداء الواجب على أحسن وجه .

أما حسن الرأى والمشورة والمشاركة فى الاهتمام بالشئون العامة فلم يلتمس ذلك منها قط حتى يفتقده . فعاش ماعاش معها لم يحاول يوما أن يشركها فى شيء من همومه العامة ، أو يستشيرها فيه . وماذا تفيد من ذلك لو فعل إلا أن يثقل كاهلها فوق ما ينوء به من هموم البيت والزوج والولد دون أن يخفف ذلك عن كاهله شيئا ؟ وإنه لقادر على أن يضطلع بحمل أعبائه وحده فعلام يحمل زوجته منها ما لا تطيق ؟ إنها لأغلى عنده من أن يثقل قلبها بما لا شأن لها من همومه وآلامه ، وحسبه منها أن تسرّيها عنه جهد ما تستطيع بما تغمره به من حب وحنان ورحمة وعطف .

ولكن سمية استطاعت — على الأيام — أن تتسلل إلى مكمن هذه العقيدة الثابتة فى نفسه فتزعزعها شيئا فشيئا ، من حيث لا تشعر هى أو تقصد ، ومن حيث لا يشعر هو أيضا . فإذا به يفضى إليها ببعض

همومه مما ليس بخطير ، فيجد عندها فوق ما يتوقع من فهم وعطف ، ويستشيرها فيجد عندها رأيا لايخلو من الأصالة والرجاحة ، ثم يبلوها فيرى عندها من كتمان السر حتى على والدتها ما يجعلها محلا لثقته ، وإذا هو بعد لأى يفضى إليها بالخطير من همومه وأحلامه ، ثم بأخطر الخطير دون خشية ولا حرج ، وإذا هو يجد من راحة القلب وطمأنينة النفس كلما أفضى إليها بذات نفسه بين جدران بيته فوق ما يجد من خاصة أصحابه في مجتمعاتهم السرية .

ولكن أبا الفضل لم يشأ بعد ذلك أن يغير عقيدته فى النساء ، وإنما استثنى ابنته وحدها منهن ، والمستثنى عنده لا ينسخ القاعدة بل يثبتها .

وهكذا أخذت سمية تعقل شيئا فشيئا ما يجرى من الأحداث في مصر خاصة وفيما وراءها من بلاد العرب والإسلام عامة ، حتى صارت ملمة بكثير من دقائق أحوالها وأسرار سياستها ، وأخذ شغفها بذلك يزداد واهتمامها يتضاعف يوما بعد يوم حتى شغلها عن كثير مما يشغل قلوب الفتيات فى مثل سنها من حب الزينة والتطرية ، وإن لم يشغلها عن حبيبها شجاع . ومن يدرى لعلها كانت تشغل عنه أيضا ، لو لم تكن تتوسم فى حبيبها الشاب من سلامة الفطرة وطهارة النفس ونقاء الضمير ما عسى أن يكون عونا لأبيها فى مستقبل الأيام على تحقيق آماله وأحلامه ؟ ولا سيما إذ تذكر أنه ابن وزير ، فليس بعزيز أن يجلس يوما على كرسى الحكم ، فيتم على يديه من الإصلاح ما لم يتم على يد غيره من تجار السياسة وعبيد السلطان ومطايا الطغيان .

وقد أثبتت الأيام فى كثير من الأحوال — ومازالت تثبت — صدق فراستها فيه . ألم يكن هو وحده الذى شذ من أبناء شاور وبطانته فكف عن استغلال نفوذ أبيه فى وزارته الأولى ، حتى شهد الناس بفضله فأثنوا عليه من حيث لعنوا أخويه ؟.

ألم يعجب حتى ضرغام عدو أبيه إذ بلغته كلمة خير قالها فيه فهزت من أريحيته ما جعله يبقى عليه من دون أخويه ، ثم لا يكتفى بذلك حتى يستبقيه عنده فى دار الوزارة ليقيه من بطش العاضد ، ثم يتخذه صديقا حميما بلغ من ثقته به أن كاشفه بسره ، واختاره رسولا يحمل إلى أبيه وإلى أسد الدين تلك الخطة التى كتمها عن الناس أجمعين ؟

نعم ، إنها أحبته قبل أن تعرف هذه المعانى فيه ، أحبته منذ كانا صغيرين يلعبان معا فى البيت والشارع . وهى لا تذكر اليوم سر انجذابها إليه إذ ذاك ، فربما لا يعدو انجذاب الصبية إلى رفيق صباها الذى تجمعها به القرابة والرحم ، غير أنها تذكر أن أخويه طيتا وسليمان كانا يتحببان إليها أيضا ، فكانت تعرض عنهما ولا تقبل إلا عليه . ألأنه كان أصبح منهما وجها وأرق حديثا ، وأحب إلى قلب خالتها زبيدة ، التى كانت لا تفتأ تقول حين تراهما يدرجان معا . « سنزوجها لك ياشجاع ، سنزوجك له ياسمية ؟! » .

ولكنها تدرك يقينا أن حبها الصحيح له . وإنما بدأ فى الحقيقة يوم عاد مع أهله من الصعيد ، فما كاد الصراع ينتهى بين أبيه وبين زُرّيك حتى ترك أباه وأهله منهمكين فى تهيئة نزولهم بدار الوزارة ، وأقبل هو مسرعا إلى بيت أهلها ، فتقدم إلى أبيها يخطبها بنفسه . ونظرت إليه يومئذ — وكان مرتديا بذلة الفارس متوشحا سيفه — فرأت فى عينيه السوداوين من خلال أهدابهما الوطف معنى لم تره من قبل . وتسنى لها

أن تتأمله ، إذ كان لا يرفع بصره إليها حياءً ، ولا ينظر إليها إلا مسارقة ، فأحست ـ لا تدرى كيف ـ أن لهذا الفارس الجميل شأنا ، وأنه ينطوى على شىء لا تدرى ماهو على التحديد ، غير أنها تستطيع أن تثق به ، وتعتمد عليه !

ثم رأت أباها بعد ذلك يحب هذا الشاب ويدنيه ، ويعزه ويجله ، ويتوسم فيه كما توسمت ، فنما حبها وازدهر ، فكان مثل قلبها كمثل التربة الصالحة ألقى فيها البذر الطيب ، لينمو على هينته بما يتيسر من ماء ، فإذا غمام صيب جادها يوما فرواها ، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج !

١٧

وأوشك السمر أن يبلغ نهايته حين تذكر أبو الفضل أنه يريد أن يعود صديقه القاضى الفاضل فى بيته ، فهو عليل منذ كان فى السجن حيث بقى محبوسا طوال عهد ضرغام حتى أطلقه عهد شاور الجديد . والقاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى صديق قديم لأبى الفضل ، لقيه أول مالقيه فى غزة حيث كان قاضيا بها ، وكان أبو الفضل عائدا من إحدى رحلاته فى الشام ، فأحبه من أول اجتماع ولا سيما إذ قصّ عليه كيف كان هو وأهله فى عسقلان حين حاصرها الفرنج ، ثم كيف هربوا منها لما سقطت فى أيديهم .

واستمرا بعد ذلك زمنا يتكاتبان وما يزداد أبو الفضل إلا حبا له وإعجابا بأسلوبه البديع فى رسائله ، فخطر له أن يستقدمه إلى القاهرة ليدفع به إلى حيث يهيئه له فضله ، فيتولى « كاتب إنشاء » فى ديوان الوزارة ، عسى أن يفيد من وجود مثله هناك فى خدمة حركته السرية .

ولبىّ القاضى الفاضل دعوته ، فقدم بأهله إلى مصر . فتلقاه أبو الفضل وأحسن ضيافته . واستأجر له بيتا حسنا فى الفسطاط ريثما يسعى لتوليته المنصب الذى يريده . وفى خلال ذلك كثر اجتماعه به ، وتوثقت علائق الصداقة بينهما ، فصار أبو الفضل لا يصبر يوما عنه ، ولكيلا يثير الريبة كثرة تردد صاحبه الغريب عليه التمس منه أن يتولى تعليم ابنته سمية وتأديبها ، فقبل القاضى الفاضل ذلك عن طيب خاطر .

وقد سبق لأبى الفضل أن صنع مثل هذا مع الشيخ نجم الدين يوم بدأ اتصاله به ليصطفيه ويضمه إلى جماعته ، فقد طلب إليه أن يعلم ابنته القرآن والفقه . فكان يتردد على بيته كل يوم فيخلو إليه بعد أن يفرغ من درسه لابنته .

و لم يلبث أبو الفضل أن وثق بالقاضى الفاضل فأطلعه على سر جماعته وعرفه بهم فصار من أقطاب حركته منذ ذلك اليوم ، ولكنه لم ينجح فى السعى للقاضى الفاضل لتوليته المنصب فى ديوان الوزارة ، إذ كان ذلك فى عهد زريك بن طلائع ، وقد أخذت الأمور تضطرب فى يده ، منذرة بوشك سقوطه ، فلما تولى شاور الحكم بعده ، رأى أبو الفضل أن يستأنف مسعاه للقاضى الفاضل فقدمه إلى شجاع بن شاور ، إذ كان يختلف إليه بعد ما صار خطيب ابنته ، و لم يلبث شجاع أن شغف بالقاضى الفاضل وأعجب بفضله وأدبه ، فحدث عنه أباه ، واقترح عليه أن يجعله كاتب إنشائه ، فلما استدعاه شاور واجتمع به بهره فضله ، فلم يتردد فى توليته ، وسرعان ما سطع نجمه فى الديوان ، وظهر تفوقه على الأقران ، حتى كان شاور كثيرا ما يقول له : « اقتصد يا عبد الرحيم ، فإنى أخشى أن يحسدنى العاضد عليك فيطلبك لنفسه ! » .

١٨

فلما نهض أبو الفضل مستأذنا ليعود صديقه أبدى شاور رغبته هو أيضا في أن يعوده معه ، فللقاضي الفاضل فضل كبير عليه ، ولن ينسى أبدا أنه أوذي في سبيله ، وعذب ليقر أين فر شاور . فاحتمل العذاب صابرا وأبى أن يقر . ولو فعل لأعلى ضرغام منزلته ، ولجعله كاتب الإنشاء في ديوانه كذلك .

وتحركت أم الفضل لتتصرف أيضا . فصاحت أختها بصوتها الجهوري :

- إلى أين يا أمينة ؟

فأجابت أم الفضل بصوتها الخفيض الناعم :

- ائذني لنا يا أختي ننصرف !

- تنصرفون ! لا والله لاتبيتون إلا عندنا الليلة !

- نريد أن نروح إلى دار الفضل ابني فنبيت عندهم !

- هيه .. الفضل وامرأته أعز عندك مني !؟

- كلا يا زبيدة .. ولكنا قد وعدناهم اليوم .

- وعدتموهم ؟ نلغي الوعد الآن .. ميمون .. تعال يا ميمون .

فأقبل ميمون مسرعا :

- نعم يا مولاتي ..

- انطلق الساعة إلى دار الفضل ابن أختي ..

- لكن يا زبيدة ..

- اسكتي أنت ! اسمع يا ميمون .. قل لهم : إن الجماعة سيبيتون الليلة عندنا فلا تنتظروهم ...

- حالا يا مولاتي ..

قال ذلك وانطلق ..

ونظرت أمينة إلى زوجها كأنها تستنجد به ، وكان لا يزال واقفا مع شاور إذ استوقفهما هذا الحوار بين الأختين ، فاستمعا إليه يضحكان ، وكان شجاع أيضا واقفا ليشيعهما إلى الباب ، وسمية واقفة خلف أمها تسمع وتبتسم .

ولم تنتظر زبيدة حتى يتكلم أبو الفضل إذ أسرعت فقالت لأختها :

ـ أتظنين زوجك يستطيع أن ينفعك ؟

فضحكوا جميعا ، ومضت أم شجاع تقول :

ـ اشهد يا أبا الفضل بنفسك ، أنها تريد أن تتخلص منى بكل سبيل !

ـ أبدا والله يا أختى !

ـ أختك ! لو كنت أختى حقا لما هان عليك أن تتركينى الآن ولم يسر بعضنا بعضا من شهور !

ـ سنعود لزيارتكم عن قريب ..

ـ كلا .. لاترين وجهى ولا أرى وجهك .. لاعن قريب ولا عن بعيد ..

وتمتم شاور مبتسما : « سبحان من جعلهما أختين شقيقتين ! »

قال أبو الفضل حينئذ وهو يغالب ضحكه :

ـ وجب يا أمينة .. رضا أم شجاع عندنا بالدنيا !

ـ تسلم يا أبا الفضل .. ويسلم حسك !

ثم التفتت إلى زوجها قائلة :

ـ والآن رح يا سيدى مشوارك مع ابى الفضل ثم عد به معك ! حذار أن يفلت منك ..

فأجابها شاور :

ـ اطمئنى يا أم شجاع ! .

وقبل أن يتحرك أبو الفضل وشاور صوب الباب ، التفت أبو الفضل إلى شجاع قائلا :

ـ وأنت يا شجاع ألا تحب أن تعود معنا صديقك القاضى الفاضل ؟

وأجاب شجاع :

ـ قد عدته اليوم يا سيدى ...

ونظر إليه أبوه نظرة ذات معنى ، كأنه يقول له ، قد فهمت قصدك ، ثم قال لأبى الفضل :

ـ دعه هنا ، فإنه لم يقض الشوق بعد من خالته ولا من أمه ..

فتبسم أبو الفضل ، وخرج ، وتبعه شاور .

وخف المجلس بعد خروج الشيخين ، ورقت حاشيته ، وأخذ الباقون يتحدثون فى جو أقل وقارا وأكثر طلاقة .

قالت زبيدة لأختها :

ـ لم لا تخلعين هذا الشال يا أمينة .. فإن الدنيا حر ؟

ـ الجو متقلب يا أختى .. تارة حر وتارة برد ..

ـ كل سنة وأنت طيبة يا أمينة ، نحن فى آخر الصيف ... لكن الساعة حر ..

ـ صدقت !

قالت ذلك وخلعت شالها ، فتناولته سمية منها وعلقته على المشجب .

ـ وأنت يا شجاع .. لم لا تخرج مع سمية إلى الشرفة ... وتدعنى أنا وأختى نتحدث وحدنا ؟ أم صحيح ما قال أبوك ... إنك لم تقض الشوق بعد منى ومن خالتك ؟

فضحكوا جميعا ، وأجاب شجاع قائلا :

ـ نعم يا أماه .. هذا صحيح .. لن أقضي الشوق منكما أبدا ... ولو جلست معكما ليلا ونهارا .. ولكن ينبغي أن أطيع أمرك .. هلمي ياسمية ..

وترددت سمية قليلا ، ثم خرجت معه إلى شرفة واسعة مستطيل تشرف من جهة على جانب من الميدان الكبير ، ميدان بين القصرين، وتطل من جهة أخرى على حديقة الدار ، أما الميدان فتتلألأ الأنوار من جوانبه ، ومن وسطه ابتهاجا بيوم النصر ، وأما الحديقة فما يضيئها غير نور القمر ، تنسكب أشعته ، فتسقط على أرضها من خلل الشجر والغصون .

وهبت من ناحية الحديقة نسمة عليلة ، كأنها تحية من الطبيعة الرؤوم لحبيبين كريمين يوشكان أن يؤديا رسالة الحياة بعد قليل .

ووقف الحبيبان مليا ينظران إلى ماحولهما صامتين ، ثم التقت عيونهما فابتسما ، ولكنهما لم يدريا ماذا يقولان ؟ وما حاجتهما إلى القول ، وقد تكاشف قلباهما ، فليس بينهما حجاب ؟

ولكن للنجوى بعدُ لذتها في السمع ، وبشاشتها فى القلب ، وقد أتيحت لهما الليلة بعد ما حرماها زمنا طويلا ، فلم لا يتناجيان ؟

وبدأ شجاع يناجيها فتجيبه هى فى حياء واقتضاب ، واستمر يناجيها وأخذ لسانها ينطلق شيئا فشيئا ، وماهي إلا لحظات حتى اطرد الحديث بينهما ، وتسلسل ، وعجبا كيف استطاعا أن يتحاورا كل هذا الحوار ، وقد كانا يظنان منذ قليل أن ليس بينهما شيء يقال !

وكان حديثهما يجرى فى تسلسل واطراد ، كالجدول الطليق حتى إذا ما انتهى إلى ذكر موعد الزفاف المأمول اعترضته الجنادل والصخور فتعثر واضطرب ، إذ لم تزل دون ذلك اليوم المنشود شهور طوال سيقضيانها فى الصبر والانتظار حتى تنتهى أم شجاع من عام حدادها على ابنيها الذبيحين .

لك الله يا يوم الزفاف الحبيب ! لقد كنا نستعجل انقضاء الشتاء لنلقاك في الربيع ، فإذا نحن اليوم نستعجل انقضاء الخريف لنلقاك فى الشتاء !

١٩

وانقضت أيام وما برح الناس مبتهجين لهزيمة ضرغام ، إذ اعتبروها هزيمة للقصر ، ومستبشرين بعودة شاور إلى الحكم إذا اعتبروا ذلك انتصارا للشعب ، أليس العاضد قد كرهه ، وأثار ضرغاما عليه حتى أسقطه لأنه كان يتحدى القصر ، ويتقرب إلى الشعب ؟ فها هو ذا الآن يعود إلى كرسى الحكم مؤيدا من قبل الشعب وأنف العاضد راغم !

وانتعش أملهم فى عهد جديد تستقر فيه الأمور ، وتنتظم الأحوال ، وتصان فيه الحقوق والحرمات ، وإن كانوا لا يعلمون كيف يتم ذلك ، إذ لا يدرون ماذا ينوى أسد الدين أن يفعل بالعاضد أيخلعه عن العرش أم يبقيه ، ولا متى يغادر مصر ويعود برجاله إلى الشام ، وهل يأمن بعد ذلك ألا يعود العاضد سيرته الأولى . فيقيض لشاور ضرغاما آخر ؟

ومما أثار ريبتهم وزاد من قلقهم أن العاضد قد أسرع بإرسال الخلع النفيسة والهدايا القيمة إلى أسد الدين وكبار رجاله ، وإلى شاور أيضا ليعرب بذلك عن رضائه ، وتأييده ، وهم يعلمون أنه غير صادق فى وده لهؤلاء ، وإنما يظهر لهم خلاف ما يبطن ريثما تسعفه الحيلة وتواتيه الفرصة فيمكر بهم كعادته فى ذلك ، ويخشون أن ينخدع أسد الدين به ، وإن كانوا يرون فى وجود شاور معه عاصما له من ذلك .

وكان أسد الدين قد عسكر برجاله فى مخيم عظيم فى التاج بظاهر القاهرة حيث توافد الناس عليه من جميع الطبقات مسلمين مرحبين ، فكان يتلقاهم بالبشاشة واللطف مسرورا بما يشهد منهم من خالص المودة وصادق التكريم .

ولم يلبث أن أقبل إليه رسل العاضد يحملون إليه الهدايا والخلع وينهون إليه رغبة مولاهم الخليفة فى استقباله صباح الغد بالقصر ، فأمرهم برفع شكره إلى الخليفة وإبلاغه أنه سيحضر هو وكبار رجاله للسلام عليه .

واتصل بشاور وعرض عليه الأمر واستشاره فى عدد من يستصحبهم معه من رجاله ، فقال له شاور :

ـ خذ من رجالك على عدد الخلع التى بعثها إليكم العاضد ولا تزد ..

ـ أتراه قد قصد ذلك ؟

ـ نعم ..

ـ إنما هى خمس عشرة خلعة فقط .

ـ إن أردت أن تشعره بأنك لا تأمن غدره ، فزد على هذا العدد ماشئت ، أما إذا شئت أن تشعره بثقتك وطمأنينتك فانقص إن شئت ولكن لا تزد ..

فحرك أسد الدين رأسه متعجبا ، ثم سأله هل يخشى عليهم منه غدرا ، فأطرق شاور قليلا ثم أجابه قائلا : « إن العاضد لغدور ، ولكنه لن يأتيها اليوم هكذا علانية ، فهو أحصف من ذلك » .

فاقتنع أسد الدين برأى شاور ، وعزم على ألا يستصحب معه غير أربعة من رجاله هو خامسهم ، وراجعه رجاله فى ذلك ، ولا سيما ابن أخيه صلاح الدين ، إذ قال له :

ـ يا عم لأن يظن بك العاضد قلة الثقة به خير من أن تقع فى فخه .. وإنا لا نعرف ما فى قصره من الحبائل والشباك .

ولكن أسد الدين صمم على عزمه ولم يتردد .

وقبل أن ينصرف شاور من عنده ، قال له :

ـ إذا شئت سبقتك غدا برجالى إلى العاضد لأستطلع ما عنده ، فأزداد طمأنينة :

فقال له أسد الدين : « ذلك خير » .

وانفرد به صلاح الدين بعد انصراف شاور ، فقال له : « الآن زاد شكى وارتيابى » .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ إن قلبى لا يطمئن إلى هذا الرجل ؟

ـ شاور ؟

ـ نعم ...

فضرب أسد الدين على صدره وهو يقول : « دع عنك هذه الوساوس يا ابن أخى .. إنه صاحبنا ونحن سيوفه وحماته ، فأى شىء يدعوه إلى ما تظن ؟

٢٠

وأشرق الصباح ، فغدا شاور إلى القصر الشرقى ، واستؤذن له على العاضد ، فأذن له ودخل عليه شاور فى منظرته فتلقاه مرحبا كأن شيئا لم يحدث بينهما قط ، ثم دعاه إلى الجلوس ، فلما جلس قال له : « كنت أظن يا أبا شجاع أنك ستأتى فى ركب أسد الدين ترشده الطريق ! » .

فأدرك شاور أن العاضد قد بدأ يلاعبه فأجابه متجاهلا قصده : « مولاى إن مطلع القمر لايخفى على أحد ، وقد رأيت من واجبى وأنا وزيرك أن أسبقهم إلى مجلسك لأكون فى خدمتك عند استقبالهم.

فأبدى العاضد ارتياحه لما سمع ثم قال له : « خبرنى يا شاور مارأيك فى هؤلاء القوم ؟ » .

ـ ستبلوهم يا مولاى بنفسك فتعرفهم ..

ـ إنك خالطتهم قبلى .

ـ أنت يا مولاى أخبر بالرجال منى .

فأطرق العاضد لحظة ، ثم قال :

ـ أتدرى يا شاور لماذا سألتك عنهم ؟

ـ لا يا مولاى ..

ـ أردت ان أطمئن أنهم لن يتجاوزوا ما جاءوا من أجله فيطمعوا فيما ليس لهم .

ـ فى أى شىء يا مولاى ؟

ـ فى الحكم مثلا .

فشعر شاور برجفة ، ولكنه تجلد وقال : « كلا يا مولاى ، لقد عقدت بينى وبين السلطان نور الدين عهدا وليس نور الدين ممن ينقضون العهد » .

ـ صدقت يا شاور .. الآن اطمأن قلبى أنك ستبقى فى الحكم .

فنظر إليه شاور فى شىء من الارتياب لم يستطع كتمانه ، كأنه يقول له : « ألست أنت الذى سعيت أمس فى عزلى ؟ » .

فمضى العاضد يقول : « لاريب أنك تعلم يا شاور أنى استنجدت بنور الدين ليخلص البلاد من بغى ضرغام .. ويعيدك أنت .. ألم يطلعك نور الدين على كتابى هذا ؟» .

ـ لعل الكتاب ورد إليه بعد سيرنا من عنده .

ـ كلا يا شاور فقد أرسلته من أول ما حكم ضرغام ..

فحار شاور فيما سمع ، إذ لم يستطع أن يتبين صدق دعوى العاضد من كذبها فأجابه قائلا :

ـ شكرا لك يا مولاى على كل حال .. يسرنى أن قد عدت فآثرتنى بثقتك على ضرغام من زمن بعيد ..

ـ هذه عادتى يا شاور ، أولى الوزير من ثقتى على قدر ما يستقيم ويخلص .

وأعلن العاضد بقدوم أسد الدين وصحبه ، فانتقل من منظرته إلى الإيوان ليستقبلهم فيه .

وترجل أسد الدين وصحبه عند باب القصر ، فوجدوا شاور قد خرج لا ستقبالهم مع الحجاب ، ودخلوا فأعجبهم مارأوا من الزينات التى أقيمت تحية لهم ، فالبساط المفروش فى طريقهم ، والأعلام المرفوعة ، وطاقات الورود والرياحين منصوبة فى كل ركن ، فى أشكال جميلة مختلفة .

ومشوا فى ردهات القصر وهم يتعجبون من فخامة ما يرون وجمال ما يشهدون حتى لم يستطع أسد الدين أن يملك نفسه من الدهش ، فمال على ابن أخيه الذى كان يسير بجانبه فهمس فى أذنه قائلا : « أين صاحبنا المسكين نور الدين من كل هذا يا يوسف ؟ »

فأومأ إليه صلاح الدين أن يملك نفسه الآن لئلا يغض ذلك من قدره عند هؤلاء ، فأمسك أسد الدين وواصل سيره حتى إذا بلغ باب الإيوان ، نسى مانبهه ابن أخيه إليه ، فوقف يتطلع إلى نقوش الباب وزخارفه وهو يقول : « سبحان الله ! ما أبدع هذا الذى أراه ! »

فقال شاور بصوت خفيض : « داخل الإيوان أبدع وأجمل » .

ودنا صلاح الدين من عمه قاصدا فى الظاهر أن يصلح الخلعة العاضدية التى عليه ، ولكنه أراد فى الباطن تنبيهه ، فقال له همسا : « أنت داخل عليه ، فانظر إليه ولا تنظر إلى إيوانه » .

فابتسم أسد الدين هامسا : « لا تخف .. إن عمك يعرف سبيله عندما يجد الجد » .

وقد صدق أسد الدين فيما قال ، فما إن جاز عتبة باب الإيوان حتى مشى قدما صوب العرش لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا يحيد ببصره عن الشخص الجالس عليه حتى اضطر العاضد أن ينهض له قبل أن يدنو زائره من قوائم العرش ، وصعد نحوه وهو يضم أطراف خلعته الفضفاضة من السندس الفاخر المزركش ببنائق الفضة وقصب الذهب ، فسلم عليه بإمارة المؤمنين ، فرد العاضد السلام ، وصافحه ثم عانقه ، وهو يقول : « مرحبا بأسد الدين ومندوب نور الدين » .

ثم صعد رفاقه الأربعة : فقدمهم واحدا واحدا إلى العاضد ، والعاضد يصافحهم مرحبا ، وكان قد نصب كرسيان عن يمين كرسى الخليفة وشماله ليجلس أسد الدين عن يمينه ، ويجلس الوزير عن شماله ، ولكن العاضد لأمر ما نزل عن العرش ودعاهم إلى الجلوس على الأرائك فى القاعة وجلس هو بين أسد الدين وصلاح الدين من حيث جلس شاور أمامه فى الأريكة المقابلة .

وطاف الساقى عليهم بشراب الرمان المعطر . ثم أومأ العاضد فانسحب الحجاب واحدا بعد واحد ، حتى لم يبق فى القاعة غير كهلين أسمرين واقفين عن يمين العرش وشماله ، لا يتحركان كأنهما تمثالان .

وأخذ العاضد يثنى على نور الدين ، وما يضطلع به من جهاد الفرنج وأنهم لولاه لحاولوا امتلاك مصر ، ولا سيما والوزراء فيها يتقاتلون

دائما على كرسى الحكم ، ولا يهتمون بغير مصالحهم الخاصة ، بل إن بعضهم لا يتورعون عن الاستنجاد بالعدو لتوطيد مركزهم .

وكان شاور قد أحس من أول الحديث أن العاضد يعنيه ، ويعرّض به ، فلزم الصمت متجلدا متجاهلا ، وصلاح الدين يراقبه من طرف خفى ، ويلاحظ أثر الحديث فى وجهه ، أما أسد الدين فقد أظهر أنه لم يفهم تعريض العاضد بشاور فبقى ينظر إليه مستحسنا حديثه عن الوزراء عامة .

ولكن لما بلغ العاضد من حديثه إلى هذه الجملة الأخيرة ، اهتز أسد الدين قليلا ، ولاح الشك فى وجهه وهم أن يستوضح العاضد عما قصد ، لولا أن سبقه شاور إلى الكلام فقال وقد ظهر الامتعاض فى وجهه ولم يستطع صبرا : « على رسلك يا مولاى .. إن كان مولاى يعنينى ، فإنى ما استنجدت بغير نور الدين ، ونور الدين صديق لا عدو » .

وأبدى أسد الدين ارتياحه لقول شاور .. ونظر إلى العاضد مستفهما ، فما كان من العاضد إلا أن ضحك ، ثم قال : « أنت معذور يا أسد الدين إن أشكل عليك قصدى لأنك لاتعرفنى . ولكن لا عذر لوزيرى شاور » .

قال شاور : « ماذا يعنى مولاى ؟ » .

فقال العاضد محتدا : « هل يعقل عندك أننى قصدت بالعدو نور الدين ؟ ألم تجد غير نور الدين عدوا حتى ينصرف ذهنك إليه ؟ »

فاضطرب شاور قليلا ثم قال : فمن ذا قصدت يا مولاى ؟

ـ ويلك ! قصدت الفرنج ، عدونا .. وعدو الجميع !

ـ لكنى لم أستنجد بهم ؟

ـ ومتى قلت أنا ذلك ؟ إنما كنت أعنى صاحبك ضرغام .. فأسأت أنت الفهم .

- ضرغام ؟

- نعم ..

وظهر العجب فى وجوه الجميع ، فالتفت العاضد إلى أسد الدين وقال :

- أنت تدرى يا أسد الدين أنى استنجدت بنور الدين ، ليخلص بلادى من ضرغام ؟

- نعم ...

فأدرك شاور حينئذ أن العاضد كان صادقا فيما زعم .

ومضى العاضد يقول : « أتدرى ماذا حملنى على ذلك ؟ خشى ضرغام على مركزه لما بلغه لحاق شاور بكم فى الشام ، فأراد أن يستنجد بالفرنج فنهيته أنا عن ذلك . فلما لم ينته وركب رأسه ، لم أجد بدا من الكتابة إلى نور الدين .

ولاح الرضا فى وجوه الحاضرين ولا سيما فى وجه شاور . حتى هم أن يعتذر للعاضد ويشكره ، ولكن صلاح الدين سبقه — وكان قد تململ لما سمع من العاضد ، فلم يستطع صبرا عن الكلام فقال : « يا أمير المؤمنين لا ينبغى أن نقع فى رجل قد أسكته الموت عن الإدلاء بحجته ، وحسبنا أنه قد لقى مصرعه وكفينا شره ! » .

وكانت كلمة مفاجئة بهت لها الجميع ، وتغير وجه العاضد ، وظل ينظر مليا إلى صلاح الدين ، حتى اعتذر له عمه أسد الدين قائلا : معذرة يا مولاى إن يوسف ابن أخى لم يزل حدثا ولم يجرب الرجال بعد ، وإنه سريع التصديق لأقوالهم وقد خدعه ضرغام عن حقيقته لما قابله !

- وأين قابله ؟

- فى بلبيس .

وسرعان ما أظهر العاضد أنه أقتنع وقبل العذر ، إذ قال وقد زال العبوس من وجهه : « لاملام على ابن أخيك إذن .. فإن ضرغام يستطيع أن يفتن بحديثه حتى الشيطان » .

ولم يطل الاجتماع بعد ذلك ، إذ نهض أسد الدين مستأذنا ، ونهض رجاله فقام العاضد يشيعهم وهو يقول لهم :

ـ أنتم على الرحب والسعة ، وأى شيء تحتاجون إليه مبذول لكم ، وأنت يا أسد الدين باب قصرى مفتوح لك ليلا ونهارا ، تدخل عندى كما تشاء ، في أى وقت .

وأسد الدين يشكره مرددا ، حتى بلغوا باب الإيوان فودعهم العاضد وانصرفوا .

٢١

وركب أسد الدين وصحبه يرافقهم شاور ورجاله راجعين إلى المعسكر بالتاج ، وقد اصطفت الجماهير طول الطريق تحييهم ، وتهتف لأسد الدين وشاور ، وأطلت النساء من شرفات المنازل يتطلعن ويرسلن الزغاريد .

وفى المعسكر جلس أسد الدين بين خواص رجاله ، ومعهم شاور ، فتجاذبوا الحديث فيما شهدوا فى القصر ، وما سمعوا من الخليفة العاضد .

قال أسد الدين :

ـ قد سمعت أنه شاب صغير ولكنى ما كنت أتصوره بهذه الحداثة . أنا لا أستطيع أن أعطيه أكثر من عشرين سنة .

فقال شاور :

ـ بل هو دون العشرين ! فى الثامنة عشرة .

ـ فى هذه السن وعنده كل هذا الدهاء .

ـ أجل ، لتعلم أنى لست مبالغا فى وصفه لك .

ـ ومن ذانك الكهلان الواقفان على جانبى العرش ؟

ـ هذان كبيرا أستاذى القصر .. مؤتمن الخلافة .. وزعيم الخلافة !

ـ وماذا يصنعان ؟

ـ هما مستشاراه فى كل شىء .. ولا يعصى لهما مشورة ..

ثم أخذ شاور يقص عليهم بعض ما جرى بينه وبين العاضد قبل مجيئهم ، وكيف حاول العاضد بأسلوبه الثعلبى أن يوغر صدره على أسد الدين ، فلما لم يجد عند شاور ما أراد عاد فأخذ يثنى على أسد الدين ونور الدين .وختم شاور حديثه بأن قال : « بذلك فإنى لا آمن يا أسد الدين أن يلقاك يوما فيوغر صدرك على ليفرق بيننا فحذار منه».

ـ لا تخف يا أبا شجاع .. إنى قد عرفت الرجل اليوم : وفهمت أسلوبه !

ـ خير ما نصنع يا أسد الدين .. لنتقى شره .. أن تكاشفنى بما يقول لك عنى .. وأكاشفك بما يقول لى عنك ...

ـ أجل .. سنصنع ذلك .. ولن نمكنه إن شاء الله مما يريد ..

ـ وأحسن من ذلك كله أن نسرع بخلعه .. ونولى أميرا غيره . فماذا ترى ؟

فأطرق أسد الدين قليلا ثم قال : « كلا يا شاور ليس عندى أمر من نور الدين بخلعه .. ولن أقبل على ذلك من تلقاء نفسى إلا فى حالة واحدة » .

ـ ماهى : ؟

ـ إذا تبين لى أن فى بقائه خطرا من جهة أعدائنا الفرنج ..

ـ إنه لن يتورع عن الاتصال بهم عند الضرورة ..

ــ حينئذ يكون لنا معه شأن آخر ...

ثم قام شاور يتفقد حاجات المعسكر من المؤن والمرافق وغيرها ليـأمر بإرسالها إليهم ، فلما انتهى من ذلك ودع أسد الدين وانصرف .

ودنا صلاح الدين من عمه فقال له :

ـ لقد أحسنت يا عم في ردك على شاور ..

ـ ماذا تعني ؟

ـ أغلـب الظـن عنـدى أن هـذا الرجـل لم يقصـد مـا قـال عـن خلـع العاضد .. وإنما أراد أن يسبر ما عندك ..

ـ عمن تتحدث يا ابن أخى ؟ أما برحت تشككنى فى شاور ؟

ـ إنى لا أطمئن إليه أبدا ..

فالتفت أسد الدين إلى شهاب الدين الحارمىّ قائلا :

ـ تعال يا شهاب الدين كن حكما بينى وبين ابن أختك هذا .. مـاذا يريدنى أن أصنع بصاحبنا شاور ؟ هل أنقض عهدنا معه وأعلـن الحـرب عليه ؟

فأجابه الحارمى ضاحكا :

ـ لا شأن لى يا أسد الدين بما بينك وبين يوسف .. إن أكن أنا خالـه فأنت عمه .. ولست أولى به منك ..

فقال يوسف صلاح الدين بلهجته الحادة التى لم تتغير :

ـ أنا لم أذكر نقض العهد ولا إعلان الحرب .. وكل ما أريـده منـك أن تتيقظ له لتأمن شره ..

فتنهد أسد الدين وقال :.

ـ والله لا أدرى فى هذا البلد أأتيقظ للعاضد أم أتيقظ لشاور ؟!

ــ تيقظ لهما معاً ..

فقال أسد الدين مداعبا ، وقد نهض إلى خبائه ليخلع ثيابه ويستريح : « سمعا يا صلاح الدين ... سأتيقظ لهما وسأتيقظ لك أيضا ولخالك !

وتوارى فى خبائه ، وتركهما يضحكان ...

واضطجع أسد الدين فى فراشه لينام ، فاستعصى النوم عليه ، إذ ظلت كلمات صلاح الدين فى شاور ترن فى أذنيه وتضطرب فى رأسه فيتقلقل لها جنباه ، ثم نهض فنادى ابن أخيه إليه ، فلما دخل أجلسه على جانب فراشه فقال له :

ـ طار النوم من عينى يا يوسف من أجلك ..

ـ من أجلى ؟ فيم يا عمى ؟

ـ اسمع .. إياك أن تظن يا ابن أخى أنى لا أقدر رأيك قدره ..

فبدره صلاح الدين قائلا : « أو قد تركت نومك ودعوتنى لتعتذر ؟ ويحك يا عمى ! أمثلى يحتاج إلى اعتذار من مثلك مهما قلت وفعلت ؟ » .

ـ كلا .. ما الا عتذار قصدت .. ولكنى سأطلعك على سر ثقتى بشاور .. أجل قد آن لى أن أطلعك على هذا السر .

ـ أى سر يا عمى ؟

ـ أتذكر ذلك الشيخ الذى زارنى البارحة بعد العشاء ؟

ـ ذلك الشيخ الأشقر الذى خلوت به ؟

ـ نعم ..

ـ قلت لى إنه من كبار تجار الحرير ...

ـ أجل .. ولكنه لم يحضر ليبيعنى شيئا من بضاعته كما زعمت لك وللآخرين .. اسمع هذا السر ولا تخبر به أحدا .. إنه صديق نور الدين ...

ـ صديق نور الدين ؟

ـ نعم .. ومن أكبر من يثق بهم .. وقد ظل يكاتبه ويراسله سرا من قديم .

ـ والله يا عمى لقد وقع فى قلبى حين رأيته أن له شأنا ..

ـ دعنى الآن من حديث فراستك .. فإنى سأحدثك عن علم لا عن محض تفرس وتخرص ...

ـ أنا مصغ إليك ..

ـ لولا رسائل هذا الشيخ إلى نور الدين لما وثق نور الدين بشاور ولا استجاب له .. أو قد فهمت الآن قصدى ؟

ـ نعم أنت تثق بشاور لأن هذا الرجل يثق به ؟

ـ هو ذاك .. فماذا ترى الآن ؟

فنهض صلاح الدين قائلا : « نم الآن قيلولتك أولا . فإنى لا أريد أن أطير النوم من عينك ... .

فجذبه أسد الدين وأعاده إلى الجلوس وهو يقول : « ويلك ياشقى ! قد طار النوم من عينى وانتهى .. قل لى الآن ما رأيك ؟ » .

ـ فى شاور ؟

ـ نعم ..

ـ لم يتغير ولن يتغير !

فأخذ أسد الدين بأذنه فقرصها وقال متغاضبا فى عطف وحنان : « اخرج من عندى ياعنيد ، ودعنى لأنام » .

وخرج صلاح الدين ضاحكا وهو يقول : نم يا سيدى واطرد هذا الكابوس من رأسك .

ولم يستطع أسد الدين أن ينام قيلولته ، بل لم يستطع بعد ذلك أن يهنأ بنومه فى الليل أيضا ، فقد ظل التفكير فى أمر شاور يقلقه ويؤرقه دون أن يعرف لذلك سببا واضحا ، فهو باق على ثقته بشاور ، إذ لم ير منه ما يزعزعها . وما قيمة تخرصات ابن أخيه وعنده هو علم اليقين ؟ لكن شبحا خفيا من القلق يتسلل إلى نفسه ، فيتنقل خلله فى أرجائها كلما طرده من ركن ظهر له فى ركن آخر . حسبك اللّه يا صلاح الدين ! أنت السبب فى هذا كله .. هيه .. هو الآن مع الملائكة فى سلام .. وأنا مع الشياطين فى جهاد وصراع ..

وبات يتقلب فى فراشه صاحيا ، حتى رق له النوم فى الهزيع الأخير من الليل فجاد عليه ببعض الوصال .

٢٢

وما كان يعلم أسد الدين أن شاور الذى أرقه التفكير فيه لم يكن تلك الليلة أسعد حالا منه ، فقد ضل فى بيداء الفكر أيضا ، ولم يهتد إلى النوم سبيلا ، فكأنهما حبيبان عاشقان فرق بينهما الزمن ، فجمع بينهما الأسى والسهاد ، غير أن الذى أرق شاور ليس الفكر فى أسد الدين ، بل فى العاضد ، وليس الذى سمعه من العاضد ذلك اليوم هو السبب وحده ، وإن كان كافيا لإقلاقه وتأريقه . بل وقع له تلك الليلة حادث خطير ، ضاعف من قلقه ، وزاد من أرقه .

ذلك أنه لما أراد أن يأوى إلى فراشه بعد عشية قضاها فى هم وكبد ، ودخل عليه غلامه ميمون فأخبره أن بالباب رجلا سريا اسمه ابن الخياط يريد أن يقابله فى أمر مهم .

وابن الخياط هذا يعرفه شاور رجلا من أعيان المدينة ، مشهورا بحب الترحال ، له ضياع في جهة بلبيس وغيرها ، ويقتني في داره بالقاهرة غرائب الآثار ونوادر التحف يجمعها من رحلاته . ترى ماذا جاء به في مثل هذه الساعة ؟ وهم شاور أن يقول لغلامه : قل له يرجع لزيارتي غدا في الصباح ، غير أنه لم يقدر من فرط القلق الذى به أن يؤجل لقاء هذا الطارق عسى أن يجد عنده تفريجا لكربه من حيث لا ينتظر .

فارتدى جلبابه الدبيقى ، وأخذ خنجره ، فدسه فى وسطه ، ثم نزل ليلقاه فى قاعة الضيوف ، وفى أثناء نزوله لقى ابنه شجاعا يصعد الدرج عائدا من عند آل أبى الفضل فى الفسطاط حيث سمر قليلا عندهم ، فأخبره أبوه بقصة الضيف ، فعجب وارتاب ، وقال : « دعنى يا سيدى أستقبله معك » .

- لا يابنى ، لعله يريد أن يفضى إلى بسر ، ولكن انتظر أنت بباب القاعة لتكون قريبا منى إذا احتجت إليك ..

ودخل شاور القاعة فوجد ابن الخياط واقفا ينتظره :

- معذرة يا أبا شجاع إن أثقلت عليك فى مثل هذه الساعة .. ولكن الحاجة التى أتيت من أجلها تقتضى ذلك ..

- لا بأس يا ابن الخياط .. إنى ما أويت إلى فراشى بعد .. اجلس .. مرحبا بك ..

فجلس ابن الخياط وجلس شاور قريبا منه .

- لا أحد يسمعنا هنا ؟

- لا أحد .. قد نام الجميع .. خير إن شاء الله ..

- بخير يا أبا شجاع .. ما دمت قد عدت إلى الحكم فالدنيا بخير ..

ـ شكرا لك ..

ومضى ابن الخياط يعرب عن سروره بعودة شاور ، وابتهاج الناس لذلك ، وأملهم فى استقرار الأحوال فى البلد ، ثم قال : « ولكنى لا أكتم عنك يا أبا شجاع أن سرورى كان يكون أعظم لو تم هذا الأمر بغير أن يأتى هؤلاء الغزّ إلى بلادنا ويتصرفوا فى أمورنا » .

وقدح الشك حينئذ فى نفس شاور أن يكون هذا الرجل مدسوسا عليه من قبل العاضد ليفسد ما بينه وبين أسد الدين ، ولكنه لم يبد ذلك بل أجابه قائلا : « كلا يا ابن الخياط .. إن هؤلاء لا يتصرفون فى أمورنا اليوم ، ولن يفعلوا ذلك ، وإنما جاءوا لمعاونتى على طرد ضرغام بعهد بينى وبين سلطانهم نور الدين ، ثم يعودون إلى بلادهم ونور الدين رجل شريف لا ينقض العهد » .

قال ابن الخياط : « أجل إنهم ربما لا ينوون سوءا اليوم ولكن لاتنس أن العاضد لم يطق وجودك من قبل ، فكيف يطيقه اليوم وقد فرضت فرضا عليه ؟ » .

ـ وما شأن العاضد فيما ذكرت ؟

ـ لا ريب أنه سينتهز وجود هؤلاء فينقلب بهم عليك ...

ـ كلا إنهم أصدقائى ولن يقدر العاضد على الإيقاع بينى وبينهم .

ـ عجبا لك يا أبا شجاع ! إنك تعرف العاضد وأحابيله ..

وتعجب شاور من قدحه فى العاضد وقد ظن أنه من قبله ، ولكنه رأى أن يسايره فى الحديث إلى نهايته ، لعله يكشف سره ، فقال له :

ـ هيهات قد كان ذلك فيما مضى .. أما اليوم فلن يجد له ضرغام آخر ..

- اعلم يا شاور أن العاضد إن لم ينجح مع هـؤلاء ... فسينجح مع قوم آخرين أقوى منهم ...

- من تعنى ؟

- أصدقاءه الفرنج !

فدهش شاور لما سمع وطرب فى الباطن لذكر الصلة بين العاضد وبين الفرنج وإن لم يسمع بعد دليلا عليها من زائره ، وتوقـع أن يسـمع الدليـل ، وقد تغير رأيه فى ابن الخياط السـاعة ، إذ استبعد أن يكـون مـن طـرف العاضد ، ورجح عنده أن يكون حسن النية ، يخشى على وطنـه أن يقـع فى أيدى الفرنج .

- ماذا تقول يا ابن الخياط ؟ الفرنج أصدقاؤه ؟

- لم لا يكونون كذلك ؟ إنهم لا يريدون بمصر سوءا .. وإنما يخشون أن يملكها نور الدين فيقوى بها عليهم .. فإشارة من العاضد أو من غيره كافية عندهم لبذل الصداقة والنجدة ...

فعجب شاور مما قال ، وحار فى أمره مرة أخرى ، ولكنه مضى فـى حواره يقول :

- دعنى من هذا وقل لى أولا .. هل اتصل بهم العاضد ؟

- نعم .. ولكنهم لا يثقون بقوته اليوم ويؤثرون لو صـادقوا مـن هـو أقوى منه .

- لكن كيف عرفت أنه اتصل بهم ؟

فنظر إليه ابن الخياط مليا ثم قال له : « هل يعنيك هذا كثيرا ؟ »

- نعم ...

ـ إني كثير الأسفار كما تعلم ، وأحب جمع التحف والآثار والوثائق التاريخية ، وأبذل فيها المال الكثير ، وقد وقعت في يدى وثيقة تثبت ما تريد ...

ـ أين هي ؟

ـ عندى .. ولكن لا أستطيع أن أطلعك عليها ولا أحدًا غيرك ..

ـ لم ؟

ـ يا أبا شجاع أتريد أن تؤخذ منى وتؤخذ معها حياتى ؟ ولكنى أقسم لك بالله وملائكته أنها بخط العاضد وعليها توقيعه وختمه ! ألا يكفيك هذا ؟

فأطرق شاور هنيهة ، ثم قال له : « لكن ماذا جاء بك لتسمعنى هذا الذى قلت ؟ » .

ـ هذا بلدى يا شاور .. وله علىّ حقوق .. أوَتظن أن رجال الحكم وحدهم هم الذين عليهم أن يهتموا بخير بلادهم واستقامة أحوالها ؟

ـ كأنك جئت لتنصحنى وتشير علىّ ؟

ـ هذا واضح يا أبا شجاع .. أنت رجاء هذه الأمة ومعقد آمالها ..

ـ فبم تشير علىّ ؟

ـ قد أشرت عليك بما فيه الخير ..

وسكت شاور قليلا وقد أخذ مرمى الرجل يتكشف له شيئا فشيئا . إنه يشير عليه بمصادقة الفرنج ، لا ريب في ذلك ، ولكن لحساب من يصنع ذلك ؟ لحساب الفرنج أنفسهم أم لحساب العاضد ؟ هذا مابقى حائرا فيه ، غير أن قلقه من جهة العاضد جعله يميل إلى ترجيح الاحتمال الثاني . واستجمع شاور كل ما أوتى من فطنة وسرعة بديهته ، فلاح له

الرأى الحاسم الذى ينبغى أن يأخذ به فى هذا الموقف الحـرج ، فقـرر أن يصدع به وليكن ما يكون !

ـ إياك يا ابن الخياط أن تريدنى على مصادقة الفرنج ..

ـ وأى بأس فى ذلك ؟

ـ أى بأس فى ذلك ؟ هذه خيانة !

ـ إن لم تصادقهم فسيصادقون العاضد .

ـ فليذهب العاضد إلى الجحيم .

ـ العاضد لايعنينا بل مصلحة البلد ، ليس من مصلحة البلد أن يجيئـوا

ـ فلا يجدوا رجلا قويا مثلك يقدر أن يقفهم عند حـدود مـا جـاءوا من أجله ..

ـ ويلك ! ليس من مصلحة البلد أن يجيئوا ألبتة .

ـ هذا لو بقى هؤلاء الغزّ بعيدا عن مصر ، أما وقـد وطئـوا أرضهـا ، فالفرنج آتون لا محالة لنصرك أو لنصر العاضد ..

ـ اخسأ يا خائن ! اخرج من عندى !

فنظر إليه الرجل نظرة ملؤها الحقد ، ثم نهض من مجلسه وهو يقول :

ـ تسبنى وتطردنى يا شاور ؟ والله لتندمنّ على هذا !

ـ ارجع إلى من أرسلوك ... فانقل إليهم ما شهدت ...

ـ كلا .. أنا لم يرسلنى أحد ..

ـ بل أعرف من أرسلك .

ـ دعنى أختبر فطنتك يا أبا شجاع .. من ؟

ـ العاضد ... ودهاقينه .

فتنفس الرجل الصعداء ، وابتسم قائلا : « أما عدت تخاف العاضد يا شاور ؟ إنه الخليفة وإنه من تعرف !؟ »

ـ كلا لا أخافه .. انطلق إليه الساعة وقل له إنى لا أخافه ...

ـ صدقت .. صرت اليوم تخاف أسد الدين مولاك وسيدك !

فاستشاط شاور غضبا ، وانقض على الرجل فطرحه أرضا وبرك عليه ثم حل عمامته وجعل يكتفه بها ، ودخل شجاع حين سمع الهدة على الأرض وخلفه ميمون العبد ، فوجد أباه باركا على الرجل ولم يكد ينحنى ليعين أباه حتى فرغ أبوه من تكتيف الرجل فقام عنه وتركه يصيح ويرفس الأرض بقدميه .

قال شجاع وقد شهر خنجره : « دعنى أقتله يا سيدى فإنه خائن ! » .

ـ كلا يا شجاع دعه لميمون .

وخلع شاور حذاءه فألقاه إلى ميمون قائلا : خذ الحذاء يا ميمون فاضرب به وجهه !

وطفق العبد يضرب وجه ابن الخياط بالحذاء ، وهو يتقلب ذات اليمين وذات الشمال إلى أن صاح شاور : « حسبك يا ميمون حل عنه الآن كتافه ! » .

فقام الرجل يئن ويتوجع والدم يسيل من جبينه ومن فمه .

ـ خذه معك يا ميمون فأوصله إلى الباب .

فساقه ميمون والرجل يترنح كالمخمور حتى إذا بلغ باب القاعة التفت إلى شاور قائلا فى غيظ وحقد : « بينى وبينك يوم يا شاور » ! ثم خرج ووقف شاور صامتا ولم يجب .

ثم التفت إلى شجاع فوجده واقفا فى شبه ذهول .

ـ سمعت الحديث الذى دار بيننا يا شجاع ؟

ـ نعم يا سيدى سمعت شطرا منه .

فمال شاور إلى الأريكة فجلس وغرق في فكر عميق .

ولم يشعر يعد حين إلا وابنه شجاع قد انفجر يبكى أمامه ، وجعل يقبل رأسه وهو يقول : « سامحنى يا سيدى ... سامحنى » .

ـ ما خطبك يا شجاع ؟ فيم أسامحك ؟

ـ فيما أسأت الظن بك على غير حق .

وأجفل شاور من هذه الكلمة ولكنه تجلد :

ـ متى يا شجاع ؟ متى كان ذلك ؟

ـ يوم بلبيس يا سيدى .. يوم بلبيس .

وسرى عن شاور لما سمع هذا فأخذ بيد ابنه فأجلسه بجواره وأخذ يطبطب على كتفه وهو يقول :

ـ لا جناح عليك يا بنى . لقد سامحتك فى هذا منذ ذلك اليوم ..

ـ لكنى ما تحققت صدقك وصواب رأيك فى ضرغام إلا الساعة .

ـ الحمد لله .. الحمد لله ..

وظهر ميمون على الباب .

ـ ماذا فعلت يا ميمون ؟ أوصلته خارج السدة ؟

ـ نعم يا سيدى .

ـ اذهب إذن لتنام ..

وما لبث شاور أن عاد إلى فكره وإطراقه ، فهاب شجاع أن يتكلم أو يتحرك فلزم مكانه صامتا إلى أن رفع أبوه رأسه كأنما اهتدى إلى حل ارتضاه :

ـ كنت فى الفسطاط عند خالتك أمينة يا شجاع ؟

ـ نعم يا سيدى .. وهم يسلمون عليك .

ـ اسمع يابنى ، إنى قد عزمت على أن أعجل بزواجك فى الحال .. فإن لم يوافق هؤلاء على ذلك اخترنا لك عروسا أخرى !

فعجب شجاع مما سمع من أبيه :

ـ التأخير يا سيدى ليس منهم بل منا حتى تنتهى والدتى من حدادها ..

ـ فلينته حدادها من اليوم .. الحداد لن ينفع من مات .. فلا ينبغى أن يضر من عاش .. غدا سنذهب جميعا إلى الفسطاط لنتفق معهم على موعد الزواج .

ـ أحقا يا سيدى ؟!

ـ نعم .. أتدرى ياشجاع ماذا أنا صانع ؟ لأقيمن لك عرسا تتحدث به الناس من المالح إلى أقصى الصعيد !

٢٣

وغدا شاور من الصباح الباكر إلى مخيّم التاج ، ليلقى أسد الدين ، فأدرك أسد الدين أن أمرًا ذا بال قد جاء به فى مثل هذه الساعة ، فقاده إلى خبائه ليجتمع به على انفراد ، ولكن صلاح الدين أطل برأسه من سجف الخباء ، فحيا شاور ثم قال لعمه : « هل تريد منى شيئا ؟.

ـ إن شئت يا أبا شجاع حضر يوسف هنا معنا .

وكان شاور لايرتاح كثيرا لصلاح الدين ، كأنما يحس أن صلاح الدين لا يحبه ولا يرتاح إليه ، ولكنه لم يجد بدا من تلبية رغبة عمه أسد الدين .

ـ ليفعل ، لا مانع عندى .. لعلنا نحتاج إلى رأيه .

فلما استقر بهم المجلس قال شاور : « قد جئتك اليوم بما يستوجب خلع العاضد عن العرش ، فقد اتصل بالفرنج وكاتبهم » .

قال أسد الدين وقد بدا الاهتمام فى وجهه : « وكيف علمت ذلك يا شاور » ؟.

فأخذ شاور يقص عليهما حديث ابن الخياط معه وما جرى بينهما من أوله إلى آخره ، والاثنان يصغيان متعجبين فلما انتهى من حديثه قال له أسد الدين : « إننا لا نستطيع أن ندين العاضد ، مالم نطلع على تلك الوثيقة ، فهل تستطيع أن تحصل عليها ؟ » .

ـ ما إخال ذلك فى الإمكان .. فالرجل لاريب حريص على إخفائها .. وعنده دور كثيرة ...

ـ إذن فلا سبيل إلى إدانة العاضد ... .

ـ يكفى أنه بعث هذا الرجل ليستدرجنى ...

ـ صدقت .. ولكن هذا شىء آخر ...

وهنا اعترض صلاح الدين قائلا : « ولكن ما يدريك يا أبا شجاع أن العاضد هو الذى بعثه ؟ لم لا يكون هذا الرجل جاسوسا من جواسيس الفرنج ؟ » .

فأجفل شاور قليلا إذ أدرك الآن قوة هذا الاحتمال ، وعجب فى نفسه كيف استبعده هو من قبل ، ولم يعطه ما يستحق من الاعتبار . ولكنه قرر أن يمضى فى الدفاع عن رأيه .

ـ كلا يا صلاح الدين ... ما كان الفرنج ليرسلوا إلى رجل مثلى يعلمون عداوته لهم وصداقته لنور الدين ...

ـ إنها محاولة ...

قال شاور وقد لاح الضيق في وجهه : « إن فعلوا ذلك فهم أغبياء » .

ورأى أسد الدين أن ينقذ الموقف فقال : « أيًّا ما تكن الحال فقد أحسنت عقابه يا شاور إذ وكلت إلى عبدك ضربه بالنعل ... فإن كان الفرنج هم الذى أرسلوه فسيبلغهم فيكبت صدورهم وإن كان العاضد ، فسيبلغه فيكتئب » .

قال شاور وقد سره ما سمع : « واللّه يا أسد الدين ما كنت لأحكي لك هذا الذى حدث لولا حرصى على ألا ندع أحدا يفسد ما بيني وبينك ، سواء كان العاضد أم غيره » .

وأحس صلاح الدين أن شاور قد عناه في كلمته هذه .. ولكنه تجاهل ذلك ولزم الصمت .

فأجاب أسد الدين قائلا : « هذا محال يا أبا شجاع .. نحن زميلان في السلاح ، عيب علينا أن ندع أحدا يفسد مابيننا » .

ونهض شاور لينصرف ، فقال له أسد الدين : « لم لا تبقى قليلا نتحدث ؟ » .

فأخبره شاور بأنه على موعد مع أهله في الفسطاط ليسعوا في تزويج ابنه شجاع .

فصاح أسد الدين مبتهجا : « مرحى يا شاور مرحى ! أجل أرونا يا أهل مصر كيف يكون العرس عندكم .. لكن إياك أن تنسانا في الوليمة » .

ـ أنساكم ؟ كيف .. وما قررنا التعجيل بالزواج إلا لتشهدوه . خذ الدعوة من الان .. للمعسكر كله ..

ـ بوركت يا أبا شجاع .. سيجد عسكرنا ما يسليهم ...

ولما انصرف شاور أقبل أسد الدين على ابن أخيه يقول له :
« هيه .. ماذا ترى الآن يا يوسف » ؟

ـ في أى شيء ياعمى ؟

ـ في شاور ، هل بقى في نفسك شيء منه بعد الذى سمعت ؟

ـ نعم !

ـ لا ، لا .. إنك عنيد لاتطاق ...

ـ هذا رأيى وما ينبغى أن تغضب منه .

ـ أنت حر ..

ثم دنا منه صلاح الدين قائلا .. « ثم كيف ياعمى تترك هذا الأمر الخطير يمر هكذا دون أن تصنع شيئا ؟ »

ـ ماذا تريد أن نصنع ؟

ـ نجمع الثلاثة في مكان واحد ليواجه بعضهم بعضا ، ونسمع أقوالهم ..

ـ من هم ؟

ـ ابن الخياط هذا .. والعاضد وشاور ...

ـ ويلك ! ماذا تقول ؟ أتريدنا أن نثير فتنة فى البلد ولما يمض على قدومنا غير أيام ؟

ـ بل سنكشف بذلك الحقيقة .. فنتقى الفتنة الكبرى ..

وأراد أسد الدين أن ينهى النقاش ، فأخذ بيد ابن أخيه ليخرجه من الخباء وهو يقول : « اسمع يا ابن أخى .. .. أنت شاب بعد .. وأنا شيخ . فلا تجعلنّ اندفاع الشباب يغلب حكمة الشيوخ » .

٢٤

أما شاور فقد رجع إلى الديوان ليطلع على المهم من الشئون ويصرف المستعجل منها ، فلما قضى من ذلك ما أراد ركب إلى الفسطاط وقصد بيت أبـى الفضـل ، حيث وجد شجاعا ووالدتـه قد سبقاه من أول الصباح ، ووجد أبا الفضل فى انتظاره لم يذهب إلى دكانه ذلك اليوم ، فرحب به ترحيبا بالغا ، وأقبلت سمية ووالدتها ـ وكانتـا منهمكتين فى إعداد الغداء ـ فرحبتا به .

قال لهم شاور : « إننا دعونا أنفسنا عندكم اليوم إذ هزنا الشوق إليكم فلم ننتظر حتى تدعونا » ونظر عند ذلك إلى سمية فتورد خدها حياء .

فأجابه أبو الفضل ضاحكا : « وما يدريك يا أبا شجاع ألا يكون شوقنا إليكم هو الذى جذبكم إلينا ، ونظر عند ذلك إلى شجاع فابتسم.

قالت أم الفضل : البيت بيتكم على كل حال ... أنتم فى بيتكم .

ــ اليوم فقط يا أم الفضل ؟

ـ بل اليوم وغير اليوم يا أبا شجاع .

ـ كلا يا أم الفضل لا ينبغى لنا أن نقيم فى بيتكم .. عليكم أنتم أن تقيموا فى بيتنا ...

فلم تدرك أم الفضل قصده إلا حين رأتهم يضحكون ورأت ابنتها سمية تنسل خارجة فى لطف وحياء . ثم قاموا إلى المائدة فجلسوا حولها جميعا . وأخذوا يأكلون ويتحدثون فى صفاء وأنس .

وكان أبو الفضل وأهله قد عجبوا فى الصباح لما أقبلت عليهم أم شجاع وقد خلعت عنها السواد وارتدت الزينة ، ثم عجبوا لما فاتحتهم

فى التعجيل بزواج شجاع من سمية ، وذكرت أن ذلك قرار زوجها الذى صمم عليه ، وكان مثار عجبهم أن ذلك لم يكن منتظرا من قبل ، وأن شاور لم يفاتح أبا الفضل فيه أو يشر إليه ، فأخبرتهم زبيدة أن زوجها لم يفاتحها هى ولا ابنها فى ذلك إلا الليلة البارحة ، فازدادوا عجبا .

ولكن زبيدة لم تضن عليهم بما عندها فى تعليل ذلك ، فقالت لهم : « لعل أبا شجاع عزّ عليه أن يرانى متسلبّة فى السواد ، أجتر حزنى على ولدىّ ، فأراد أن يخرجنى سريعا من المأتم إلى العرس » . ثم ترجت أبا الفضل أن يجيب شاور إلى طلبه لأنها تعلم من خلقه أنه سيستاء كثيرا إذا لم يجب ، فقال لها أبو الفضل : اطمئنى يا أم شجاع فإن رضا زوجك عندى غال وعزيز .

وهكذا لم يحضر شاور إلى بيتهم حتى تمهد كل شيء ، فلم يجد أى عسر فى إقناع أبى الفضل فيما طلب ، ثم لم ينصرف من عندهم عقب صلاة العصر إلا بعد ما اتفقوا على تعيين موعد الزفاف فى أقرب وقت مستطاع ..

أما شجاع وسمية فلا تسل عن ابتهاجهما بهذه المفاجأة السارة التى هبطت عليهما من السماء ، من حيث لم تخطر لهما على بال ، فاختصرت أمد انتظارهما الطويل إلى نصف شهر فحسب . وما نصف شهر ببعيد ، بلى إن نصف شهر فى حساب العاشقين لجد بعيد . .

وانهمك البيتان السعيدان فى إعداد ما يلزم لذلك اليوم القريب البعيد ، وكان شاور نفسه أشدهم اهتماما وأكثرهم نشاطا على كثرة ما يضطلع به من مهام الحكم ، وما يشغل فكره من ناحية مصيره

المضطرب . و لم يعلم أحد سواه أن اهتمامه بتأمين ذلك المصير ، هو السبب الأكبر لا اهتمامه بإقامة هذا العرس الكبير .

وأقبل اليوم الموعود ، فشهد أهل القاهرة ، ومن قدموا إليها من مختلف الأقاليم عرسا لم يشهدوا مثله فخامة وبذخا منذ وقت ابنة الوزير طلائع إلى الخليفة العاضد ، بل إن عرس اليوم يفوق عرس الأمس فى كثرة من دعوا إلى وليمته من كبير وصغير ، وقريب وبعيد ، ومقيم ونازح ، ثم فى الموائد العامة التى نصبها شاور فى كل حى من أحياء القاهرة ، وملأها بأفخر الطعام وأشهى الحلوى وأجود الفاكهة بغير حساب ، فطفق العامة يأكلون منها مايأكلون ، ويحملون إلى بيوتهم ما يحملون.

وزفت سمية إلى شجاع فى موكب من شعاع .. وتجاوبت الأنغام، وتراقصت الأحلام ، ونعم الحب بطيب القرب ، وطاب الوصل ، واجتمع الشمل ، ونادى المحب ولبى الحبيب !

السفر الثانى

١

مر شهران على يوم العرس الميمون ، قضاهما الزوجان السعيدان فى نشوة لم تنقطع ، فكأنهما يومان أو ليلتان .

وما زال الناس يتحدثون عن ذلك اليوم المشهود ، وما رأوا من كرم شاور وأبهته فيقول بعضهم لبعض : أبشروا فقد عاد حكم شاور ، وعاد معه اليسر والرخاء .

وسما شاور وتلألأ نجمه فى السماء ، فبدأ كأنما طمس اسم العاضد طمسا ، وأوشك أن يطوى اسم أسد الدين أيضا بين أشعته التى تبهر الأبصار .

سيذهب أسد الدين ويعود إلى بلده عما قليل ، ولن يبقى إلا شاور . أما العاضد فإن لم يخلع اليوم فسيخلع غدا ، ولن يعود إلى طغيانه على أى حال .

هذا ما كان يجول فى أذهان عامة الناس إذ ذاك . وما تتحرك به ألسنتهم فيما بينهم ، وهم لا يعلمون ما يدور فى الخفاء بين هؤلاء الأبطال الثلاثة ، ولا مايحاك أويدبر حولهم من الدسائس والخطط فيما وراء حدود البلاد .

هذا العاضد قد اتصل بأسد الدين سرا عقب العرس بأيام ، فشكا إليه من تبذير شاور فيما أنفق على عرس ابنه من أموال البلاد ، وجعل يشككه فى قدرته بعد ذلك على دفع ماالتزم به من المال لنور الدين .

وهذا أسد الدين قد رأى حقا عليه بمقتضى الاتفاق الودى بينه وبين شاور ، فكاشفه بما قال العاضد فى حقه ، فأكد له شاور أنه سيحبط دسيسة العاضد ويكذب بفعله ما زعم ، وأن الخير كثير ، والمال المطلوب منه على طرف التمام حالما يريد ، ثم مضى فأحضر إليه ثانى يوم ثلاثين ألف دينار نفقة الحملة ، حسبما تعهد به لنور الدين ، أما ثلث الخراج فإنه يستأنيه ريثما يتم جمع الحصاد وضبطه ، إلا إذا تفضل نور الدين فنزل عنه لأهل مصر ، فعهده بنور الدين سخى النفس، طلق اليدين :

قال له أسد الدين : « أما هذا يا أبا شجاع فلا .. لن يرضى نور الدين أن ينزل عما اشترط عليك ...

ـ لو استغنى عن أخذ ذلك لكان أفضل له وأكرم حتى لا يقال إنه إنما أنجد مصر حبا في المال ، ونحن نعلم خلاف ذلك .

ـ إنك تعلم يا شاور أن نور الدين لايعنيه المال فى شىء إلا من حيث يستعين به على الجهاد فى سبيل الله ، وبلدكم أغنى من بلده وهو أحوج إلى المال منكم ، وأنتم ترونه واقفا فى وجه العدو يجالدهم وحده عن دياركم وسائر ديار العرب والمسلمين ، فما أحراكم أن تعينوه على ذلك ولو لم ينجدكم بهذه الحملة ، فما بالك وقد اتفقت أنت معه على ذلك ..

ـ إنى لعلى عهدى له يا أسد الدين وإنما أريد أن أستوهبه ذلك ..

ـ إذن تستوهبه مالا يملك .. هذا ليس حقه بل حق الجهاد ..

ـ إنى والله لا أضن على نور الدين بشىء : فلو كان يأخذ ثلث الخراج هذه السنة فحسب لكان هينا . أما أن يبقى ضريبة كل عام

فإني أخشى ألا أستطيع أن أقنع الناس هنا بقبوله ، وأنتم تعرفون حال العاضد معي وتحفزه على ...

فأطرق أسد الدين قليلا ثم قال : « إني أعرف نية نور الدين ، فليس المال عنده إلا قوة للحرب ، ونحن نرجو أن تشتركوا أنتم منذ اليوم فى جهاد الفرنج من ناحيتكم ، وبذلك تقومون بما عليكم ، فلا يجد نور الدين بأسا إذا منعتم المال الذى اشترطه ، بل لعله يتقدم من تلقاء نفسه فيحلكم منه » .

وهذا العاضد قد اتصل بعد ذلك بشاور أيضا فى السر فقال له : « قد بلغنى ما دار بينك وبين أسد الدين فأرضانى ذلك منك لحرصك على أموال البلاد ، وإذا كان نور الدين يطمع فى مالنا ، فأى فرق بينه وبين أعدائنا الفرنج ؟ ... ثم قال له فى نهاية الحديث : « على كل حال يمكنك التحلل من ذلك الشرط ، لأنك أمضيته عن نفسك وأنت خارج الحكم » .

وانصرف شاور دون أن يبدى للعاضد أى موافقة أو اعتراض ، ولكنه أطال التفكير فيما سمع منه ، ثم لم يشبأ أن يفضى به إلى أسد الدين فكتمه عنه فكان ذلك أول الوهن .

ولم تمض على ذلك غير أيام معدودة حتى اتصل بشاور رجل اختلى به فإذا معه كتاب خاص من « مرى » ملك الفرنج ، هذا نصه بعد الديباجة :

« إننا قادمون إلى بلدكم لمحاربة جيش نور الدين المقيم عندكم ، ولا غرض لنا فى محاربتكم أنتم ولا فى احتلال بلدكم ، فإن خليتم بيننا وبينهم ، ولزمتم الحياد حمدنا لكم ذلك وانسحبنا من أرض مصر بعد

أداء مهمتنا ، وإلا اعتبرناكم أعداء وقاتلناكم معهم وملكنا بلادكم بحد السيف ، ونحن واثقون بالنصر ، فقد أعددنا جيشا عظيما لذلك ، وانضم إلينا خلائق كثيرة قدموا إلينا من مختلف بلاد أوربا وسواحل البحر المتوسط ليحاربوا نور الدين فسنشغله بهؤلاء عن إنجاد جيشه الصغير الموجود عندكم ، فاختر لنفسك يا شاور ما يحلو لك .. إما الحياد وصداقتنا وإما القتال وعداوتنا ، ولا شك أنك ستختار ما فيه المصلحة لك ولوطنك . وقد بعثنا مع رسول آخر نسخة من هذا الكتاب خاصة بالخليفة العاضد سيسلمها إليه حين يكون جوابك الرفض لعرضنا هذا أما إذا قبلت ، فلن تسلم إليه ، وقد بدأنا بك لمزيد ثقتنا فيك وفى حكمتك وقوتك .

حاشية :

إذا لم يعد رسولنا هذا إلينا حملناك تبعة اغتياله ، فسنطلبك حينئذ ولن تنجو منا مهما اعتصمت ، وأينما هربت ، ولو إلى أقصى الدنيا ، وحاشاك أن تفعل ذلك ، ولكن قد أعذر من أنذر .

حاشية أخرى :

فى حالة القبول لا حاجة بك إلى كتابة الرد ، ويكفى أن تشافه الرسول .

وبعد أن فرغ شاور من قراءته ، أطرق قليلا ، ثم طوى الكتاب وقال للرسول : « اذهب إلى من أرسلك قل له إننى سأنظر فيما فيه مصلحة بلدى » . واكتفى الرسول بذلك وانصرف .

واضطرب فكر شاور بعد انصراف الرسول ، وهم أن يبعث خلفه من يلحقه ليعيده إليه ولكنه وقف مترددا ، فلم يفعل شيئا ثم تمتم لنفسه : قد فات الأوان !

ثم جلس براجع نفسه فيما فعل ، فأحس بشيء من الندم ، وهم بأن ينطلق من ساعته فيطلع أسد الدين على الكتاب لينذره بـه . غير أنه لم يلبث أن استخف هذا الرأى لما قد يثيره على نفسه من الريبة عند أسد الدين ، وأخرج الكتاب فاستعاد قراءته . ووقف مليا عند الحاشية الأخيرة . فسكن جأشه وقال لنفسه : إنى ما خسرت شيئا فما زال زمام الأمر فى يدى ، وأنا بالخيار غدا إن أقبلوا فإما أقاتلهم مع أسد الدين وإما .

وهنا اعترته رجفة ، فلم يكمل جملته .

وتشجع ثانى يوم ، فلقى أسد الدين ليرى إن كان قد رابه شيء من أمره ، فلم ير من أسد الدين غير ما يعهد فيه من البشر والإيناس ، ولم يسمع منه غير الشكوى التى يرددها من تأخر جواب نور الدين إليه وملله من طول الانتظار . فاطمأن شاور وتبسط معه فى الحديث .

ـ يا أسد الدين ألا تكف عن تذمرك وشكواك .. فيم تتعجل العودة إلى الشام ؟

هل رأيت منا تقصيرا فى حقك وحق رجالك ؟

ـ كلا يا أبا شجاع .. لقد قمتم بالواجب وزيادة .. ولكن رجالى ملوا الإقامة فى الخيام .. واشتاقوا إلى لقاء أهليهم ، وأنا أريد أن أعرف ماذا يأمر نور الدين لأتصرف فى شأنى وشأنهم بمقتضاه .

ـ لا تقلق كثيرا فسيأتيك جواب نور الدين وشيكا ، وآمل ألا يستعجل عودتكم لنستمتع بوجودكم بيننا مدة أطول .

فقال له أسد الدين فى دعابة لطيفة محببة : « آه منك يا شاورو من مكرك ! إنما تريد ذلك لتؤجل دفع ما عليك من ثلث الخراج » .

فتضاحك شاور قائلا : « إنك يا أسد الدين لايفوتك شيء أبدا .. أجل إنى أريد الحسنيين معا طول صحبتك وتأجيل الدفع » .

وقهقه أسد الدين ضاحكا ، ثم قال له وهو يتلفت حوله : « اسمع يا شاور نكتة تضحكك .. الحمد للّه .. ليس هو الساعة بيننا ... »

ـ من هو ؟

ـ يوسف ابن أخى .. أتدرى ماذا يقول عنى ؟ يزعم بسلامته أنى طيب القلب سهل الانخداع ...

وانفجر الاثنان يضحكان .

ثم قال شاور : « لابن أخيك عذره يا أسد الدين ، فإن مظهرك يخدع عن مخبرك » .

ـ لكنى أحبه كثيرا يا أبا شجاع .. إنه بطل وسيكون له شأن !

٢

وذات صباح ورد جواب نور الدين بعد طول انتظار ، فتلقاه أسد الدين فرحا يفضه بيد مرتعشة من شدة التوق إلى الاطلاع على ما فيه ، ولكنه لم يكد يتصفحه حتى غاض الفرح من وجهه وحل محله الاهتمام الشديد ، فقد ورد فى الكتاب أن الفرنج يجمعون جموعهم ويعدون العدة لدخول مصر ، فعلى أسد الدين أن يقاتلهم دونها كما يقاتلهم فى الشام وأشد ، وأنه ما أرسل الحملة لخلع وزير وإعادة وزير ، بل الغرض الأول تأمين مصر وحمايتها من يد العدو ، ثم أنذره فى آخر الجواب بأنه يرتاب فى وجود صديق للفرنج بمصر . فعلى أسد الدين أن يأخذ حذره .

واستدعى شاور ، فأطلعه على الجواب ، وكان صلاح الدين يرقب شاور من بعد ليرى أثر الكتاب فيه ، فإذا شاور يستبعد أن يكون للفرنج صديق فى مصر ، فلما راجعه أسد الدين فى ذلك أستدرك ، فقال : « إن جاز أن يكون لهم صديق هنا ، فهو العاضد » .

ولما انصرف شاور أخذ صلاح الدين يشكك عمه من ناحية شاور قائلا : إنه لمح أثر الريبة فى وجهه فى أثناء قراءة الكتاب ، ثم فهم ذلك من كلامه أيضا ، فحار أسد الدين وداخله الارتياب .

ورأى أن يستشير صديقه أبا الفضل الحريرى فأرسل يستدعيه سرا إليه ، فلما سمع أبو الفضل ذلك قال : « كلا يا أسد الدين ، محال أن يفعل ذلك شاور ، إنه قد يماطل فى المال لأنه يحبه حبا جما ، ويطمع أن يسقطه نور الدين عنه ، أما الخيانة مع الفرنج فمعاذ الله أن يقع فيها شاور ، التمسوا ذلك إن شئتم عند هذا الصنم الذى لم تشاءوا حتى اليوم أن تخلعوه على شدة إلحاحنا عليكم بذلك » .

فقال أسد الدين : « ويحك يا أبا الفضل ! ما عندنا أمر من نور الدين بخلعه ، ولكن إذا ثبت أنه كاتب الفرنج خلعناه فى الحال » .

واتصل أسد الدين بشاور ليستطلع رأيه فى الخطه المثلى لمواجهة الفرنج إذا أقبلوا ، وكان شاور قد فكر فى ذلك واستعد بالجواب ، فقال لأسد الدين : « إن الفرنج قادمون لقتالكم أنتم وسيطلبونكم حيث كنتم ، فعليكم أن تنتظروا فى مكانكم حتى يقتربوا ، وحينئذ تتحرك بجيشك إلى حيث تضع العدو بين جيشك وجيشى فنحدق به من كل جانب وننقض عليه » .

- أليس خيرا من ذلك أن نسير إليهم فنلقاهم بعيدا عن العاصمة ، حتى إذا كسرونا فى معركة وجدنا خلفنا ظهرا نحتمى به فنعاود الكرة عليهم ؟

- ربما يكون هذا أفضل لو استطعنا أن نطمئن إلى الظهر الذى نتركه هنا فى القاهرة .

- تعنى العاضد ؟

- نعم ..

ثم عقد أسد الدين اجتماعا من كبار رجاله ، فبسط لهم خطته ، ثم عرض عليهم خطة شاور ليقروا أى الخطتين أمثل ، فاحتفلوا بين مؤيد لهذه ومؤيد لتلك ، وكان صلاح الدين أجهرهم صوتا فى معارضة الخطة التى اقترحها شاور ، قائلا : إنه ما اقترحها إلا لأمر .

قالوا له : مادليلك على هذا ؟

- ما عندى الدليل الذى تطلبون ، ولكن شاور يزعم أنه متخوف من خيانة العاضد فقد ثبت أن فى العاصمة صديقا للعدو ، قد يكون العاضد ، وقد يكون شاور نفسه ، فإن يكن شاور ، فلا ريب أنه أراد أن يكيدنا بخطته ، وإن يكن العاضد فلن يعجزه أن يحدث حدثا حين يرى أصدقاءه قد صاروا على أبواب القاهرة إذ لن يعدم من الجيش من ينشق بهم على شاور .

قال الحارمىّ مؤيدا كلام صلاح الدين : « قد فاتك يا يوسف احتمال ثالث لهذين الاحتمالين ، فلم تذكره » .

- كلا ما فاتنى يا خالى ، ولكنى اكتفيت بهما عنه .

قال أسد الدين : ماذا تعنيان ؟

فأراد صلاح الدين أن يترك الجواب لخاله الحارمىّ ، ولكن الحارمىّ أومأ إليه أن يجيب هو فقال : « إنها ثالثة الأثافى يا عمى : أن يكون صديقهم العاضد وشاور معا مجتمعين !

وعندئذ صاح أسد الدين معجبا : « لله درك يا ابن أخي ! » فنظر إليه الحارميّ كأنما يقول له : « ليس هذا من جهة أبيه بل من جهة أمه ! : » .

وأدرك أسد الدين ذلك فطامن من زهوه ، والتفت الحارميّ إلى صلاح الدين يقول : « إنك إذن تؤيد الخطة التي اقترحها عمك ... »

ـ نعم فهي الخطة المثلى :

ـ ما غزى قوم في عقر دارهم إلا ذلوا !

ـ أجل ، ولأننا نستطيع بها أن نكشف نية شاور قبل أن يقع المحذور ، ثم إننا سنكون أقرب إلى حدود الشام وأيسر على نور الدين أن ينجدنا عند اللزوم .

وما أتم صلاح الدين كلامه حتى اقتنعوا جميعا ، فاجتمعوا على الأخذ بهذه الخطة ، فشرعوا يتأهبون للمسير .

وعلم شاور ، فأقبل يناقشهم في الأمر مدافعا عن خطته محاولا إقناعهم بها ، ولكن أسد الدين أفهمه أنهم قد أجمعوا على هذا القرار . فلا سبيل إلى العدول عنه . فالتمس من أسد الدين أن يكلمه على انفراد ، فلمّا اختليا قال له :

ـ إذن فدعنا نتخلص من العاضد اليوم أو نعتقله .

ـ اليوم ، والعدو على الأبواب ؟ كلا يا شاور لا أوافق على هذا أبدا . لتكونن فتنة في البلد ..

فأطرق شاور قليلا ثم قال : « إذن فسأرى ماذا نستطيع أن نصنع لكم ، أما أنا فليس في وسعي أن أبرح العاصمة لأدع العاضد يكيد لي ولكم .

قال له أسد الدين ، وقد عاد إليه بعض ثقته بشاور لما سمعه يقترح التخلص من العاضد : ابق إذن فى العاصمة ، وامددنا بالرجال والمؤن وسنكفيك العدو إن شاء الله » .

فلاح الرضا فى وجه شاور ، وقال : « الآن وجدنا ما نريد ، نهزم العدو ونأمن جانب العاضد » .

٣

وسار أسد الدين بعسكره ميمما شطر بلبيس ، فلما أشرف عليها بلغه أن الفرنج قد بلغوا فاقوس فى جمع أكبر كثيرا مما قدر من قبل ، فرأى أن يتوقف عند بلبيس ، فعسكر خارجها فى انتظار المدد من شاور وأبرد عليه يستعجله .

وقد فزع أهل بلبيس مما سمعوا من قدوم الفرنج ، فخرج وفد منهم يعرضون على أسد الدين العون والمؤن ، فشكرهم وأخبرهم بأن المدد سيأتيهم من القاهرة فلاخوف عليهم .

ومضى يوم ثم يوم ، ولما يأت خبر من شاور ، فلم يجد أسد الدين بدا من أن يتحصن داخل المدينة ليرتفق بما فيها من المؤن ، ولأنه خشى أن يسبقه الفرنج إلى احتلالها ، وقد وجد من أهلها ترحيبا ، فلم يتردد .

وتطوع أهلها من كبار وصغار ورجال ونساء ، فأخذوا يعملون مع رجاله ليلا ونهارا فى تحصين أسوار المدينة ونصب المجانيق عليها وحفر الخنادق حولها . وقد أدركوا أن هذا الجيش الصغير لن يقوم لجموع الفرنج ، فلم يفت ذلك فى عضدهم إذ رأوا من شجاعة أسد الدين ورجاله واستقامتهم واندماجهم مع الصغير والكبير ، ما ألهب حماستهم للذود عن الدين والوطن وهم يأملون بعد فى وصول الإمداد من القاهرة .

وأقبل الفرنج فأحدقوا بالمدينة وحاولوا اقتحام أسوارها ، فجعلت السهام تنطلق إلى أفرادهم فتغوص فى أكبادهم ، والمجانيق تقذف

صخورها على جماعاتهم فتهشمها تهشيما ، والحفر المستورة فى كل مكان تتربص للمتهورين منهم ، حتى إذا أحست مس أقدامهم ، فغرت أفواهها فإذا هم فى أحشائها لحم أحمر شهى !

ولما أخفقت محاولاتهم لاقتحام المدينة وكثر منهم القتلى ، قرروا أن يحاصروها ليضطروا أسد الدين إلى التسليم حين ينفد القوت منها ، فيضيق أهلها ذرعا به وبرجاله ، فضربوا خيامهم صفوفا صفوفا حول المدينة ، فكأنما قامت مدينة جديدة من الخيام ، تتوسطها خيمة حمراء نزل فيها قائدهم مرى ملك بيت المقدس ، وقد وطن نفسه على المقام لحصار طويل .

وكانت المناوشات تجرى بين الفريقين متفرقة هنا وهناك ، عند أبواب المدينة أو حول أسوارها ليحول الفرنج دون وصول المدد إلى أهلها . أو ليحول أهلها دون دخول الفرنج إليهم ، فإذا كان الليل تهادن الفريقان ، فلزم الفرنج خيامهم وسكنت المدينة إلا ما يكون من حراسها المرابطين على الأسوار .

وكان أسد الدين قد أيس من نجدة شاور وتحقق أنه قد خان ، فوطن نفسه على الصبر لحصار طويل . ولذلك اهتم بضبط الأقوات والمؤن فى المدينة لسد حاجات أهلها أطول مدة ممكنة ، وأوصى جيشه فتقشفوا وتبلغوا بالقليل ، وكان هو فى ذلك قدوة للجميع .

وكان ينام قليلا بالنهار ويبيت طول الليل ساهرا ينتقل فى الأسوار يتفقد الحراس ويرقب خيام العدو من بعيد .

وسمع ذات ليلة جلبة عظيمة من ناحية العدو تردد صداها فى سكون الليل وظلامه ، ونظر فرأى المشاعل تضطرب بين خيامهم وسمع تصهال خيولهم ، فنبه رجاله فاستعدوا لمواجهة ما يطرأ ، وقد ظنوا أن الفرنج سيهاجمونهم بالليل ، ولكنهم مالبثوا أن سمعوا حركة الخيول تبتعد كأنها

انطلقت لتطارد قوما أغاروا عليهم ثم فروا ، فسكن جأشهم واطمأنوا ، ولكن زاد تشوقهم لمعرفة ما حدث .

وتطوع نفر من أهل المدينة فتسللوا من الأسوار وانطلقوا إلى بعض القرى المجاورة ليستطلعوا الأخبار ، ثم رجعوا فى الليلة القابلة يروون نبأ عجبا : إن جماعة من الفتيان المصريين قد انقضوا على بعض جنود الفرنج وهم نيام فذبحوهم ثم ولوا فرارا تحت ستار الليل .

وتكرر هذا الفعل ليلة بعد ليلة ، ورجال أسد الدين يرقبون ذلك من الأسوار وهم جذلون مستبشرون ، إلى أن انقطع ذات ليلة ، فلم يعد بعد ما استمر خلال نصف شهر أو أكثر ، فأسفوا واكتأبوا ، ثم علموا بعد ذلك أن الفرنج قد ظفروا بالجماعة واحدا بعد واحدا فقتلوهم إلا قائدهم ، فقد استبقوه أسيرا بينهم .

٤

ولم يكن ما بلغ أسد الدين من نبأ جماعة الفتيان المغاوير صحيحا كله ، وإنما استشهد بعضهم وتفرق الباقون بعد وقوع قائدهم فى أسر العدو .

أما ذلك القائد الأسير فقد سيق فى الصباح إلى خيمة « مُرى » ملك الفرنج ، فلما مثل أمامه . وقف منتصب القامة مرفوع الهامة ، يبدى تجلدا غير أن وجهه الشاحب ينبىء عما يطوى بين جوانحه من أسى دفين .

قال له مرى وهو يقلب رسائل بين يديه : « أيها الشاب .. ما حملك على ما فعلت وأنت ابن صديقنا شاور ؟

فأجابه شجاع بصوت أعلى مما يلزم لإسماع مخاطبة : « كلا .. لم يكن شاور صديقا لكم ولن يكون » !

ـ ويلك ! أحقا تجهل ذلك ؟

ـ بل أعلم علم اليقين أنه ليس كما تظن .. أنتم عدو المصريين جميعا من أصغر صغير فيهم إلى أكبر كبير ، فما بالكم بوزيرهم ؟

فنظر إليه « مرى » متعجبا ثم قال : « هل تعرف خط أبيك وتوقيعه ؟

فاضطرب شجاع قليلا وارتعش صوته وهو يقول : « نعم » .

ـ خذ هذه الرسالة إذن وانظر إليها .

ونشرت الرسالة أمام شجاع ، فاضطربت عيناه بين سطورها ، ولاح فيهما الذبول والانكسار ، ثم لمعتا لمعانا عجيبا كأنهما جمرتان متقدتان ، فحملق بهما إلى وجه الملك وقال : « أيها الملك إن الحرب خدعة . وقد خدعك شاور بما كتب إليك ليشغلك هنا بحصار هذه المدينة المنيعة حتى يستعد لكم فيطويكم طيا .

فأطرق الملك لحظة ثم قال له : « علام إذن جئت أنت وجماعتك لقتالنا قبل أبيك ؟.

ـ غلبنا الشوق إلى قتالكم .. فلم نستطيع أن ننتظر ...

ـ إن كنت صادقا فيما تزعم .. فلم كشفت لنا خطة أبيك ؟ أأردت أن تحبطها ؟

ـ نعم .. لأنى على يقين أننا منتصرون .. وإنكم مهزومون .. ولو لم يلجأ أبى إلى هذه الخدعة . فإن كنت شجاعا فتقدم بجيشك صوب العاصمة .

ـ لو أردت لفعلت ، ولملكت القاهرة عنوة ..

ـ هيهات .... !!!!

وضاق « مرى » بحواره ، فأمر بحبسه حيث كان ، وكتب إلى شاور يعلمه بما حدث من ابنه ، ويستوضحه حقيقة نيته ، فرجع الرسول بجواب شاور يستنكر ما وقع من ابنه ويؤكد بقاءه على العهد ، ويتوسل إليه أن يبعث بابنه إليه ليعاقبه على فعله ويرجعه عن غيه ، وهم « مرى » أن يجيبه إلى طلبه ، لو لم يشر عليه رجاله بأن يبقيه رهينة عنده ، ليضمن وفاء شاور بعهده ، فاستصوب رأيهم .

واستمر الحصار شهرا بعد ذلك ، فكمل ثلاثة أشهر ، وقد اشتد الضيق على أهل بلبيس ، وكاد ينفد صبرهم من قلة القوت ، وشدة الجهد ، وحار أسد الدين فيما يفعل حتى هم أن يخرج إلى العدو فينازل جموعهم بجيشه الصغير ، وليقض الله ما يشاء ، فلأن يموتوا جميعا كراما شهداء خير من ذل التسليم للعدو .

وإنه لكذلك إذ جاء الفرنج من حيث لا يحتسب . هذا رسول أقبل من عند الفرنج يحمل علما أبيض .

ـ ترى ماذا يبغون ؟ افتحوا له الباب وائتونى به مكرما .

وقد اختار أسد الدين أن يستقبل الرسول فى خيمة نصبت له بقرب باب المدينة ، لئلا يشهد رسول العدو مابها من الشدة والجهد .

رفع الرسول خوذته وانحنى محييا لما دخل ، ثم سلمه رسالة ملك الفرنج ، فلما قرأها أسد الدين عجب وسر فى الباطن ، غير أنه اجتهد أن يخفى سروره فتصنع قلة الاكتراث ، وناول الرسالة لأصحابه ثم قال : « قد توقعت أن تطلبوا الصلح آخر الأمر ، ولكنى كنت أظنكم تصبرون مدة أطول من ثلاثة أشهر ، فإنى رتبت أمورى لمواجهة حصار عام كامل .

ـ سيدى القائد .. إن مولاى الملك لا يستجدى الصلح منكم ، بل يعرضه عليكم . وليس الصلح الذى يريده صلح ضعف وعجز ...

ــ أى صلح يريد ؟ إنه لم يبين ذلك .

ــ إنه فوضنى أن أشرحه لك إذا قبلت .

ــ هات ما عندك ..

ــ سأحدثك عن الباعث أولا لتعرف منه أساس هذا الصلح : إننا ماجئنا لقتال المصريين بل لقتالك أنت وجماعتك ، ولكنا وجدناك اعتصمت بهذه المدينة فحصرناها لتبرز إلينا فلم تفعل وآثرت أن تجهد أهلها المساكين معكم حتى يموتوا من الجوع دونكم . وقد رثى ملكنا

وقائدنا لهؤلاء الذين لاذنب لهم فرأى أن ينزل من أجلهم عن نصر محتوم محقق فى المستقبل القريب أو البعيد ..

فتنحنح أسد الدين وقال : « نحن والمصريين شىء واحد ، يجمعنا الجنس واللسان والوطن والدين ، ثم يجمعنا العدو الدخيل الذى هو أنتم . وأنا وجماعتى ماجئنا كذلك إلا لقتالكم وتحصين هذا الوطن العربى منكم ، أما بلبيس فما دخلناها إلا برضى أهلها وطلبهم . وقد أعانونا بكل ما يقدون فى سبيل الله لا فى سبيلنا ، فليحتفظ ملككم « مرى » برثائه وبكائه لأولئك الذين لقوا مصارعهم منكم والذين تنتظرهم مصارعهم بعد فى الرمال . فالنصر محقق لنا لا لكم ، وكأنى بالمدد من نور الدين قد جاء اليوم أو غدا ، وإذن فلن ينجو منكم رجل واحد ليروى الكارثة لأصحابه .

قال الرسول : « رويدك يا سيدى القائد ! إنى رسول صلح لا رسول خصام . وإنما ذكرت الباعث لأخلص منه إلى أساس الصلح ، وهو أن نجلو نحن وأنتم عن البلاد ونتركها لأهلها .

ـ هذا يحتاج إلى موافقة أهل مصر ..

ـ قد وافق الوزير شاور عليه .. وما جئنا نعرضه عليك إلا بعد اتفاقنا معه ..

فاتقد قلب أسد الدين غضبا عند ذكر شاور ، ولكنه تجلد ليخفى مافى قلبه .

ـ لابد من حضور مندوب عنه .

ـ قد حضر مندوبه منذ أمس ... فهو عند ملكنا وسيشهد الاتفاق .

وبعد يومين ترددت فى خلالهما الرسل بين أسد الدين « ومرى » ثم عقد الصلح بينهما ، فرحل الفرنج أولا بمقتضى الشرط الذى اشترطه أسد الدين . وبقى أسد الدين ستة أيام يواسى أهل بلبيس ويجاملهم بالتنقل فى بيوتهم زائرا شاكرا ، ثم ودعوه بعيون دامعة يوم رحل ، ولم

يعلم إلا فى طريقه إلى الشام أن نور الدين هو الذى استطاع بتدبيره فى الشام أن يفك الحصار عن بلبيس ، فقد سير حملات عنيفة هاجمت حصون الفرنج بالساحل والداخل حتى استولت على بعضها فروعهم واضطرهم إلى عقد الصلح فى مصر ليفرغوا لنور الدين بالشام .

٥

أما شجاع قائد الفتيان المغاوير ، وأسير الفرنج فقد أطلقوا سراحه قبل رحيلهم ، وسلمه ملكهم « مرى » إلى مندوب أبيه ليرجع به إلى القاهرة .

وكان أسد الدين قد رغب فى لقائه بعد ما عرف أنه هو ذلك القائد الأسير ، فأرسل فى طلبه فاعتذر شجاع ولم يقبل ، وجعل يتوارى عن الناس ، ولا يكلم أحدا منهم ، فقال أسد الدين لأصحابه : « إن الفتى خجل أن يلقانى مما فعل أبوه » !

غير أنه قال لمندوب أبيه لما آذنه بالرحيل : « ارجع أنت قبلى وسألحق بك .

قال المندوب : إنى سأنتظرك .

فغضب شجاع غضبا شديدا ، وقال له : « ويلك ! ماشأنك بى ؟ أتريد أن تعتبرنى أسيرك ؟ » .

فلم يجد المندوب بدا من تركه ورحل .

ومضى شجاع يجاهد نفسه ، ويدفع جسمه دفعا حتى دخل مدينة بلبيس ، والناس ينظرون إليه متعجبين ويتهامسون فيما بينهم : « هذا قائد الفرقة .. هذا ابن شاور ... » فلا يكلمهم ولا ينظر إليهم ، وإنما اتخذ سبيله أمما إلى حيث رأى جماعة من جيش أسد الدين ، فسألهم أن يصلوه إلى قائدهم .

وحفى أسد الدين به وأحسن لقاءه ، فأجلسه بجانبه ، وقال « للّه درك يا شجاع ! لقد بيضت وجوهنا » .

فانبرى صلاح الدين يقول : « أجل ، وياليته استطاع أن يبيض وجه أبيه ! » .

فنظر إليه عمه نظرة عاتبة .

ـ دعه يا أسد الدين ، فقد قال خيرا ، إذ تمنى لى أفضل ما تتمناه نفسى :

قال شجاع ذلك ، وتقلصت قسمات وجهه حتى أشفق الحاضرون أن يغلبه البكاء ، ولكنه مالبث أن تملك فانبسطت أساريره وهو يقول : إنى جئت يا أسد الدين لأشير عليك برأى ، فهل تقبله منى وإن كنت ابن شاور ؟ » .

فأجابه أسد الدين وقد جاشت الرقة فى قلبه حتى بلغت ذروتها : « نعم ، يابنى وكرامة عين ! قل ما عندك » .

ـ إن الأمر يا سيدى أعظم مما بينك وبين شاور ، وما ينبغى أن تعود هكذا إلى الشام وبينك وبينه هذه القطيعة ، حتى تزيلها وتصلحها لخير البلد وأهله .

ـ ولكن كيف السبيل إلى ذلك ياشجاع ؟ وأنت تعلم أن أباك هو الذى نقض العهد .. ولولا إشفاقى عليك لقلت خان !

ـ معاذ اللّه يا سيدى أن تظن به الخيانة .. ولكنه اجتهد فأخطأ وما هو إلا بشر يخطىء ويصيب .

فتعجب أسد الدين وأطرق مليا ثم التفت إلى أصحابه قائلا : « ماذا ترون فيما يقول هذا الشاب الكريم ؟ » وأومأ إلى صلاح الدين أن دع القول لغيرك .

فنظر بعضهم إلى بعض ثم انبرى الفقيه عيسى الهكارى يقول : إن اللّه لا يستحى من الحق ، وشاور قد غدر بنا وتواطأ مع عدو الإسلام

والمسلمين فسجل على نفسه الخيانة السافرة .. هذا مبلغ علمنا فإن كان عند هذا الشاب الكريم برهان على خلاف ذلك فليقل له ماذا قصد أبوه بما فعل ؟ » .

ـ أحسنت يا سيدى الفقيه .. هذا ما أردت تبيانه لكم .. إن شاور كان و لم يزل ينوى التعاون مع نور الدين على قتال الفرنج ، وكان يريد تنظيم ذلك على أساس ثابت بعد أن يستقر له الأمر فى مصر ، ولكن الفرنج باغتونا قبل أن يستعد لذلك فخشى أن يغلبوكم ويغلبونا فيستولوا على مصر ، ويعسر إخراجهم منها ، كما تعسر إخراجهم من بلاد الشام ، فرأى أن يخدعهم هذه المرة عن حقيقة قصده ليصرفهم عن البلاد . ثم يجاهدهم بعد ذلك متحالفا معكم فى خطة واحدة .

قال أسد الدين : « ولكن هل يليق به شجاع أن يعدنا بالمدد ثم يتركنا ثلاثة أشهر فى أشد الحصار ندافع الأعداء من مدينة من مدن مصر ، ووزير مصر قاعد فى العاصمة يتفرج علينا ؟ » .

ـ أشهد لقد هم يا سيدى أن ينجدكم لما بلغه نبأ الحصار ، ولكنه عدل حين علم أنكم فى منعة ، وأن العدو لم يبلغ منكم شيئا ، وأعلم أن ذلك خطأ منه جسيم .. قولوا ماشئتم فى ذلك إلا أن تصموه بالخيانة ...

ــ أفما ناقشت أباك فى ذلك يا شجاع ؟

ــ بلى يا سيدى ، ولكنه صلب الرأس إذا اقتنع بشىء صمم عليه فلم يقدر أحد أن يثنيه عنه ..

ــ كأنك حضرت هنا بغير مشورته ؟

ــ أجل أردت أن أحمل الفرنج على محاربته ، وإذن لحاربهم بكل ما أوتى من قوة وبسالة ..

و لم يتزحزح أسد الدين عن رأيه فى خيانة شاور ، ولكنه لم يشأ أن يجرح ابنه الطيب فى شعوره إذ مضى فى مناقشته :

– وماذا تقترح علينا أن نصنع ياشجاع ؟

– لو عدتم معى إلى القاهرة لتسمعوا اعتذاره ، بأنفسكم ثم تتفقوا معه على شيء بصدد محاربة الفرنج فى المستقبل .

– ليس لنا أن ننقض العهد الذى أمضيناه بمغادرة البلاد .

– فانتظروا هنا حتى أجيء به إليكم ..

قال له أسد الدين فى عطف بالغ : « ويحك يابنى ! إن أباك يكره أن يلقانا ويريد أن يتحلل ما التزم به لنور الدين من ثلث الخراج ...

– لا بأس أن تنتظروا حتى تروا ما يكون من أمره .

– كلا يابنى ، لابد أن نعود إلى نور الدين فى الحال لنرفع إليه ما حدث فيرى رأيه فيه .

وهكذا انصرف شجاع من عنده بقلب كسير ، وقد حدثته نفسه فى الطريق أن يعود ليذهب مع أسد الدين إلى الشام ، حتى يشرح لنور الدين عذر أبيه عسى أن يقبله فيعود الصفاء بينهما ، ولكنه تذكر زوجته الحبيبة وما تعانيه من قلق عليه ، وهزه الشوق إلى لقائها بعد فراق شهرين طويلين ، فمضى يخب به جواده صوب القاهرة – لابل صوب دارها بالفسطاط !

٦

وهذه سمية فى دار أبيها بالفسطاط فى هم وقلق ، وإنها لتخفى من ذلك أضعاف ماتبديه :

ترى ما حال حبيبها الآن ؟ وهل يعود ؟ ومتى يعود ؟

لقد بلغها أنه لم يقتل ، وإنما وقع فى الأسر ، ثم بلغها أن ملك الفرنج أبقى عليه من أجل أبيه ، وإنما احتفظ به رهينة عنده ، ثم بلغها آخر الأمر أنهم سيطلقون سراحه بعد أن يعقدوا الصلح مع أسد الدين .

ولكن قلبها بقى على حاله دائم الوجيب ، ولكن قلقها لم يزل يزلزلها بياض النهار ويقلقها سواد الليل .

إنها لتذكر يوم خرج من عند أبيه ضحى وهو دامع العين كسير القلب ، فأسرع إليها فى حجرتها ، وارتمى فى حجرها يبكى وينتحب ، فلما سألته ما خطبه ، قال لها والعبرة تخنقه : « أبى ياسمية .. سيجعل الناس يقولون عنه إنه خائن ! » ثم مازالت به تواسيه وتهون عليه حتى سكن جأشه ورقأ دمعه ، فما كان أجمله وهو ينظر إليها مبتسما ابتسامته الساحرة وبقايا الدمع تتلألأ فى عينيه !

وإنها لتذكر يوم أقبل إليها بعد ذلك بأيام باسم الثغر منشرح الصدر . يكاد يخرج من إهابه جذلا ومرحا ، فطفق يعانقها ويقبلها تارة في الرأس وتارة فى الوجه وتارة فى صفحة العنق ، كأنه ثمل ، فقالت له : « ماخطبك اليوم ؟ .. أأنت مخمور ؟ قال لها : « نعم أنا مخمور ياسمية من غير ما يغضب اللّٰه .. إنى قد اهتديت إلى ما أحمل به أبى على قتال الفرنج مع أسد الدين . » فلما سألته : كيف ؟ همس فى أذنها : « صه ، لا تبوحى بهذا السر لأحد » ، وطبع على فمها قبلة ثم قال : « هأنذا قد ختمت هذا الفم الصغير على السر الخطير ! » .

ويوم جاء يودعها غداة رحيله ، فوقف أمامها بين التجلد والجزع فى حالة عجب ، فكأنما كان يستنجد بشجاعته فتعينه ، ويعتمد على حبه فيخونه ، وكانت آخر كلمة قالها وهو يمسح دمعها : « ثقى يا حبيبتى أن اللّٰه لن يخذلنى أبدا وأنا أسعى فى جمع كلمة المسلمين » .

يسعى فى جمع كلمة المسلمين ...

أجل .. هذا زوجها وحبيبها هو الذى يقول ذلك ويفعل ما يقول

هذا زوجها هو الذى غاضب أباه فى سبيل اللّٰه وانطلق من ورائه ليشن الغارات على جموع الفرنج ، وليس معه إلا شرذمة قليلون .

هذا زوجها الذى يحبها أشد الحب وأعظمه حتى لا يكاد يصبر عنها لحظة ، قد رحل عنها ليلبى نداء الواجب للّه وللوطن ، ولما ينصل خضاب العرس من كفيها ومن قدميه !

هذا الأمل المنشود الذى ظلت طويلا تحلم به قد حققه اللّه فى أكمل صورة وأروعها ، لقد تزوجت بطلا يجاهد فى سبيل اللّه ، ويسعى فى جمع كلمة العرب ، فعلام إذن ياسمية تأسين ؟ وفيم تقلقين وتجزعين ؟

ــ إنى أحبه حبا ...

ــ ولكنك هكذا تحبينه أن يكون :

ـ أجل ولكنى أخاف عليه ..

ــ تخافين عليه مما يجعله بطلا كما تمنيت ؟.

ــ ليته أجل ذلك قليلا حتى يتملى قلبى منه ، وقلبه منى !

ــ إن لم يكن هكذا اليوم فلن يكون .

كذلك كانت سمية تناجى نفسها لتسكن جأشها وتثبت قلبها ، ولكن هيهات ..

كانت لاتفتأ تترقب الأنباء فى كل لحظة عسى بشير تسمعه يقول : عاد شجاع !

وزاد ترقبها حين سمعت أن الصلح قد تم بين الفريقين فى بلبيس ، وأن حبيبها يوشك أن يعود مع مندوب أبيه .

ولكن المندوب رجع إلى القاهرة وليس معه شجاع .

لك اللّه أيها البطل الحبيب ! أى شىء أخرك ؟ ومن ذا يصدقنى خبرك ؟

يقول المندوب :إنه ألح عليه أن يصحبه ، فأبى ، وسأله أن يسبقه ووعده أن يلحقه ، ليت هذا المشئوم لم يجئ ، فما زادنى بمجيئه إلا قلقا على قلق .

ومضى على وصوله يوم ثم يوم ، وهذا اليوم الثالث قد أوشكت شمسه أن تغيب وما من نبأ عن الحبيب ..

ترى ماذا جرى لك يازوجى الحبيب ؟ خشيت من غضب أبيك فلم تشأ أن تعود ؟ خجلت من صنيعه فكرهت أن تراه .؟ ولكن كيف تنسانى ياشجاع ؟ كيف تنسى سمية زوجك وحبيبتك ؟

وإنها لفى هذا البحر من القلق والحيرة ، ولم يكن فى الدار معها غير الجارية مسيكة ، فأمها تزور بعض الجيران ، وأبوها خارج البيت كعادته بعد العصر ، إذ صاحت مسيكة من عند الشباك : « مولاتى ! مولاتى ! هذا زوجك قد وصل ...

فاستحقت مسيكة حلوان البشير !

ـ أين هو يامسيكة ؟

ـ فى الفناء يربط فرسه .

وعرا سمية ما عراها من ذهول وارتباك . ماخطبها ؟ أليست فرحة ؟ بلى ! إن فرحها لعظيم ، ولكن هلا تأخر قليلا حتى تتهيأ للقائه ؟

وناداها صوت من باطنها يهديها السبيل ، المرآة ياسميه ! أسرعى إلى المرآة ، أين هى ؟ فى حجرتك ! انطلقى إلى حجرتك !

وانطلقت كالشهاب !

تعالى يامسيكة .. أنجديني يا مسيكة . ناولينى الحُلة . كلا ليست هذه .. التى يحبها زوجى .. اللازوردية .. أجل هذه .. ساعدينى شعرى ! ناولينى المشط . العطر .. قنينة العطر .. رشى على شعرى .

والعقد .. أين عقدى اللؤلؤى ؟ هاتيه ...

ونادى صوت من جهة البهو : سمية !!

هذا صوته يامسيكة ، صوته حقا .. صوت شجاع !

وخرجت تتهادى فى حلتها ..

سمية !

شجاع !

واعتنق الحبيبان هذا أسمر ضامر ، وهذه شقراء ممشوقة ، فكأنهما فيما يرى الخيال ، فارس من جيش العرب الفاتحين ، قد ضمَّ إلى صدره عروسا حسناء من بنات أقيال الروم !

٧

ودعا شجاع زوجته لتعود معه إلى مسكنها عند أهله بدار الوزارة في القاهرة ، وهمت سمية أن تطيع ، ولكن أباها عارض في ذلك ، فوقفت حائرة .

ذلك أن أبا الفضل كان قد هاله ما فعل شاور ، فكلمه في نجدة أسد الدين ، إذلا يليق الغدر به هكذا وتركه يقاتل الأعداء دفاعا عن أرض مصرية ، وأهل مصر واقفون يتفرجون ، ولكن شاور أصر على موقفه من لزوم الحياد ، وأخذ يبسط الأسباب التي تدفعه إلى ذلك ، وجعل أبو الفضل يناقشه ويشرح مافي عمله هذا من الخطر على البلاد ومن سوء الأحدوثة على نفسه ، مما قد يفضي إلى سقوط حكمه ، فيماريه شاور ويغالبه بفصاحته وقوة حجته حتى ضاق أبو الفضل ذرعا ، فقال له : ويلك يا شاور إن اللّه قد فتق لسانك ولكنه طمس قلبك ..

فقال شاور : « يا أبا الفضل ، يدك في الماء ويدى في النار ، أنت غير مسئول إذا وقعت البلاد في قبضة الفرنج ، ولكن أنا المسئول .

ــ ولذلك تحالف الفرنج على أسد الدين ؟

ــ معاذ اللّه .. ولكنى أؤجل قتالهم إلى يوم أمثل .

وهكذا أيس أبو الفضل من هداية شاور إلى الحق ، فعالنه بالقطيعة وصارحه بالعداوة ، وغالى في ذلك حتى منع امرأته من زيارة أختها زوجة شاور . وقد همت سمية إذ ذاك أن تبرح دار شاور وتلحق بأهلها لولا أنها أشفقت على زوجها الحبيب الذى تعرف سخطه على خطة

أبيه ، فبقيت هنـاك حتى رحـل شـجاع ليجـاهد الفرنـج فلحقـت هـى بأهلها و لم تستمع لرجاء أبيه وأمه أن تبقى عندهم .

وأقبل شاور يزورها فى بيت أبيها لما وقـع شـجاع فـى أسـر الفرنـج ليثبت قلبها ويؤكد لها ألا خوف عليه منهم ، وأنهـم سيطلقون سـراحه عما قليل . وكانت تنوء بالهم الثقيل فلم تملـك أن قـالت لـه : « ومـاذا عليه إن قتلوه ؟ سيذهب إلى ربه شهيدا ويتحمل تبعته قوم آخرون !

وحضر أبو الفضل فوجد شاور فى بيته فلم يسلم عليه .

ـ ماذا جاء بك إلى بيتى ؟ إنى لا أريد أن أرى وجهك !

ـ جئت لأرى زوج ابنى !

ـ ابنك نفسه قد خرج عليك وكره عملك فما شأنك بعد بزوجه ؟

ـ شاب لا يدرك أنى فعلت ما فيه الخير لمصر ..

ـ هذا عار .. هذا عار لقد جللت وجه مصر بالعار !

ـ يا أبا الفضل تذكر أن بيننا رحما وقرابة ..

ـ لا رحم ولا قرابة بيننا اليوم ...

فنهض شاور مغضبا وهو يقول : « لكنى سأظل أرعاهما على رغـم أنفى » .

ـ أتوعدنى ؟ أفعل ما بدالك ..

ـ أقتل العجز عجز القادر !! قال ذلك وخرج ..

وقفت سميـة اليـوم حـائرة لا تـدرى أتطيـع زوجهـا أم تطيـع أباهـا ، وتقدم شجاع إلى أبيها يستعطفه ويناشده فأبى أن يجيبه إلى ما أراد .

ـ أنت بمكان ابنى يا شجاع ، فأقم هنا بيننا عند خالتك وزوجتك.

ـ ولم لا تقيم هى عند زوجها وخالتها ؟

ـ كلا ، لن آذن لا بنتى أن تقيم فى دار خائن لدينه ووطنه .

فصمت شجاع مليا وقد ساءه ما سمع فى حـق أبيـه ، وهـم أن يثـور على حميه فيكذب ما زعم ، ولكنه آثر الإغضاء ، إذ تذكر أن أبا الفضل

قد قال كلمته مخلصا و لم يقصد بها التغيير ، وأن ذلك ليس رأيه وحده بل رأى سائر الناس ، وأنه فوق ذلك والد سمية .

وحار شجاع ماذا يفعل ؟ أيقيم في بيت حميه كما اقترح ؟ إن أنفته تحول دون ذلك . أيقاضيهم ليحكم له بالطاعة ؟ ولكن سمية لم تعصه ولم تنشز عليه . وماذا يكون شعورها نحوه لو فعل ؟ وهو يعلم أنها تحب أباها حبا جما ، أفيجدر به أن يغضبها فيه ؟ وأى حب أم أى حنان بين الزوجين ، يبقى على حاله ، إذا صار سر بينهما كرة تتقاذفها الصوالج فى المحاكم ؟

وألح الهم على شجاع ، ولج به الأسى والحنين ، فأخذ ينطوى على نفسه ويميل إلى العزلة والوحدة ، حتى أشفقت أمه عليه وجعلت تنحى باللوم على زوج أختها وتسفه عمله ..

أما شاور فكان قد لام ابنه حين رجع من بلبيس ، وعاتبه على ما كان منه من التهور والاندفاع دون الرجوع إليه ، فدافع شجاع عن نفسه متمسكا بصواب ما فعل حتى غضب شاور فأغلظ له القول وأسمعه ما يكره . وكره الولد البار أن يسىء الأدب مع أبيه فسكت ولم يرد عليه .

ولكنه ظل بعد ذلك زمنا لا يجلس إليه إلا إذا أمر ، ولا يكلمه إلا إذا بدأه بالحديث أو وجه إليه سؤالا فيرد عليه ردا مقتضبا ، ولكن مع كمال الأدب .

وجاءت محنة سمية فزادت الهوة بينه وبين أبيه اتساعا .

قالت له أمه : « لا حق لك يا شجاع أن تجفو والدك هذه الجفوة من أجل أن سمية قد منعها والدها عنك » ...

ـ معاذ الله أن أجفو أبى يا أماه .. ماذنبه هو فى ذلك .

ـ إذن فمن أجل السياسة التى اتخذها .. ويحك يابنى ! إن أباك أعرف منك بهذه الشئون . دع الناس يقولون عنه ما يقولون ، فأكثرهم لا يفقهون .. أما أنت فلا ينبغى أن يخالطك شك فى أبيك .

ــ كلا لا تظنى يا أماه أنى أظن بأبى ما يظن النـاس .. فحاشـاه مـن ذلك .. ولكنه خانه الصواب فيما رأى وسلك ..

ــ كلا إنه لا يخطىء أبدا فى رأى أو عمل ..

أشفق شجاع أن يغضب أمه فتركها تقول ما تريد ..

وعز على شاور ما يرى من حال ابنه ، فأخذ يتألفه ويتودد إليه حتـى دعاه ذات يوم ، وكانت أمه جالسة معه فجلس شـجاع بينهمـا فـأخذا يلاطفانه ويباسطانه ، فلما اطمأن بهم المجلس شرع شاور يشرح لابنه ما خفى عليه من أسرار سياسته بأسلوبه البليـغ وبيانـه الواضـح ، وكلماتـه الموجزة المجزية ، فذكر له أنه كان يعلم ما بين العاضد والفرنج من الصلة والاتفاق على أن يثب العاضد بالقاهرة حين يخـرج شـاور بجنـوده منهـا لنجدة أسد الدين ، فلو أنه فعل ذلك لضاعت البلاد ، ولفنى جيش أسد الدين على بكرة أبيه ، فقد أنقذ هـو البـلاد بسياسـته هـذه وأنقـذ أيضـا جيش صديقه وحليفه نور الدين . وقال له : « إنك تعلـم يـا بنـى أننـى طالما ألححت على أسد الدين بخلع العـاضد ، فلـو أنـه خلعـه لمـا حـدث شىء مما حدث ، ولكنه خالفنى فأبقاه ، ثم إنى أشرت عليـه بعـد ذلـك ألا يبرح القاهرة بجنده بل يبقى حولها ، فإذا جاء الفرنج قاتلنـاهم دونهـا من غير أن تخشى غدر العاضد ، فخالفنى أيضا ورحل مسـرعا إلى بلبيـس ، وطلب منى أن أنجده هناك ...

وهنا تكلم شجاع بعد ما لزم الصمت طول الوقت مكتفيا بالإصغـاء ، فقال : « كان فى إمكانك يا سيدى أن ترسـل إليـه المؤن فتغيـث أهـل بلبيس » .

قال شاور وقد لاح السرور فى وجهه : « أحسنت يابنى إذ سألتنى. إنى قد شرعت أرسـل إليـه ولكـن الفرنـج استولوا علـى مـا أرسـلت ، فخشيت أن يتقووا بذلك عليه فقطعته . ألم يبلغك ذلك يا بنى ؟ » قـال

شجاع : « بلى يا سيدى ولكن الناس فى تلك الجهة قد ظنوا أنك أرسلته لإغاثة الفرنج أنفسهم » .

قال شاور : « هذا ما خشيته أيضا وتوقعته يا شجاع ما أسرع ما يسىء الناس الظن . أنا مظلوم يا بنى ، أنا مظلوم ! » .

ورأى شاور وجه ابنه قد تبلج عن بعض الرضا ، فمضى يقول له : « سلنى أيضا يا بنى ، سلنى عما يشكل عليك لأشرح لك كل شىء » .

ـ ما عندى الدليل الذى تطلبون ، ولكن شاور يزعم أنه متخوف من خيانة العاضد فقد ثبت أن فى العاصمة صديقا للعدو ، قد يكون العاضد ، وقد يكون شاور نفسه ، فإن يكن شاور ، فلا ريب أنه أراد أن يكيدنا بخطته ، وإن يكن العاضد فلن يعجزه أن يحدث حدثا حين يرى أصدقاءه قد صاروا على أبواب القاهرة إذ لن يعدم من الجيش من ينشق بهم على شاور .

قال الحارمىّ مؤيدا كلام صلاح الدين : « قد فاتك يا يوسف احتمال ثالث لهذين الاحتمالين ، فلم تذكره » .

ـ كلا ما فاتنى يا خالى ، ولكنى اكتفيت بهما عنه .

قال أسد الدين : ماذا تعنيان ؟

فأراد صلاح الدين أن يترك الجواب لخاله الحارمىّ ، ولكن الحارمىّ أومأ إليه أن يجيب هو فقال : « إنها ثالثة الأثافى يا عمى : أن يكون صديقهم العاضد وشاور معا مجتمعين !

وعندئذ صاح أسد الدين معجبا : « لله درك يا ابن أخى ! » فنظر إليه الحارمىّ كأنما يقول له : « ليس هذا من جهة أبيه بل من جهة أمه ! : » .

وأدرك أسد الدين ذلك فطامن من زهوه ، والتفت الحارمىّ إلى صلاح الدين يقول : « إنك إذن تؤيد الخطة التى اقترحها عمك ... »

ـ نعم فهى الخطة المثلى :

ـ ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا !

ـ أجل ، ولأننا نستطيع بها أن نكشف نية شاور قبل أن يقع المحذور ، ثم إننا سنكون أقرب إلى حدود الشام وأيسر على نور الدين أن ينجدنا عند اللزوم .

وما أتم صلاح الدين كلامه حتى اقتنعوا جميعا ، فاجتمعوا على الأخذ بهذه الخطة ، فشرعوا يتأهبون للمسير .

وعلم شاور ، فأقبل يناقشهم فى الأمر مدافعا عن خطته محاولا إقناعهم بها ، ولكن أسد الدين أفهمه أنهم قد أجمعوا على هذا القرار . فلا سبيل إلى العدول عنه . فالتمس من أسد الدين أن يكلمه على انفراد ، فلما اختليا قال له :

ـ إذن فدعنا نتخلص من العاضد اليوم أو نعتقله .

ـ اليوم ، والعدو على الأبواب ؟ كلا يا شاور لا أوافق على هذا أبدا . لتكونن فتنة فى البلد ..

ـ أريد أن أسالك يا سيدى عن ثلث الخراج .. ذاك الذى التزمت به لنور الدين .

ـ هذه مسألة هينة . فقد قلت لأسد الدين إنى سأتفاهم فى ذلك مع سيده نور الدين ، فإن نور الدين ، رجل عظيم لا يهمه المال ، وما أرسل حملته معى إلا ابتغاء مرضاة اللّه بحماية هذا القطر العربى ، وتأمينه من خطر الفرنج .

ـ فلم لا تكتب إلى نور الدين يا سيدى فتشرح له عذرك ؟

ـ سأفعل يا بنىّ .. سآمر صاحبك القاضى الفاضل أن يتولى كتابة ذلك بأسلوبه وإنشائه .

وكانت زبيدة تصغى إلى الحديث معجبة بفصاحة زوجها وقوة حجته وتتابع ببصرها ما يحدثه من الأثر فى وجه ابنها ، فلما رأته قد سكت سكوت المقتنع انبرت تقول :

ــ هل اقتنعت الآن يا شجاع ؟

ــ نعم ..

ــ هل بقى فى نفسك شىء ؟

ــ لا يا أماه ..

ــ قم يابنى إذن وقبل رأس أبيك !

ــ حبا وكرامة يا أماه ...

وقام شجاع وقبل رأس أبيه ، فعانقه أبوه عناقا حارا وهو يقول : « لقد فقدت أخويك طيئا وسليمان .. أفينبغى أن أفقدك أنت أيضا يا شجاع .. أفقدك وأنت حى ترزق ؟

فاستعبر شجاع وهو يلثم كف أبيه ويقول : « كلا يا سيدى لن تفقدنى أبدا ما حييت » .

فقامت زبيدة تعانق ابنها وهى تقول : « الحمد لله يابنى ! الآن قرت عينى بك » .

وانزاح عن كاهل شجاع كفل من همه ، فاستنار فكره ، وأخذ يقلب الرأى فى أمر سمية ، كيف يقنع والدها ليعدل عما تشبث به ، فهداه الفكر إلى أن يستعين عليه بصديقه القاضى الفاضل ، وعجب كيف لم يخطر له هذا من قبل .

ولبى القاضى رغبة شجاع ، فركب إلى أبى الفضل ، فناشده أن يرحم ولديه شجاعا وسمية ، فكفى ما فرق بينهما لغير ذنب جنياه فما تزر وازرة وزر أخرى ، وذكره ألا حق له فيما يفعل ، فلو أن شجاعا قاضاه لحكم له عليه ، وما زال به كذلك حتى رضى أبو الفضل .

وهكذا عادت سمية إلى بيت زوجها ، فكان ذلك من أسعد أيامها وأيامه .

٨

غير أن القطيعة بين أبيها وأبيه ظلت على حالها ، بل اشتدت بعد ذلك اشتدادا خطيرا .

ذلك أن شاور لما رأى سوء رأى الناس فيه بعد الذى حدث من خذلانه أسد الدين وإيثاره الفرنج عليه ، رأى أن يشرح لهم حقيقة مسلكه ويقيم لهم عذره . هذا ابنى قد شك فى ثم اقتنع ، فلم لا أصنع مثل ذلك مع الناس ؟ ثم هذا العاضد لى بالمرصاد ، فلن يغفر لى أبدا تحريضى أسد الدين على خلعه ، وسيسعى لا ريب إلى إسقاطى ، وسيجد من سخط الناس علىّ عونا له على ما يريد .

فأخذ شاور يفتح بابه للناس من جميع الطبقات ويدعوهم إليه فيشرح لهم أسرار سياسته ودوافعها ، وما عادت به على البلد وأهله من الخير وحسن العاقبة ، ومن كشاور فى حسن الإقناع ؟ . ثم اختار من بينهم دعاة أدناهم وحباهم لينشروا فى الناس ما سمعوا منه .

ولم يلبث أن ظهر أثر ذلك فى الناس ، فأخذوا فى مجالسهم وفى الشوارع يتناقشون ويتجادلون فى هذه الشؤون ، من مقتنع بسياسة شاور قد أصبح يدافع عنها ، ومن منكر لا يزال يندد بها ويصمها بالخيانة والغدر ، ومن مذبذب بين ذلك لا إلى هؤلاء إلى هؤلاء ..

وكان أبو الفضل وجماعته قد قرروا قبل ذلك وجوب السعى لإسقاط شاور لما ثبت عندهم من خيانته للدين والوطن ، وقد كتب أبو الفضل إلى نور الدين يعلن براءته وبراءة أهل مصر مما فعل شاور ، ويناشده أن يعيد أسد الدين فى حملة أخرى لتخليص مصر من هذا الذى خان الملة والوطن . وقد كان يرى من سخط الناس على شاور أكبر عون للحملة الثانية على أداء مهمتها إذا أتت .

فلما رأى هذه الفتنة التى انتشرت فى الناس من عمل شاور ودعاته ، هاله أن يضلل الناس هذا التضليل فيعرض لهم الباطل فى صورة الحق والحق فى صورة الباطل ، فعول هو وجماعته على مقاومة هذه الدعوة، ومناقضتها ومقارعة الحجة بالحجة ، فانتشروا فى الناس يدعون ويذكرون .

وكان أبو الفضل أشدهم تجريحا لسياسة شاور وتنديدا بما اجترم ، حتى انتبه شاور لشأنه فبعث إليه من ينهاه عن ذلك ويتوعده . فلم يبال بوعيد شاور ، ومضى فى التأليب عليه ، فأرسل إليه القاضى الفاضل عسى أن يقنعه لما بينهما من المودة والصداقة ، ولكن القاضى الفاضل لم يقم بما أرسل من أجله ، بل أسر إلى صديقه أبى الفضل أن يختبئ أو يهرب فى الحال لأن شاور قد قرر القبض عليه ، لا من أجل لسانه بل خشية أن يكتب إلى نور الدين ويحرضه عليه ، فقد عزم شاور أن يبعث رسالة إلى نور الدين ليشرح له فيها عذره وحسن نيته فيما فعل ، وكلفه هو أن يتولى إنشاء هذه الرسالة ثم قال له : « لا ضير أن تحتجب أنت ، ففى جماعتنا الكفاية ، وهم سيواصلون الحملة عليه ».

قال أبو الفضل : « صدقت يا عبد الرحيم .. الحمد للّه إذ لم أطلع هذا الخائن على سر جماعتنا ، إذن لقضى اليوم عليهم جميعا » .

— اسمع يا أبا الفضل .. إنى سأدأب من اليوم على القدح فيك حتى لا يرتاب الرجل فى أمرى ..

— افعل يا عبد الرحيم .. قل فىّ ما تشاء عنده .. هذا ينفعنا ..

ورجع القاضى فقال لشاور : « إنه قد وعدنى بالكف ، ولكنى أخشى ألا يفى بما وعد ، فإنه شديد الحقد عليك ... »

ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى انطلق رجال شاور يبحثون عن أبى الفضل فى كل مكان ليقبضوا عليه فلم يعثروا له على أثر ....

واستدعى القاضى الفاضل لمقابلة شاور !

— ألم يخبرك أبو الفضل بأنه سيهرب ؟

ــ لا يا سيدى الوزير ، أوَقد هرب ؟
ــ إنهم بحثوا عنه فى كل مكان فلم يجدوه .
ـ أرى أن ترسلوا فى طلبه فى طريق الشام ، فلعله أراد اللحاق بنور الدين ليحرضه عليك . ماعلمت أنه رجل حقود قليل المروءة إلا اليوم ...
ــ قليل المروءة ...
ــ نعم ... أتدرى ماذا قال لى لما ناشدته بحق الصداقة أن يكف عنك ؟ قال لى : « لا تذكر الصداقة ، فقد نسيتها يا عبد الرحيم ونسيت فضلى عليك إذ جئت فقيرا لا عمل لك .. فرشتك ، ثم قدمتك » ، فلم أملك نفسنى أن قلت له : « احسب ما أنفقت علىّ إذ كنت فى ضيافتك لأدفعه لك » ، وخرجت من عنده غاضبا .
ــ خشى منك أن تحرضنى عليه فهرب .
ــ لو كان ذا مروءة تامة ما ظن بى ذلك .

وأعلم شجاع سمية بالحادث ، فكان عليهما محنة جديدة كدرت صفو لقائهما قبل أن ينعما به إلا قليلا ، ياويحهما ! أو قد قضى عليهما ألا يخلصا من محنة إلا إلى محنة ؟ أكتب عليهما ألا يضمهما بساط وثير من الورد والريحان حتى يجدوا شوكا يخزهما من خلاله ؟

ولاذ الحبيبان بحجرتهما حيث جلسا واجمين ، ماذا عسى أن تقول هى ، وماذا عسى هو أن يقول ؟ هى فى جزع على أبيها وقلق ، وهو فى خجل مما صنع أبوه . الدمع الصامت يسح من عينيها ، والدمع الصامت يترقرق فى عينيه !.

ودخل شاور عليهما فجأة فاستويا قائمين ، ولكن ظلا على حالهما واجمين . وحياهما فردا التحية بالإيماء .

وطفق شاور يعرب عن أسفه لما حدث ، ويقسم لهما أنه لم يكن فى نيته قط أن يلحق بأبى الفضل أذى أو يمسه بسوء ، وقصارى ما كاد منه أن بعث إليه مرة بعد مرة ليكف عن التشهير به وتحريض الناس عليه

ولما لم ينته عن ذلك أراد أن يجتمع به ليناشده بنفسه ، فأرسل فى استدعائه فلم يجده ، وبحثوا عنه فى كل مكان فلم يقفوا له على أثر ، ثم أقبل على سمية خاصة فقال « غفر الله لأبيك ياسمية ، لقد ظن أنى سألحق به أذى فاستخفى منى ، والله مانويت ذلك ولا فكرت فيه ولو فعل مافعل . وسأجتهد فى طلبه حتى أزيل ما فى نفسه منى ، فيعلم أنه فى أمان مهما يفعل » .

ثم جعل يمسح على رأسها فى حنان وهو يقول : « لاتبتئسى يابنيتى فلن يصيب أباك أى سوء » .

ولما خرج شاور من عندهما أقبل شجاع على زوجته يقول : « اطمئنى الآن ياحبيبتى ، وثقى أن أبى لا يكذب أبدا » .

فنظرت سمية إلى زوجها فى رقة وعطف ، ولكنها لم تجب » .

٩

وظل رجال شاور يطلبون أبا الفضل فى كل مكان دون أن يجدوه ، فانقطعوا . وانتظر شاور أن يظهر نبأ عنه عند نور الدين بالشام ، فلما لم يظهر شىء وأبلغه أن نور الدين يستعد للانتقام منه ، رجح أن أبا الفضل هناك ولكنهم كتموا وجوده .

أما أبو الفضل فقد اختبأ عند أحد جماعته ، ثم صار يتنقل عندهم من بيت إلى بيت كلما أحس بخطر عليه ، والجماعة ماضون فى التحريض على شاور والتنديد بخيانته ، وقد قبض على بعضهم كما قبض على كثير غيرهم دون أن يعلم سر ارتباطهم وانتسابهم إلى جماعة واحدة .

وكان شاور يظن أن العاضد هو القائم بتدبير هذه الحركة من خلف الستار . فوجه اهتمامه إلى القصر يرصد حركات العاضد ويتتبع أسراره. وصار يضطهد رجال القصر وينفي أو يعتقل من يخشى أن يرشحه العاضد لمنازلته فى المستقبل على كرسى الحكم ، ثم تسرب إلى

علمه أن العاضد قد كتب إلى نور الدين يستنجد به عليه ، ويلتزم له بمثل ما التزم به شاور من نفقات الحملة وثلث الخراج والتعاون على جهاد الفرنج .

فأسقط فى يد شاور ، وضاع كل أمل عنده فى أن يقبل نور الدين عذره ويصالحه ، وتأكد عنده أنه سيرسل أسد الدين لامحالة للانتقام منه ، وقد بدأ الناس يعودون إلى اتهامه بالخيانة من جديد إذ أخذت الدعوة التى بثها تنحسر عنهم شيئا فشيئا .

وحدثته نفسه أن يكاتب الفرنج ولكنه تردد قليلا ، وأومض فى ذهنه خيال ابنه شجاع فازداد تردده ، إلى أن قرر العدول عن ذلك حين تذكر أن الفرنج سيأتون من تلقاء أنفسهم إذا وجدوا نور الدين يرسل حملته من جديد ، فعلام يربط نفسه من اليوم بميثاق معهم ؟ أليس أفضل من ذلك أن يدع الأمور تجرى فى أعنتها ليملك حق الخيار بعد ذلك فى اتباع ما يراه أسلم له عندما يجد الجد ، ويلتقى العسكران فى أرض مصر ؟ ومن يدرى لعله حينئذ يتاح له أن يستميل عسكر نور الدين إليه فيشترك معهم فى حرب الفرنج ودحرهم فيسترد بذلك اعتباره لدى نور الدين وعند الشعب ؟

ولم تطل الحيرة بشاور ، إذ مالبثت الأنباء أن جاءت بأن « مرى » ملك بيت المقدس قد عاد فى جموع كبيرة فاجتازوا الحدود مسرعين إلى أرض مصر ، ففزع شاور فى أول الأمر إذ كان يتوقع مجىء جيش نور الدين أولا ، ثم عاد فوجد أن سبق الفرنج أصلح له وأحرى أن يمكنه من تنفيذ خطة الخيار التى اعتزمها ، فليستقبل الفرنج اليوم مسالما حتى يثقوا به ويطمئنوا إليه ، وليعمل معهم على أساس ما اتفقوا من قبل عليه من بقاء استقلال مصر عنهم وعن نور الدين حتى إذا أقبل جيش نور الدين مال إليه إن أمكن وإلا مال عليه .

وفزع الناس مما سمعوا وانتشر بينهم الهلع . فأمر شاور بتسكينهم ، وإعلامهم أن الفرنج ما جاءوا لقتال المصريين أو احتلال بلادهم ، بل

لقتال جيش الشام إذا أقبل ، فعليهم أن يخلدوا إلى السكينة حتى يرى ما يكون من أمرهم . ثم وصله كتاب من « مرى » يؤيد هذا المعنى ، فأمر به فقرئ على الناس فى ميدان بين القصرين .

ولم تسكن نفوس الناس بل زاد اضطرابهم وحيرتهم ، وتلفتوا حولهم فوجدوا جنود الدولة ساكنين لايتحركون كأنما لا يعنيهم الأمر فى شىء ، فقد اشترى شاور ذمم أمرائهم ، فهم لأمره طائعون وبإرادته مسيرون . أما عامتهم فهم لأمرائهم تبع ، فارتدت أبصارهم حسيرة ، ثم توجهوا بقلوبهم شطر الشام لعلّ نجدة تأتى من نور الدين وشيكا ، فما لهذه الغمة غير نور الدين .

وصل ملك الفرنج فاستقبله شاور استقبال الصديق ، وأعد له ولكبار رجاله دورا خاصة فى العاصمة فنزلوا بها ، أما سائر جنوده فعسكروا خارج العاصمة .

وما لبث « مرى » أن اقترح على شاور أن يعقدا ميثاقا يوطد الصداقة بينهما ، ويؤكد العهد الذى اتفقا عليه ، فتردد شاور أول الأمر وقال له : « أيها الملك .. إن الصداقة بيننا لا تحتاج إلى ميثاق يكتب » .

— بل ينبغى أن نبرم الميثاق حتى يعلم نور الدين ألا مطمع له فى مصر ، فلا يعود إليها .

— قد أثبتنا له هذا بالفعل يوم بلبيس .. حين خلينا بينكم وبين أسد الدين ..

— إنى واثق منك يا شاور ، ولكنى أريد ميثاقا يوقعه الخليفة فى مصر ، فلا يبقى لنور الدين مجال فى استمالته إليه والمجىء باسمه ..

وما سمع شاور ذكر الخليفة حتى بدا له أن يغير رأيه فيوافق على عقد الميثاق ، فقال لمرى : « صدقت أيها الملك .. لقد غاب عنى هذا الاعتبار فنبهتنى إليه » .

وعرض الميثاق على العاضد ليوقعه فداخله الشك فيما يكمن وراءه من كيد شاور وسوء نيته ، ولكنه فوجىء بذلك فلم يجد وقتا للتدبر فيه فوقعه وهو كاره .

وما هى إلا أيام فإذا نبأ ورد إلى العاصمة بأن أسد الدين قد عاد بجيشه وعبر صحراء سيناء إلى الصحراء الشرقية .

ففرح الناس بهذا النبأ وإن أشفقوا أن تكون هذه النجدة من نور الدين قد وصلت متأخرة ، بعد ما تمكن الفرنج من العاصمة وتوثق التعاون بينهم وبين شاور . فها هو ذا ملك الفرنج وشاور قد أخذا يستعدان للقاء أسد الدين ويرتبان جنودهما ويعدان العدد ويدبران الخطط متعاونين متكافلين كأنهما فريق واحد .

ثم أخذت الأنباء تتوالى بعد ذلك بأن أسد الدين قد وصل إلى أطفيح ، وأنه عبر بجنده إلى الشاطىء الغربى ، وأنه اتجه بهم شمالا صوب الجيزة ، وأنه وصل إلى الجيزة فعسكر بها .

وأسرع جنود شاور وجنود حلفائه فعسكروا حذاء عسكر أسد الدين من البر الشرقى ، فأصبح النيل يفصل بين المعسكرين ، وكأن هذا النهر العظيم باعتراضه بينهما وفصله بين جند الحق وجند الباطل ، قد أراد أن يشهد الله ويشهد الناس ويشهد التاريخ إلى أى الفريقين انحاز شاور بجند مصر !

١٠

كان أبو الفضل مختبئا عند نعمان السقاء فى الفسطاط حين جاءت الأنباء بقدوم أسد الدين . فعزم أن يمضى إليه ليلقاه قبل أن يصل إلى العاصمة ليطلعه على حقيقة الأحوال لعله يفيد منها فى الخطة التى سينتهجها لمحاربة شاور وحلفائه .

فخرج متنكرا فى زى السقائين ومعه صاحبه السقاء ، فمضيا يتنسمان أخباره حتى علما أن وجهته أطفيح فانتظراه هناك ، فلما وصل

تقدم إليه ففرح أسد الدين لما عرفه . وتلقاه هو وصاحبه ، فأنزلهما عنده في المعسكر . وأخذ أبو الفضل يروى له كل ما يهمه من أخبار شاور والفرنج ، وما استعدوا به للقاء أسد الدين ، ثم أشار عليه بألا يعجل بمنازلتهم ، بل يؤجل ذلك ما أمكن حتى يتسامع أهل مصر جميعا أن شاور يحارب المسلمين مع الفرنج أعداء الدين والوطن ، فاستصوب أسد الدين رأيه قائلا : « إني قد خطر لى ان أستعين بشعب مصر ، بعد ما رأيت من بسالة أهل بلبيس وحماستهم فى معاونتنا على الفرنج ».

فقال أبو الفضل : « إنَّ سائر الشعب لا يقلون عن أهل بلبيس بسالة وحمية إذا استثيروا ، وأتيح لهم سبيل المعاونة والعمل » .

فعقد أسد الدين مجلسا من كبار رجاله فيهم صلاح الدين والحارميّ وغيرهما ممن كانوا معه فى الحملة الأولى ، وعرض عليهم رأى أبى الفضل واستشارهم فى أفضل السبل لتنفيذه .

واتفقوا بعد التشاور على أن يعبر أسد الدين بجيشه إلى الشاطىء الغربى ثم يتوجه شمالا حتى يبلغ الجيزة فيعسكر بها ، وبذلك يتسنى لأهل القاهرة وأهل الفسطاط أولا أنْ يروا الحقيقة البشعة رأى العين ثم يتسامع بها سائر أهل القطر .

وبينما هم مجتمعون لم ينفض اجتماعهم بعد . إذا بالحاجب يعلن لأسد الدين أن شجاع بن شاور قد جاء يستأذن لمقابلته ، فتعجب أسد الدين وتعجب رجاله ، ولكن أبا الفضل أسرع ، فاقترح عليهم من باب الحيطة أن يكتموا وجوده عندهم عن شجاع فوافق أسد الدين على ذلك ، وأشار على أبى الفضل أن يختبىء خلف الخباء ليسمع ما يدور بينه وبين شجاع ، وفض المجلس فلم يبق معه غير الحارميّ وصلاح الدين .

ودخل شجاع فرحبّ به أسد الدين قائلا : « مرحبا بقائد فرقة الموت فى بلبيس » : وبعد أن أجلسه قال له : « هل أوفدك أبوك إلينا يا شجاع » ؟

فتردّد شجاع قليلا ثم قال : « نعم يا سيدى بعثنى والدى سرًّا لأتصل بك » .

ـ خوفا من حلفائه الفرنج !

قال شجاع محاولا أن يخفى الامتعاض الذى لاح فى وجهه : « بل خشية أن يعلموا بسر خطته فيحبطوها » .

قال أسد الدين ماضيا فى سخريته الخفية : « إن كان يخاف عليها من حلفائه أفلا يخاف عليها من أعدائه ؟ » .

فقال شجاع محتدا : « يا سيدى إن كنت لا تريد أن تستمع لقولى فإنى منصرف » . فرق له أسد الدين وطيب خاطره قائلا : « بل قل يابنى فإنى مصغ إليك » .

ــ إنه لايعتبركم أعداء ولا يعتبر الفرنج حلفاء ، وقد بعثنى لأعرض عليكم الخطة فتتفقوا عليها معه .

ــ كأن أباك يريد أن يصالحنا ؟

ــ نعم ..

ــ بعد الذى كان منه ؟

وهناك قال صلاح الدين لعمه : « يا عم ألا تسأله ماهى الخطة أولا ؟ » .

قال أسد الدين : « أجل .. ما خطته يا شجاع ؟! » .

ــ أن يوهم الفرنج بأنه معهم ، كما فعل حتى الآن ، فإذا نشب القتال مال عليهم معكم ميلة واحدة .

فسكت أسد الدين مليا ثم قال له : « هذه خطة حسنة ، ولكن ماذا يضمن لنا أن شاور صادق النية فى ذلك ، وألا يكون قصده أن يغدر بنا كما فعل من قبل ؟

ــ كلا يا سيدى لا شك فى صدقه .. وسترون ذلك غدا بأعينكم .

قال صلاح الدين : « سله يا عم عن خير الميثاق » .

ـ أجل .. ألم يعقد أبوك ميثاقا معهم على محاربتنا ؟

فأسرع شجاع يقول : « سأحدثك يا سيدى عن هذا الميثاق ، فاعلم أن أبى لم يوقعه ، وإنما وقعه الخليفة العاضد » .

ـ وهل وقعه العاضد إلا بموافقة أبيك عن رأيه ؟

ـ كلا يا سيدى ، إن والدى قد رفضه حينما عرضه عليه « مرى » ملك الفرنج ، وقال له : لا حاجة إلى عقده لأنه كان ينوى منذ ذلك الوقت أن يتفق معكم على هذه الخطة ، ولكن « مرى » بعث بالميثاق إلى العاضد فوقعه .

ـ ولم يوقعه شاور بعده ؟

ـ لا والله العظيم ورب الكعبة .. لقد اطلعت عليه بنفسى فما وجدت توقيع شاور فيه .

ـ إنك تقول قولا عجيبا يا شجاع ..

ـ لم يعد هذا الأمر سرًّا يا سيدى .. فقد أصبح يعرفه كثير من الناس ، وستسمعه غدا أنت بنفسك ..

ـ ما وقع شاور الميثاق .. ولكن عمل بموجبه ..

ـ قد شرحت لك يا سيدى حقيقة غرضه من ذلك .. ثم إن هذا الميثاق ليس فيه محاربتكم .

ـ فأى شىء فيه إذن ؟

ـ فيه ضمان استقلال مصر عن الفرنج وعن نور الدين معا .

ـ ولا شىء غير ذلك ؟

ـ وفيه توثيق روابط الصداقة ...

ـ بين من ومن ؟

ـ بين مصر وبلاد الفرنج ..

ـ بلاد الفرنج الأصلية فى الغرب ؟

ـ لا يا سيدى .. بلادهم فى الشام ...

فعلا صوت أسد الدين قائلا فى غضب : « ويلك ! هذه ليست بلادهم ، وإنما اغتصبوها منا ومنكم ومن كل عربى ومسلم .. ويلكم ! ألم تعرفوا هذه الحقيقة ؟ ألم تعلموا أنهم دخلاء أفاقون من نفايات شعوب مختلفة فى الغرب . طرأوا على بلادنا فى غفلة منا وضعف فزعموا أنها بلادهم وأنهم باقون فيها إلى الأبد ؟ » .

فارتعد شجاع مما سمع ثم تمالك :

ـ بلى يا سيدى نعرف ذلك . ولكن الصداقة التى وردت فى الميثاق لم يقصد بها الإخاء والمودة ، وإنما قصد بها تيسير التجارة وتبادل البضائع والسلع مما ينتفع به الناس ...

فغضب أسد الدين غضبا أشد من الأول وقال :

ـ ويلك ! هنا ضربة السيف فى سواء العنق ، وطعنة الخنجر فى حبة القلب ! ألم تعلموا ألا بقاء لهم فى بلادنا إلا بذلك ؟ ألم تعلموا أن من يحالفهم فى ساحات القتال أقل خيانة وأهون إثما ممن يعاملهم فى الأسواق ؟ ألا لعنة الله على من فعل هذا ولعنة اللاعنين .

فسكت شجاع قليلا ثم تمتم قائلا : « التبعة فى هذا على العاضد وحده ، ولا يد لشاور فيه كما بينت لك » .

قال أسد الدين وصدره يعلو ويهبط من أثر الغضب : « والغدرة التى غدرها شاور فى بلبيس ؟ » .

ـ تلك هفوة صدرت منه أمس ونحن أبناء اليوم ..

ـ هفوة !!

قال صلاح الدين : « أجبه يا عمى بلا أو نعم .. فإن المقام مقام سفارة فى وقت حرب وليس مقام وعظ أو تبكيت ..

ـ ماذا أصنع ؟ هذا أمر يثير حتى الحجر !

ـ إنك تريد أن تطمئن إلى صدق شاور فيما عرض اليوم عليك فاقترح عليه شيئا .

ــ ماذا أقترح ؟ كيف أعرف ما فى قلبه ؟

قال الحارمىّ : « أرى أن تقترح عليه أن يثب شاور بالفرنج أولا ، ليثبت لنا صدقه » .

فقال أسد الدين فرحا : « أجل هذا حسن لو قبل شاور » .

قال شجاع : « كلا يا سيدى لن يقبل أبى ذلك » .

قال الحارمىّ : « إن لم يقبل فإنه ينوى الغدر » .

قال صلاح الدين : « مهلا يا عمى دعنا نسأل شجاعا أولا كيف علم أن والده لن يقبل ؟ » .

ــ الحق أنى اقترحت عليه هذا الأمر ذاته ، فشرح لى أنه غير ممكن.

ــ كيف يا شجاع ؟

ــ إن الفرنج اليوم منتشرون فى كل مكان ، ويختلطون بجيشنا فى المعسكرات ، والملك وكبار رجاله يقيمون فى دور كثيرة بالعاصمة.

فقال أسد الدين : « اللّه اللّه ! .. اختلط الأسمر بالأحمر ... وامتزج الحليف بالحليف .. إن كان ذلك غير ممكن اليوم فهو غدا متعذر ...

ــ كلا يا سيدى ، غدا يمتاز عسكرنا من عسكر الفرنج ... حين تعبأ الفرق على كل فرقة قائدها .

ــ لعلهم يضعون شاور على رأس فرقة من فرقهم .. ويتولى «مرى» قيادة فرقة من فرقكم .. أليس ذلك محتملا أن يقع ؟

فنهض شجاع غاضبا وقال : « كنت أظن يا أسد الدين أنك سترحب بجمع كلمة العرب على عدوهم وتنسى فى سبيل ذلك ما سلف من إساءة شاور إليك ، فإذا أنت تنسى قضية العرب ولا تذكر إلا حفيظتك على شاور وحرصك على الانتقام منه » .

فقام أسد الدين ليستوقفه قائلا : « ويلك ! من قال لك ذلك » ؟

ــ هذا واضح من حديثك وطريقة حديثك ..

ـ لا والله يا بنى ! ما قصدت ذلك .. وإنى لأعلم أنك مخلص صادق ...

ـ ووالدى أصدق وأشد إخلاصا منى .

ـ هذا عندك يا بنى لا عندى .

ـ أجبنى الآن قبل أن أنصرف .. أتقبل أم لا تقبل ؟

ـ أقبل بشرط أن يثب أولا على العدو ..

فطفر الدمع من عينى شجاع وراح يقول بصوت متهدج حزين : « لا حول ولا قوة إلا بالله !.. ستحاسب على هذا يا أسد الدين غدا يوم القيامة ، وتبعة دماء المسلمين على عنقك » .

وحاول أسد الدين أن يستوقفه ، فجذب شجاع يده منه بقوة وخرج .

ووقف الثلاثة واجمين ينظر بعضهم إلى بعض فى دهش وتعجب ، حتى دخل أبو الفضل فقال له أسد الدين : « هل سمعته يا أبا الفضل ؟ سمعت زوج ابنتك ؟ » .

قال أبو الفضل : « أجل إنى أعرفه جيدا .. ليس بينه وبين شاور غير لحمة النسب .. أما ما عدا ذلك فبينهما بعد المشرقين » .

ـ أعجب ما أعجب له أن هذا الشاب على ذكاء وفطنة ، فكيف تغيب عنه حقيقة أبيه ؟

ـ إنك لا تعرف يا أسد الدين أن شاور فى أهل بيته إله يعبد !

ـ ألم يشك يوما فى عمل من عمل أبيه ؟

ـ بلى ! ولكن تعرف شاور وقدرته الخارقة على الإقناع .. وحسبك أنه خدعنى زمنا عن نفسه ..

ـ وخدعنى أنا أيضا ..

ـ وخدع الناس أجمعين .

قال الحارمىّ : « إلا يوسف ! ...

فقال أسد الدين فى دعابته المحببة : « أجل يا أبـا الفضـل .. إلا هـذا الولد الشقى فإنه لم ينخدع به قط » .

وتبسم صلاح الدين و لم يجب .

قال أبو الفضل : « لعله رآه أول ما رآه فى أسوأ حالاته فنشأت فى نفسه كراهية له واشمئزاز » ...

فقال صلاح الدين متعجبا .. « أجـل ، كيـف عرفـت ذلـك يـا أبا الفضل » ؟

ــ ما كنت لتنجو من سحر شاور لولا شىء كهذا ..

ــ حدثنا يا ابن أخى ماذا جرى ؟

ــ رأيته أول ما رأيتـه فـى مجلـس نـور الديـن .. وكـان نـور الدين يتحدث فغلط فى كلمة ثم عاد فصححها . ووقعت عينـى علـى شـاور خلسة فرأيته وقد كسر إحدى عينيه ازدراء وسخرية . فكرهته منذ ذلك اليوم وارتبت فيه ..

فالتفت إليه أسد الدين مغاضبا : « هيه وتركتنى أعتقد أن ذلـك قـوة فراسة عندك !؟ » ثم قال لأبى الفضل بعد أن سكت لحظـة « لكنى قسوت على الشاب يا أبا الفضل ، وما كان لى أن أفعل ».

ــ ما كان لك أن تفعل غير ذلك . إنى والله لو أعلم أن عنـد شـاور ذرة من الصدق والإخلاص لدخلت عندكم فأشرت عليكـم بقبـول مـا عرض .

ــ ماذا تخاله يقصد من ورائه .

قال الحارمى : « الغدر لاريب .. يريد أن يغدر بـك وأنـت مطمئن إليه » .

فقال أبو الفضل : « بل يريد أكثر من ذلك .. يريد أن ينظر غدا فإن رأى الريح معكم قام بما التزم لكم . وإلا بقى على حالـه مـع الفرنج وانتحل أى عذر » .

قال أسد الدين متعجبا : « إى والله .. هذا ما فعله معنا فى بلبيس .

وعاد شجاع إلى أبيه حزينا كاسف البال . فأخبره أن أسد الدين لم يقبل ، فأسرع شاور يقول : « ألم أقل لك يا شجاع إن أسد الدين يريد الانتقام منى لا غير ؟ ولكن لا بأس يابنى ، أحسنت إذ ذهبت إليه ، فقد أبرأت ذمتى إلى الله » .

قال شجاع مستعطفا : « ألا تستطيع يا سيدى أن تجد لك سبيلا آخر . إنك لذو حكمة وإنك لحلال المشكلات » .

فأطرق شاور قليلا ثم قال : سأنظر غدا لعل أسد الدين يعود فيقبل ونحن فى القتال حين يخشى الهزيمة ، فأمد يدى إليه وأنصره .

ــ ما أحسب ذلك ممكنا يا سيدى إذا احتدم اللقاء وولغت السيوف فى الدماء !

ــ إذن فذنبه على جنبه !

ــ ولكن أنت يا سيدى سيصمك الناس بالخيانة .

ــ لأن يصمنى الناس بالخيانة ، والله يعلم حسن نيتى ، خير لى من أن يحسبونى بطلا وأنا عند الله خائن ..

فسكت شجاع مليا كأنما ألقمه شاور حجرا ، ثم عاد فقال : « لكن لو أمكنك إرضاء الناس أيضا كان أفضل ، ألا تجد يا سيدى مخلصا من قتال هؤلاء المسلمين ؟ » .

فغضب شاور حينئذ وقال له : « إن شئت أن تقاتل معهم فاذهب إليهم . إنى على يقين من أمرى . والله مطلع على سرى ، فما أبالى ما يقول الناس ، ولا أبالى أن تكون أنت معى أو على . سأعتبرنى قد فقدتك يوم فقدت طيئا وسليمان وكأن ضرغاما قد ذبح أبنائى الثلاثة ! » .

فما لبث شجاع أن استعبر وقال : « كلا يا سيدى سأكون معك . حاشاى أن أتخلى عنك .. والله يغفر لى ولك وللمسلمين جميعا ».

١١

بقى الناس أياما ينظرون إلى المعسكرين قد وقفا متحاذيين لا يفصل بينهما إلا النيل ، ولا يدرون متى أو كيف يلتحم القتال بينهما ، ثم لا يدرون كذلك لأيهما غدا يعقد لواء النصر . وهم يتوجهون إلى الله بقلوبهم أن ينصر جيش أسد الدين على جيش شاور وحلفائه ، وإن كانوا يشفقون ألا يستجاب لهم لما يرون من التفاوت العظيم بين جيش القلة وجيش الكثرة . وهم قاعدون عما أوجب الله عليهم من نصرة الحق على الباطل .

على أن كثيرا منهم ، ولا سيما من أهل الفسطاط ، قد غلبتهم الحمية فأنستهم مصالحهم الخاصة ومصالح ذويهم فى البر الشرقى ، فاختلستهم القوارب إلى البر الغربى حيث انضموا إلى جيش أسد الدين ليقوموا له بما يستطيعون من خدمة ، ويقدموا له ما يملكون من عون ، فأخذ المعسكر الغربى يتضخم بمن ينضمون إليه من المتطوعين .

وكان نعمان السقاء يتلقاهم ويقدمهم إلى أسد الدين ، ثم يرتب كل واحد منهم فى العمل الذى يحسنه . أما أبو الفضل فقد بقى على حاله متنكرا ومختبئا عند أسد الدين يرشده ويشير عليه ، لا يظهر للناس ولا يعرف حقيقته فى المعسكر سوى أسد الدين والخاصة من رجاله .

وكان « مرى » وشاور يتوقعان فى أول الأمر أن يعبر أسد الدين النيل إليهما تحت ستار الليل بغتة . ولا سيما إذ رأياه يعد القوارب والسفن على الشاطىء ولا يعلمان أنه قصد بذلك تضليلهما عن حقيقة خطته . فلما طال بهما الانتظار ، ورأيا جماعات المتطوعين يتسللون إلى البر الغربى ، قررا العبور بجبوشهما إليه لمعاجلته القتال . فأخذا يعدان القوارب والسفن .

وبدأ أسد الدين يستعد للقائهم . ولكن أبا الفضل أشار عليه أن ينسحب من وجوههم ويسير بجيشه صعدا صوب الجنوب فيستدرج

شاور وحلفاءه إلى أقصى الصعيد ، حتى يعلم من لم يكن قد علم من أهل البلاد كيف انضم شاور إلى أعدائهم ليقاتل معهم المسلمين .

وفرح شاور وحلفاؤه حين رأوا أسد الدين ينسحب ، وظنوا أنه قد خاف على جيشه القليل من كثرتهم فانبروا يعبرون النيل فى يسر وجذل إذ انكشف عنهم ما كانوا يتوقعون من صعوبة التعدية لو بقى جيش أسد الدين مكانه على الشاطئ الغربى .

وانطلقوا فى أثر أسد الدين مصعدين ، وأسد الدين ماض فى سيره صوب الجنوب . والناس ينظرون إلى جيشه ثم ينظرون إلى جيوش شاور والفرنج ، فيقول بعضهم لبعض : « انظروا ماذا يفعل شاور » !

وكان شجاع قد خرج مع أبيه متكارها كالمغلوب على أمره ، يتصفح وجوه الناس فى الطريق فيرى عيونهم تنظر إليهم شزرا ، فيهمّ فى كل حين أن ينقلب راجعا فلا يستطيع كأنما يحبسه حابس ، ويقول لنفسه فى كل مرة : « لعلى أستطيع إذا تقابل الجيشان أن أصنع شيئا ، فأقنع أبى أو أقنع أسد الدين » !

ولكنه لما بلغ قريبا من البهنسا إذا جماعة يرددون هذين البيتين من بعيد ويترنمون بهما على لحن خاص :

قالوا : مرى أسلم قلنا : شاور كفر !
قالوا : غدا يهزم قلنا : ما له مفر !

وكان قد سمعهما من قبل فى القاهرة ، فهاله أن هذا اللحن قد انتشر فى البلاد بتلك السرعة ، فثارت شجونه ، وتعاظم ما به حتى كاد يسقط عن فرسه ولم يستطع مضيا ، فغافل والده فانسل من جانب الجيش وصرف عنان جواده تلقاء الشمال ، فكر راجعا يسابق الريح .

ولم يعلم شاور . بانقلاب ابنه إلا بعد حين فأظهر قلة الاكتراث ، وقال : اتركوه فإنه يشكو صداعا ، فقلت له عد إلى أهلك .

وبصر « مرى » بما يبدى الناس من الكراهية والعداء ، فشكا ذلك إلى شاور فقال له شاوْر : « لا عليك منهم يا صديقى الملك . بعد غد نسمعهم يهتفون لنا فى طريقنا عائدين ، فأهل مصر دائما مع الغالب على المغلوبَ » !

قال ذلك وهو يعلم أنه كاذب ، ولكن ليلقى السكينة فى قلب حليفه.

ورأى شجاع وسمع من الناس وهو عائد أكثر مما رأى وسمع وهو ذاهب ، فكأنما أحسوا بالأمن بعد أن مر جيش شاور وحلفائه فانطلقت حناجرهم تردد ذلك اللحن فى استهزاء وسخرية .

قالوا : مرى أسلم قلنا : شاور كفر !

قالوا : غدا يهزم قلنا : ما له مفر !

فكان شجاع يشيح بوجهه ويصم أذنيه ، ويلهب جواده بالسوط ليضاعف من جريه ، حتى إذا وصل إلى الجيزة رأى الناس يشيرون إليه كأنهم عرفوه ، ثم صاحوا بأعلى صوتهم يترنمون فى وجهه ليسمعوه .

قالوا : مرى أسلم قلنا : شاور كفر !

قالوا : غدا يهزم قلنا : ما له مفر !

فأعرض عنهم وتصامم حتى عبر إلى القاهرة فسمع اللحن فى شوارعها أيضا ، ولكن بأصوات أقل جهرا مما سمع فى الجيزة .

وما إن وصل إلى البيت حتى انطرح فى حجر أمه يبكى بكاء الطفل ، ودخلت سمية فانضمت إلى أمه فجعلتا تواسيانه وتسريان عنه .

وكانتا تعلمان من قبل ما يجول فى نفسه ، أما أمه فكانت تلومه على تشككه وتردده فى تأييد أبيه وتقول له : « إن أردت الخير والبركة فلا تتردد فى طاعة والدك » . وأما سمية فكانت تشاركه شعوره وتقاسمه آلامه وآماله . دون أن تقول أطع والدك أو خالفه ، ولكنهما لما رأتاه قد رجع هو على هذه الحال لم تقولا له : أحسنت أو أسأت ، بل اقتصرنا على مواساته والتسرية عنه .

حتى هدأ بعض جأشه فشرع هو يقص عليهما قصته من أولها إلى آخرها . فلما فرغ عادت أمه تلومه على ما فعل قائلة : « من كان يصدق ؟ ابن شاور يتخلى عن أبيه فى ساعة الحرب ؟ شاور سيد الرجال وأشجعهم وأفصحهم يعجز عن إقناع ابنه بأن يقاتل معه ؟ شاور الذى استطاع أن يطوى ملك الفرنج وجيوش الفرنج تحت أبطيه ! فعبر بهم البحر وقطع بهم البر . لم يستطع أن يحكم ابنه الذى يعيش تحت سقف بيته ؟! » .

فقال لها شجاع : « بعض تقريعك يا أماه ، فلو شهدت ما شهدت من عيون الناس وألسنتهم ما قلت هذا الذى قلت » .

ـ الناس ؟ ما قيمة هؤلاء الناس يامسكين ؟ لو بالى أبوك بما يقولون أو يفعلون لما بلغ المقام الرفيع الذى هو فيه .

ثم قالت له فى النهاية : « أما من جهة أمك ياشجاع فإنها تحمد الله على أن عدت إليها سالما ، فكفى ما ثكلت أخويك من قبل ، ولكنى آسى على أبيك ، كيف يقابل وجوه الرجال إذا سألوه أين ذهب ابنك ؟ يا عينى عليك يا أبا سليمان ! » .

أما سمية فقد ظلت صامتة طوال الوقت . ولكنها لما خلت به بعد ذلك قالت له : « لا تبتئس ياحبيبى ، فما فعلت إلا خيرا ، لقد أديت ما عليك لربك وللمسلمين ، فلما لم تبلغ ما تريد كرهت أن تغمس سيفك فى دمائهم ، فتركت الفريقين ليحكم الله بينهما وهو خير الحاكمين » .

فاستنار وجهه ، وكأنما أراد أن يزيده نورا فغيبه فى غدائر شعرها المتوهج وهو يقول : « سلمت لى يا سمية يا حبيبة الروح والقلب ، والله ما أدرى ماذا كنت أفعل لولاك » .

وهكذا اطمأن ضميره إلى صواب مافعل ، ولكنه بقى فى قلق على مصير المعركة التى توشك أن تنشب بين الفريقين ، ولا يدرى على التحقيق لأيهما يتمنى فى قرارة نفسه النصر ، ففى أحدهما جيش

المجاهدين فى سبيل الله وفى الآخر أبوه . يالقسوة الأيام ! لم لا يكون أبوه الحبيب فى الجيش الحبيب ؟ إن شاور لم يزل فى رأيه مسكينا ظلمته المقادير ، فأسلمته إلى أمور مشتبهة يخوضها وهو كاره ، وقد قل رجاؤه الآن أن يصطلح أبوه وأسد الدين على عدوهما وعدو العرب والمسلمين ، فلم يبق له إلا أن يأمل أهون الشرين وأخف الضررين : أن ينهزم فريق أبيه ، ويعود أبوه سالما عسى أن يوفق فى المستقبل إلى انتهاج السبيل الواضح ، فيرضى الله ويرضى الناس ، فابتهل إلى الله داعيا أن يحقق له هذا الأمل اليسير .

وكأنما شاء الله أن يستجيب دعوة هذا الشاب الصالح . فإذا الأنباء بعد أيام بأن الفريقين التقيا فى الصعيد الأعلى عند البابين ، فانجلت المعركة بانهزام جيوش شاور وحلفائه على كثرتهم وانتصار جيش أسد الدين على قلته ، فكانت آية تحدث عنها الناس طويلا فرحين متعجبين : كيف استطاع جيش قليل العدد والعدد أن يهزم أجناد مصر وجيوش الفرنج مجتمعين ؟ فأشاد بعضهم ببطولة أسد الدين ورجاله . وذهب الآخرون إلى أنها معجزة من السماء لا يد فيها لأهل الأرض ، وقد فاتهم جميعا أن أسد الدين لم ينتصر ببطولة رجاله ، وقوة إيمانهم فحسب ، ولا بملائكة أرسلها الله من السماء ولكن بملائكة أرسلها له من الأرض ، فقد كانت معه قلوب المصريين جميعا ، وبعض أيديهم فأتم الله له بذلك النصر .

وقد أدرك أسد الدين ورجاله هذه الحقيقة ، ولكن المصريين أنفسهم لم يدركوها .. ياويح هذا الشعب ؟ لقد غفل عن تلك القوة الهائلة التى أودعها الله فيه . فجعله قادرا أن ينصر من يشاء ، وإن قل عددا وعدة . ويهزم من يشاء وإن كثر جمعا وتكامل قوة ، ولقد تمت المعجزة على يديه اليوم وهو لا يدرى .. ترى ماذا كان يكون حاله لو وعى حقيقة نفسه ودرى ؟!

١٢

وإذ أدرك أسد الدين ما لهذه القوة من عظم الأثر في انتصاره فقد رأى أن يمضي في استثارتها إلى أقصى مداها ، فسير ابن أخيه صلاح الدين في فرقة من جيشه ليتوجه شمالا صوب الإسكندرية وسار هو بمن بقي من الجيش يتوغل في أقصى الصعيد ، فكان الناس في كل محلة يحيون أسد الدين الصاعد صوب الجنوب ، وصلاح الدين الهابط صوب الشمال ، حتى بلغ صلاح الدين الإسكندرية ، فإذا أهلها يفتحون له أبوابها على مصاريعها ويستقبلونه كأنه ابن من أبنائها قد خرج يقاتل العدو في ميدان بعيد ، ثم رجع مظفرا على هامته أكاليل الغار .

وكان شاور وحلفاؤه قد رجعوا بفلول جيوشهم إلى القاهرة حيث أقبل بعضهم على بعض يتلاومون .

قال « مرى » لشاور : « أتستطيع أن تشرح لي يا شاور كيف استحر القتل في رجالنا دون رجالكم ؟ لقد قتل منا الألوف ولم يقتل منكم إلا ألفان أو أقل » !

فأجابه شاور قائلا : « يسأل عن هذا رجالكم أنفسهم » .

فغضب « مرى » واحتد قائلا : « أتريد » أن تقول إن رجالك المزوقين كالعرائس أشجع من رجالي وأشد بطشا ؟

فتضاحك شاور قائلا : « لا تسئ يا صديقي فهم قولي .. لعل القتل كثر في رجالك لأنهم أشجع والشجاعة قتالة » .

فهدأ مرى قليلا ثم قال له شاور : « أتدرى أيها الملك ما مثلي ومثلك الآن ؟

ــ قل ....

ــ مثلي ومثلك الآن كمثل تاجر واسع أحصى ما في يده من المال فبكى ولطم ، ونسى أمواله التي تحملها السفن في البحر والقوافل في البر ، ونسى الديون التي له عند العملاء ولو أحصاها لرقص طربا .

وكذلك أدركوا أن التلاوم على مافات لا يجديهم نفعا وأن عليهم أن يستأنفوا أهبة القتال ، فإن يكونوا قد خسروا معركة البابين أمس فإنهم ما خسروا الحرب بعد ، وعسى أن يكسبوها غدا إذا نظموا الصفوف وأحكموا الخطط .

ونظروا فوجدوا أسد الدين في الصعيد وصلاح الدين في الإسكندرية فأجمعوا أمرهم على المسير لقتال صلاح الدين وإخراجه من الإسكندرية .

وكان شجاع قد استقبل أباه استقبال منتصر لا منهزم ، وقال له أول ما رآه : « الحمد لله يا سيدى إذ عدت إلينا سالما » .

فأعرض عنه شاور ولم يرد عليه ، إذ خشى أن يغلبه الغضب فيصدر منه مالا يجمل به أمام الناس ، فبقى كاظما غيظه حتى وصل إلى البيت فانفجر :

— الحمد لله إذ عدت إلينا سالما ! أتسخر بى أيها الولد العاق ؟

فاضطرب شجاع وهو يقول : «كلا والله يا سيدى .. معاذ الله » !

— أفكنت تنتظر أن أحمل قتيلا إليك ؟

— ذاك ما دعوت الله ربى ألا يكون ...

— أنا لست جبانا مثلك !

— سامحك الله يا سيدى .. إنك تعلم أن ابنك ليس كما ذكرت .

— أجل .. أسد فى بلبيس ونعامة فى الصعيد ...

— يا سيدى إنك تعرف عذرى ...

— لا عذر لك فى التخلى عنى يوم اللقاء ....

— لم أجد لى نية فى قتال القوم فكفيتك نفسى ، فما ينبغى أن يكون بين رجالك متردد يورث الفشل ...

— لم تجد نية فى القتال معى .. ولكنك وجدتها فى القتال خلافى !

— يا سيدى كنت أقاتل العدو يومذاك !

ــ عدو من ؟

ــ عدو البلاد .. عدو العرب والمسلمين ...

ــ وعدوى أنا .. ألا تقاتله معى ؟

ــ ليس أسد الدين عدوا لك يا سيدى ، وإنما بينكما خلاف أرجو أن يزول فى المستقبل فتتحدوا على العدو الحق ...

ــ ما شاء الله .. ما شاء الله .. لعلك تريد منى الساعة أن أذهب إليه فأركع أمامه ليقبلنى أسيرا عنده !

وهنا غلب شجاعا البكاء ، فانسحب من وجه أبيه ، وأبوه يقول : « ابك اليوم كالنساء ! ليت أمك ولدتك جارية » !

وأقبلت زبيدة على شاور تقول له : « دعه يا سيدى فكفى ما قرعته ووبخته وأنت تعرف حسن نيته » .

ــ زبيدة إن ابنك قد أصبح لى عدوا فى بيتى !

ــ حاش لله يا سيدى ، وحياة رأسك إنه ليحبك !

ــ الحب طاعة البنات . وطاعة البنين العون والنصرة ..

ــ صدقت يا سيدى ، لعل الله إذ لم يرزقك بنتا تحنو عليك جعل لك حنانها فى قلب شجاع ، بحياتك سامحه من أجلى .

فسكت شاور قليلا ثم قال لها : « لو كانت هفوة منه يا زبيدة لوهبتها له ولكنها لوثة متأصلة لا فكاك له منها ولا فكاك لى منه !

فقالت زبيدة والدمع يترقرق فى عينيها : « افعل يا سيدى ما ترى فأنت أغلى من كل غال عندى » .

ونظر شاور إليها فأدركته الرقة ، وقال : « لا تبتئسى يا أم شجاع ، لك عندى ما تحبين وأكثر ... »

وسرت زبيدة إذ دعاها أم شجاع ، وعرفت أن شجاعا لم يزل غاليا عنده فقالت : « صانك الله يا أبا شجاع ولا حرمنا برك وعطفك ».

ونهض شاور من ساعته فالتمس ابنه فوجده فى حجرته كئيبا حزينا وعنده زوجته تواسيه ، فأقبل إليه فجذبه إلى صدره وعانقه قائلا : « لا عليك يابنى . إنى سامحتك وعفوت عنك » .

فانهمرت الدموع من عينى شجاع وهو يقول : « جعلت فداءك يا سيدى ، يعلم الله أن رضاك عندى بالدنيا وما فيها » .

وهكذا زال كل شىء بينه وبين أبيه وعاد الصفاء بينهما كما كان .

ولكن شجاعا لم يلبث أن علم بعزم القوم على السير إلى صلاح الدين بالإسكندرية ، فعاوده همه وقلقه ، وهم أن يكلم أباه ليعدل عن عزمه ، ثم تراجع ليأسه من استجابته وخوفه أن يتجدد غضبه عليه ، فماذا يصنع ؟ إن عليه أن يصنع شيئا ليحول دون انتصار الفرنج على جيش أسد الدين ، فليكتب إلى أسد الدين ليسرع بنجدة ابن أخيه ، ولكن من ذا يحمل الكتاب إلى الصعيد ؟ إنه يخشى أن يطلع أبوه على سر الكتاب ، فيستوجب نقمته وغضبه ولن يسامحه بعد ذلك أبدا .

وكاشف سمية بما فى نفسه ، ولم يكاشف به أحدا سواها فقالت له : « اكتب الرسالة ولك على أن تصل إلى أسد الدين بأسرع وقت دون أن تخشى انكشاف السر لأحد ».

— كيف ياسمية ؟

— عن طريق الفضل أخىَ ...

وكانت سمية قد علمت من أخيها أن أباهما فى جيش أسد الدين متنكرا لا يعرف حقيقته أحد ، ولكنها لم تخبر شجاعا بهذا السر لأن أخاها استحلفها أن تكتمه حتى عن زوجها .

وذهبت سمية لتزور بيت أخيها ، فحملت الرسالة معها إليه ، وأسرع الفضل فسلم الرسالة إلى أحد جماعة أبيه ، فطار بها إلى أبى الفضل عند أسد الدين .

وجاء يوم مسير شاور وحلفائه إلى الإسكندرية ، فعجب شاور حين رأى شجاعا قد استعد للمسير معهم . فقال له : « اسمع يابنى إن كنت تريد أن ترجع من نصف الطريق ، كما فعلت من قبل ، فاقعد هنا خيرا لى ولك . »

فأجابه شجاع قائلا : كلا يا سيدى لن أرجع من نصف الطريق ولن أتخلى عنك أبدا » .

ورأى شاور منه الجد والتصميم ، فتركه يمضى معه .

ولما وصلوا إلى الإسكندرية أعجزهم اقتحامها لبسالة أهلها فى الدفاع عنها مع جيش صلاح الدين ، فحاصروها من كل جانب ، وكان ملك الفرنج قد أرسل إلى قراصنتهم بساحل الشام فأرسلوا سفنهم فى مياه الثغر يقطعون الطريق على كل سفينة تحمل الميرة إلى أهله .

فتم تشديد الحصار عليها من البر والبحر ، ولكن أهلها أبدوا من الصبر والمصابرة والحمية والبسالة فى الدفاع ، ما أدهش صلاح الدين وذكره بأهل بلبيس وقال فى نفسه : « أمة بعضها من بعض لو لم يذلها حكامها الظالمون » !

على أنه شهد فى أهل الإسكندرية ما لم يشهد فى أهل بلبيس من الخبرة بوسائل الدفاع والقدرة على إعدادها والمهارة فى إقامتها ، ووجد بينهم زعيما شجاع القلب ، حكيم الرأى ، يتولى ديوان المدينة ويدعى الرشيد بن الزبير . علم صلاح الدين أنه هو الذى جمع كلمتهم على نصرته ، ولكنه لم يعلم إلا فيما بعد أنه من أصدقاء أبى الفضل ومن جماعته المصلحين .

وذهل المحاصرون إذ بلغهم أن أسد الدين قد طار من أعلى الصعيد إلى القاهرة فحاصرها على من تخلف فيها من جنود شاور وجنود الفرنج .

وخشى شاور وحلفاؤه أن تسقط القاهرة فى يده ، إذ تركوها يوم تركوها دون استعداد لمثل هذا الحصار الذى لم يخطر لهم على بال ،

وخافوا أيضا مما شهدوا من مقاومة أهل الإسكندرية وتضامنهم مع صلاح الدين ، وما رأوا قبل ذلك من سخط الناس عليهم فى كل مكان فأشفقوا أن يحاط بهم من خلفهم ومن أمامهم وحار القوم ماذا يصنعون .

وهنا تقدم شجاع إلى أبيه واقترح عليه أن يوفده إلى أسد الدين ليعرض عليه الصلح بين الفريقين ، فوجد من أبيه إعراضا وتأبيا ، واتهمه بأنه ينظر إلى أسد الدين فقال له شجاع : « أنا لا أنكر يا سيدى أنى كنت أسعى أمس إلى جمع كلمة المسلمين على أعدائهم الفرنج فلم ينجح مسعاى . وحملت أسد الدين تبعة ذلك . أما اليوم فإنى لا أنظر إلا إلى مصلحتك قبل كل شىء . أنتم هنا اليوم فى حال لا تحسدون عليها . فانتهزوا هذه الفرصة قبل أن تسقط القاهرة فى يد أسد الدين فتحدثه نفسه بالمسير إليكم ، وقبل أن يعلم صلاح الدين بأن عمه قد وصل القاهرة فحاصرها فيتشدد ويرفض . »

وتعجب شاور مما سمع من ابنه من صواب الرأى وبعد النظر على خلاف ما عهد فيه ، ووجد فى حديثه من حرارة الإخلاص ما استحق عنده النظر والاهتمام . وتذكر صلح بلبيس وما انتهى به من خروج الجيشين معا من أرض مصر . فقال لنفسه : « لم لا يتم اليوم صلح كهذا ، فأتخلص من هؤلاء جميعا ؟ أليس هذا خيرا حتى من انتصارى مع الفرنج على جيش أسد الدين ؟ ما يدرينى حينئذ ماذا يصنع هؤلاء الفرنج معى ؟ ألا يحتمل أن يطمعوا فى البلاد فيجدونى عقبة فى طريقهم فيميلوا عنى إلى العاضد فيوافق لهم على كل شىء ماداموا يضمنون له بقاء عرشه وذلك عندهم هين يسير ؟ أجل لو كنت مكان « مرى » لفعلت ذلك . فالعاضد هو الذى وقع الميثاق معه دونى . ويله ! لعله ما اقترح توقيع العاضد عليه إلا لأنه كان ينوى أن يسلك هذا السبيل بعد أن يستعين بى فى هزم جيش نور الدين ؟

ولم يلبث شاور أن اقتنع برأى شجاع ، ولكنه لم يجرؤ أن يفاتح حليفه « مرى » فيه إذ خشى أن يظن به ظنا ، وهو يعلم أن « مرى » فى قلق شديد ، فلم لا يصبر حتى يفاتحه « مرى » فى الأمر من عنده ؟

وأبدى شاور مزيدا من القلق والتخوف . وصار يلحّ على «مرى» أن يهاجموا الإسكندرية بأى ثمن قبل أن يعلم أهلها بأن أسد الدين قد حاصر القاهرة فتقوى عزيمتهم على الاستماتة فى الدفاع .

فاعترض « مرى » على هذا الرأى وقال : إن الإقدام على ذلك يعنى اليأس والانتحار :

ـ إذن فلنمض إلى القاهرة لنقاتل أسد الدين .

ـ هذا أخطر علينا من ذاك . فإنا لا نعلم ماذا أعد أسد الدين هناك ، ثم لا نأمن أن يطرد صلاح الدين فى أثرنا فنقع بين نارين .

ـ قد اقترحت ما عندى .. فاقترح ما عندك ..

فأطرق « مرى » مليا ثم قال له : أخشى ألا يكون لنا مخرج من هذه الورطة إلا الصلح » .

فأظهر شاور كراهيته لذلك فى أول الأمر ثم قال : « إن كان لابد من صلح فلنعجل به لنضمن لأنفسنا شروطا مرضية ، فاختر أحد رجالك لينطلق إلى أسد الدين فيفاوضه فيه » .

ـ بل اختر أنت رجلا من قبلك ...

ـ إنه يبغضنى ولا يطيقنى ...

ـ وهو يبغضنا نحن أكثر .

وبعد لأى وقع الاختيار على شجاع ، فانطلق فرحا يسابق الريح صوب العاصمة .

واكتشف شجاع بعد وصوله إلى أسد الدين أن القيام بمهمته ليس هينا كما ظن ، فقد كان عليه لينجح فى إقناع أسد الدين بقبول الصلح أن يكتم عنه ما يعانيه شاور وحلفاؤه من القلق والخوف . وفى ذلك

مشقة عليه إذ يشعر أنه يخون بذلك قضية العرب والمسلمين ، ولكنه عزّى نفسه بأن أهل الإسكندرية أيضا فى ضيق وكرب قد يدفعانهم إلى التسليم ، ولا سيما أنهم يجهلون حتى اليوم حصار أسد الدين للقاهرة .

ثم إن فى ما يطمع فيه من خلاص أبيه واحتمال صلاح الأمر بينه وبين نور الدين فى المستقبل ، وتكفيره بذلك عما تورط فيه من محالفة الفرنج حتى وصم نفسه بالخيانة عند الناس . ما هون عنده كل ما يأتى فى هذا السبيل ، مهما يجد فى نفسه حرجا منه أو تأثما .

غير أنه وجد عند أسد الدين من الارتياح لفكرة الصلح ما أزال ما بقى فى نفسه من الشعور بالحرج فاطمأن قلبه وانشرح صدره .

فقد كان أسد الدين قبل مجىء شجاع قد شعر هو أيضا بحرج موقفه ، فإن حصار القاهرة قد يطول وربما يضطر أهل الإسكندرية إلى التسليم حين يشتد الضيق بهم من حصار البر والبحر . وقبل أن تسلم القاهرة له فإنها مازالت مليئة بالأقوات والذخائر ، وإذا بدأ القوت يشحّ فيها ، فسيقع الضيق والجهد على أهلها قبل أن يقع على من فيها من جنود الفرنج وجنود شاور ، وسيفضى ذلك إلى تذمرهم من فعل أسد الدين الذى ضرب الحصار على مدينتهم ، فتميل عنه القلوب التى كانت تميل إليه فيخسر بذلك القوة التى كانت من أكبر أسباب انتصاره . وهو حريص على تنمية هذه القوة ليعتمد عليها فى صراعه فى المستقبل ، إذ أيقن أن الصراع بينه وبين الفرنج فى مصر لا يمكن أن ينتهى فى هذه الجولة . بل يحتاج إلى جولة أو جولات أخرى يكون هو فيها أكثر جيشا وأقوى عدة ويكون شعب مصر أشد تحمسا له وأكثر استعدادا لمناصرته على العدو المشترك .

ومما زاده ترحيبا بالصلح أنه جاء على يد شجاع الذى كان له الفضل الأول فى تنبيهه إلى الخطر وحثه على الإسراع لتداركه ، مؤثرا بذلك مصلحة العرب والمسلمين على مصلحة أبيه ، وأن شاور وحلفاءه

هم الذين تقدموا بعرضه ، وذلك أفضل له وأكرم وأحرى أن ييسر له الحصول على شروط أفضل .

وكان أبو الفضل مختبئا خلف الخباء ، فسمع كل ما دار بين أسد الدين وشجاع . كما فعل فى معسكر أطفيح ، ولكنه حين سمع نغمة الصدق والإخلاص فى صوت زوج ابنته ، وتذكر النذير الذى تطوع بإرساله إلى أسد الدين ، وتذكر ابنته سمية ، وقد اشتد شوقه إليها بعد هذا الفراق الطويل ، لم يملك نفسه أن دخل الخباء وبسط ذراعيه لشجاع فاعتنقا فى شوق وحنان .

وفهم شجاع عند ذلك أين كان أبو الفضل وماذا كان يصنع ، فحمد الله على سلامته ، وتذكر زوجته سمية التى تنتظره الآن فى المدينة المحاصرة ، فهاجت شجونه وتشوق أن يتم الصلح بأسرع ما يكون .

ورجع شجاع يحمل البشرى إلى أبيه ، وترددت الرسل بين الفريقين بعد ذلك ، ولم يلبث أن تم الصلح بينهما ، على نحو ما تم فى صلح بلبيس من وجوب جلاء الجيشين : جيش « مرى » وجيش أسد الدين عن أرض مصر ، إلا أن « مرى » اشترط هذه المرة أن يجلو أسد بجيشه أولا ثم يتلوه هو ، فقبل أسد الدين بعد اعتراض يسير .

ووقع « مرى » وأسد الدين وثيقة الصلح ، وكلاهما يكاتم الآخر ما فى نفسه من العزم الأكيد على معاودة الكرة فى أقرب فرصة مواتية ، ولكن لغرض مختلف ، أما « مرى » فليستولى على مصر ليتقوى بها على نور الدين ، وأما أسد الدين فليخلصها من وزيرها الخائن فيؤمنها من الوقوع فى أيدى الفرنج ، ثم ليوقظ هذا البلد العظيم من سباته الطويل حتى تنطلق منه يوما كتائب التحرير وجحافل القوة والمجد : فتعصف بالفرنج وتخرجهم من أرض الشام إلى الأبد .

١٣

وفك الحصار عن الإسكندرية وعن القاهرة فى وقت واحد ، فتنفس أهلهما الصعداء ، غير أن أهل الإسكندرية حزنوا لفراق صلاح الدين بعد ما عرفهم وعرفوه وأحبهم وأحبوه ، وجمعتهم به محنة الحصار وزمالة الدفاع . فشيعوه بقلوب مكلومة وعيون دامية .

أما أهل القاهرة فكانت عواطفهم مبهمة مختلطة ، فهم يحنون إلى الاستقرار ويطمعون فى أن يسفر هذا الاتفاق الثلاثى عنه ويفضى إليه ، ولكنهم يرون أسد الدين يرحل بجيشه عائدا إلى الشام ، من حيث يرون ملك الفرنج باقيا بعد بجيشه فى العاصمة وما حولها ، ولا يدرون ماذا هو صانع . ثم يرون شاور قد رجع إلى سلطانه مزهوا بما زعم أنه استطاع أن يجلى الجيشين معا ، فحفظ بذلك استقلال البلاد ، وكأنما لم يجن إثما ولم يرتكب خيانة ، إذ حالف الفرنج أعداء العرب والمسلمين فقاتل معهم العرب والمسلمين .

ولكن أهل الفسطاط لم تخدعهم المظاهر ، إذ كانوا على بصيرة من أمرهم ، فأدركوا أن شاور لم يصنع شيئا غير ما ارتكب من إثم الخيانة ، وأن الاتفاق الذى تم إنما كان هدنة بين جيش الفرنج وجيش نور الدين ، وأن هذه الهدنة فى مصلحة الفرنج ، وأن التبعة فى ذلك على شاور ثم على العاضد . وألا أمل فى خلاص البلاد ما بقى هذا فى الحكم ، وهذا على العرش .

وما لبثت الأيام القريبة أن جاءت بمصداق ما كانوا يعتقدون ، فهذا « مرى » بعد أن مكث أياما فى القاهرة جعل يطالب بتنفيذ الميثاق الذى وقعه العاضد . فلما ذكره شاور بأن اتفاق الإسكندرية يجب ما قبله ويلغى كل ما سبقه ، أجابه « مرى » بأن الاتفاق إنما ينسخ الجانب السياسى من الميثاق ولا شأن له بالجانب التجارى منه فهو باق كما كان ، وأنذره بأنه لن يبرح بجنوده البلاد حتى يضع

ذلك موضع التنفيذ ، وأومأ له من طرف خفي بأنه إن عارض في ذلك فسيعتمد على العاضد دونه .

وكان العاضد قد أرسل يستدعي شاور إليه عقب فك الحصار عن القاهرة ليكرمه ويخلع عليه ، فلما جاء شاور إلى القصر أحسن العاضد استقباله وأكرم مجلسه وأعرب له عن سروره لتوفيقه في عقد هذا الصلح الذي بموجبه سيجلو الجيشان معا من أرض مصر ، فقال له شاور : « يسعدني يا مولاي أنك راض عن وزيرك » .

قال العاضد : « ليس كل الرضا يا شاور » .

فظن شاور أنه سيعتب عليه ما كان من إعراضه عنه وعدم الرجوع إليه في شيء فقال : « إني معتذر إلى مولاي إن حصل مني تقصير في حقه » .

- كلا يا شاور إني لم أقصد ذلك .

- فأي شيء قصدت يا مولاي ؟

- علام رضيتم ببقاء « مري » بعد رحيل أسد الدين ؟

- اشترط « مري » ذلك فقبل أسد الدين ..

- هذا حق من حقوقنا لا شأن لأسد الدين به .. وكان عليك أنت أن ترفض .

- لم أشأ يا مولاي أن أعطل إبرام الاتفاق من أجل شرط هين كهذا ....

- ما يدريك يا شاور أنه شرط هين ؟ ألا تخشى إذا تخلف « مري » بيننا أن يبدو له فيتمسك بالميثاق ...

- لا حق له في ذلك ، فإن صلح الإسكندرية قد جب كل ما سبقه .

- أجل ، ولكن في الميثاق على ما أذكر شرطا تجاريا لا صلة له بالسياسة والحرب . فأخشى أن يتمسك به ملك الفرنج .. فماذا أنت صانع ؟

وارتاب شاور عند ذلك فى غرض العاضد ، ولكنه أخفى ارتيابه وقال : « حينئذ سأرى يا مولاى ماذا أصنع » .

قال له العاضد : « ربما لا تقدر على رفضه وجنوده تحتل العاصمة » .

فسكت شاور و لم يجب .

ومضى العاضد يقول : « لكن من يدرى لعل فى هذا الذى نكره اليوم ما ينعش حركة التجارة عندنا وينشر الرخاء فى الناس ، ماذا ترى فى ذلك يا شاور ؟

فأطرق شاور قليلا ثم قال : إذا اقتصر الأمر على ذلك ، فلا بأس ، ولكنا نخشى أن يكون ذلك قنطرة إلى التدخل فى شئوننا » .

وتنهد العاضد قائلا : « صدقت يا شاور . أسأل الله أن يقى بلادنا سوء المآل ، إنى على كل حال مطمئن إلى حكمتك وحسن سياستك.

وقام العاضد فأخرج حلة سنية فخلعها على شاور .

وخرج شاور من عنده وهو يقول لنفسه : « لا بد أن « مرى » قد اتصل به وتواطأ معه .

فلما سمع من « مرى » هذا التلميح اليوم ، تأكد عنده صدق ما ظن من قبل ، فلم يجد بدا من الموافقة .

وكان « مرى » قد جاء معه بطائفة من التجار ، فدعا شاور طائفة من تجار القاهرة ليجتمعوا بهؤلاء فيتدارسوا الوسائل والسبل ، لتنظيم التبادل التجارى بين مصر وبلادهم بالشام ، فلما انتهوا من ذلك ذهب « مرى » إلى شاور ، فقال له : إنى سأترك حامية من جيشى فى القاهرة لحماية مصالحنا عندكم » .

فقال له شاور : هذه مصالح مشتركة بيننا وبينكم وسنحميها نحن لنا ولكم ، فإن كنتم لا تثقون بنا فلا تعامل من غير ثقة » .

قال « مرى » : « نحن نثق بكم أنتم ، ولكنا فى حرب مع نور الدين ولا نأمن أن يرسل جيشه مرة أخرى لامتلاك مصر » .

وهم شاور أن يصر على المعارضة ، ولكنه ذكر العاضد ، وما يخشى من موافقته فسكت ووافق .

١٤

وكان شجاع قد فرح فرحا عظيما يوم تم عقد الصلح وفك حصار القاهرة ، فهرع إلى بيته ليلقى سمية ويبشرها بأنه لقى أباها عند أسد الدين ، وأنه بخير وعافية ، وأن الأمان الذى اشترطه أسد الدين على شاور قد شمله فيمن شمل من أولئك الذين تطوعوا من أهل البلاد فانضموا إلى معسكر أسد الدين أو قاموا بمناصرته ، وأنه آت للقائها عما قريب بعد أن ينتهى من توديع أسد الدين ورجاله .

وفرحت سمية بقرب لقاء أبيها ، فقد كانت فى شوق إليه بعد هذا الفراق الطويل ، وإن كانت تعلم ما سوى ذلك مما بشرها به زوجها الذى لا يعلم أنها كانت تعلم من أمر أبيها ما يجهل ، على أن فرحها لم يكن خالصا من شوائب الكدر والخوف ، فقلبها يحدثها بأن الذى بين أبيها وبين شاور إن يصف اليوم قليلا ، فريثما يتكدر مرة أخرى حينما تتلبد الغيوم من جديد .

ولكنها لم تشأ أن تفسد على زوجها ما هو فيه من البهجة والانشراح فى ذلك اليوم الباسم من بين أيامه العابسات ، فكتمت ما فى نفسها عنه وانبرت تقاسمه الفرح والابتهاج .

وطفق شجاع يحدثها عن آماله فى التوفيق بين أبيه ونور الدين وإصلاح ذات بينهما حتى يتحدا معا ، ويتعاونا على جهاد الفرنج وإخراجهم من بلاد الشام فيزول بذلك ما اتهم الناس به أباه من خيانة الدين والوطن . فيما دفع إليه وأكره عليه من مصادقة الفرنج فى الظاهر ، إذ حيل بينه وبين مصادقة أسد الدين بعد الذى كان منه فى بلبيس . وقال لها : إنه سيستعين بأبيها فى هذا السبيل لما له عند أسد

الدين من مكانة سامية ، ولما يربطه به من صداقة متينة شهد هو بعينه آياتها البينات .

وكتمت سمية أيضا ما فى نفسها ، فجعلت تبدى له أنها تشاركه فى آماله العراض .

لله قلب سمية ! ما أثقل ما ينوء به من الهموم والآلام ! ما كان أسعدها بزوجها ، وأسعده بها لولا أبوه ! وما كان أسعدهم جميعا لولا هذه الأحوال المضطربة التى تتقلب فيها البلاد !.

وبلغ سرور شجاع ذروته حين تم التزاور بين أهله وأهل سمية ، فاجتمع شملهم بعد شتات ، وعاد التصافى بينهم بعد قطيعة وخصام . هاتان أمها وأمه تتحدثان فيما يعنيهما وما لا يعنيهما من الشؤون ، وهذان أبوها وأبوه يتناجيان فى صفاء وقد يتعاتبان قليلا ولكن لا يعدوان العتاب الجميل .

وما كان يهم شجاعا أن يسمع ماذا يقولان ، فحسبه أنهما اليوم متوادان متصافيان ، وما كان يدرى وهو يراهما على هذه الحال من الصفاء ماذا كان يدور فى باطن كل منهما نحو صاحبه : فأما شاور فقد أحس أنه وحيد وأن الناس جميعا يكرهونه ويتهمونه ، وأن مستقبله فى الحكم غير ثابت ولا مستقر ، فرأى أن يتودد إلى أبى الفضل ليستعين بجاهه على اجتذاب قلوب الناس إليه من جديد ، ولينتفع برأيه فى اجتياز هذه الفترة الدقيقة من فترات حكمه ، وهو بعد ذو قرابة ورحم ، فلا ينبغى أن تدوم القطيعة بينهما فتجور على من يلوذون بهما من الأهل والولد .

وأما أبو الفضل فكان قد تذاكر مع أسد الدين طويلا فى قضية البلاد ومستقبلها قبيل إبرام صلح الإسكندرية ، وفيما يحتمل أن يحدث بعد جلاء أسد الدين بين الفرنج وشاور . فاتفق رأيهما على اعتبار هذا الاتفاق هدنة مؤقتة فلا بأس من التساهل فيها مع شاور ومع الفرنج ،

وأن عليهما أن يعملا على التمهيد للجولة التالية التى ينبغى أن تكون الفاصلة ، فتجتث الفساد اجتثاثا وتقبر مطامع الفرنج إلى الأبد .

ومن ثم رأى أبو الفضل أن يغضى عن كل ما فعل شاور ، ويستأنف معه عهدا جديدا من المودة ليتمكن فى خلاله من العمل فى حرية ، وإذا استطاع فى أثناء ذلك أن يرشده إلى ما يصون حقوق البلاد من أطماع الفرنج فذلك فضل خير .

وهكذا لم يكد شاور يقع فى المحنة عقب جلاء أسد الدين حينما تقدم إليه « مرى » بمطالبه فى تنفيذ الميثاق وإبقاء حامية له فى القاهرة حتى وقف أبو الفضل بجانبه يشد أزره ويشير عليه .

ولا تسل عن فرح شجاع وسعادته حينما رأى أبا الفضل لا يكاد يفارق أباه فى خلال تلك الأيام العصيبة يستشيره أبوه ويعمل بمشورته فقوى رجاؤه فى أن يصلح أبو الفضل بين أبيه وبين نور الدين حتى يتحدا معا فى جهاد الفرنج . ولم يملك من شدة سروره أن فاتح أبا الفضل فى هذا المعنى فوعده أبو الفضل خيرا . وقال له : « هذا غاية قصدى ياشجاع فعسى أن يعيننا والدك على تحقيقه » وذهب شجاع إلى أبيه فأخبره بما يسمع من أبى الفضل ، فسر شاور إذ قام ذلك دليلا عنده على إخلاص أبى الفضل فى الوقوف بجانبه حرصا منه على تحقيق هذا الهدف ، وقال لابنه : « من منا لا يرغب يا بنى فى توحيد كلمة العرب والمسلمين على عدوهم » ؟

وانطلق شجاع إلى سمينة فعانقها وهو يقول : « الآن يا حبيبتى اطمأن قلبى » .

وكان أبو الفضل هو الذى أشار على شاور بالموافقة على مطالب الفرنج إلى حين ، إذ خشى كما خشى شاور أن يميلوا عنه إلى العاضد فينالوا من العاضد أكثر مما يطلبون . فقد أيقن مما حدثه شاور عن مقابلته للعاضد أن للعاضد ضلعا فى الأمر . ولكن أبا الفضل على حصافته لم يكن أحسن من شاور فهما لحقيقة غرض العاضد . فقد ظن

معا أنه قصد أن تتم الموافقة على يديه تقربا إلى ملك الفرنج ، وفاتهما أنه لم يقصد إلا أن تجاب مطالب ملك الفرنج حتى يفيد هو من وجود حاميتهم فى العاصمة لضمان بقاء عرشه ، وحمايته من شاور ومن غيره .

وقد بلغ من حرص أبى الفضل على الاطلاع على كل ما يجرى فى هذا الصدد أن سلك نفسه فى جملة التجار الذين اختيروا للتفاوض مع تجار الفرنج ، فكشف له ذلك أن معظمهم ليسوا فى الحقيقة تجارا، وإنما هم رجال محاربون فى صورة تجار ، فلم يبق عنده شك أن للقوم مآرب أخرى .

ولكن قضى الأمر فإن مرى لم يغادر البلاد حين غادرها إلا بعد أن ترك وراءه حامية كبيرة من رجاله ، احتلوا الحصون القائمة على أبواب القاهرة ، فصارت مقاليدها فى أيديهم .

١٥

واشتد سخط الناس لما رأوا أبواب عاصمتهم فى أيدى الفرنج يتحكمون فى الغادين منها والرائحين إليها والخارجين ، وقالوا : « ماذا يبقى من استقلال بلد سلمت عاصمته للعدو ؟ وأخذوا ينحون باللائمة على شاور تارة وعلى العاضد أخرى ، بل إن منهم من ألقى التبعة فى ذلك على أسد الدين ، إذ رضى أن يرحل عن البلاد قبل رحيل الفرنج ، وكان عليه أن يصر على رحيلهم قبله أو فى الأقل على رحيل الجيشين معا فى وقت واحد . أهذا جزاء تأييدنا له وجهادنا معه ؟ وهل كان الفرنج يطمعون فى أكثر من هذا الذى أحرزوه ؟ علام إذن جاء البتة ليقاتلهم ؟ نحن لا نلوم شاور أو العاضد إذ ما كنا ننتظر منهما خيرا ولكن أسد الدين.. كيف يغرى الفرنج بنا ثم يتركهم ؟

غير أن أهل القاهرة ما لبثوا على مر الأيام أن نقص سخطهم منذ بدأ تجار الفرنج يتوافدون على العاصمة بغير انقطاع ، فأخذت التجارة

تنتعش في أسواقهم وصاروا يحصلون على كثير من سلع الشام وفاكهتها بأسعار طيبة . وصار تجارها يربحون كثيرا من تجارة تلك السلع ، ومن بيع سلع البلاد للتجار الفرنج ليصدروها إلى بلادهم ولا سيما القمح والأرز .

ثم فشا هذا الشعور شيئا فشيئا في سائر أهل مدن القطر وقراه . إذ وجدوا شيئا من الرخاء يشيع في أسواقهم بما يسحب تجار القاهرة من سلعهم وغلالهم ليبيعوها لتجار الفرنج ، فحصل عندهم رواج بعد كساد .

ولكن أهل الفسطاط ظلوا وحدهم مقيمين على سخطهم ممتنعين عن شراء سلع الفرنج ، مانعين تجارهم من التعامل معهم في بيع أو شراء ، وقد يتجاوز أحدهم فيشتري من بعض الفاكهة لرخص سعرها في القاهرة ويحملها إلى الفسطاط فينكر جيرانه عليه ويشهرون به .

وأغرى حب الربح نفرا من تجار الفسطاط ، فاجترأوا على عرض السلع المحرمة في حوانيتهم ، فما مر يوم حتى ضربوا وأهينوا ونهبت حوانيتهم وحطمت تحطيما .

وبلغ الفرنج ما حدث فشكوا إلى شاور واحتجوا عنده ، فقال لهم : « ماذا تريدون مني أن أصنع لأهل الفسطاط ؟ ليس في وسعي أن أكرههم على التعامل معكم فدعوهم واكتفوا بتجار القاهرة .

فقالوا له : « إن لم تقدر أن تعاقب أولئك الذين اعتدوا على حوانيت عملائنا فيها ، فإنا نحن نقدر على ذلك » .

فحذرهم شاور وخوفهم من سوء العاقبة ، وحملهم تبعة ما يصيبهم إن قدموا على ذلك ، فلم يبالوا بتحذيره ، واستدعوا أولئك العملاء ليدلوهم على الأشخاص الذين اعتدوا عليهم ، فترددوا وخافوا وقالوا قد نزلنا عن حقنا فلا عليكم ، ولكن الفرنج أرغموهم على ذلك ، ثم انطلق فريق منهم شاكو السلاح ، فوثبوا على بعض أولئك الأشخاص فأوسعوهم ضربا وجلدا ، حتى مات اثنان منهم وجرح الباقون .

فثارت ثائرة أهل الفسطاط ، وغلت الحمية فى نفوسهم ، وقالوا والله لانسكت على هذا أبدا ، ولاندع هؤلاء الشرذمة يستذلوننا ويتحكمون فى رقابنا ، ولنقاتلنهم ولنقاتلن أهل القاهرة إن وقفوا دونهم .

وطفق أبو الفضل يشجع هذه الحركة ، فى السر ، وانبث جماعته المصلحون يشبون نارها بين الناس ، ويتولون توجيههم وقيادتهم فيما يعملون وقد استطاعوا بإرشاد أبى الفضل أن يوجهوا هذه الثورة العارمة بحيث تنصب على رؤوس الفرنج وحدهم دون أن تمس مقام شاور من قريب أو من بعيد خشية أن يحرجوا شاور ويضطروه إلى الوقوف فى صف الفرنج ، بل رجاء أن يجتذبوه إلى الوقوف فى صفهم إن طوعا وإن كرها بما يبثون فى الناس أن شاور غير مسئول عما حدث من الفرنج وأنهم غلبوه على أمره ، وأنه فى السر يشجع الوثوب بهم والانتقام منهم ليتخلص من سيطرتهم عليه ، وأن المسئول هو العاضد لأنه هو الذى وقع الميثاق أمس ، ولم يوقعه شاور . وهو اليوم يؤيدهم سرا ويأخذ يناصرهم ليحمى بهم عرشه من سخط الشعب .

ولم يكن فى ذلك ما يجافى الحقيقة فقد تغير ما بين شاور وبين الفرنج حقا ، فمالوا عنه إلى العاضد منذ تردد شاور فى الموافقة على ما طالب به ملكهم مرى قبل رحيله ، ولم يرحل حتى رسم لهم سياسة التقرب إلى العاضد والاعتماد عليه ، ومساعدته في المستقبل على إزاحة شاور من كرسى الحكم ليجلس عليه من يرشحه العاضد لذلك كما كان ديدنه من قبل .

وقد صادف ذلك هوى فى نفس العاضد ، وأخذ يعمل من ذلك الحين سرا على تنفيذ هذه السياسة ، ووقع اختياره على زعيم الخلافة ليكون وزيره المنتظر .

غير أن شاور كان محتملا أن يصانعهم ويصلح ما بينه وبينهم لو لم يلتصق به أبو الفضل من أول الأمر فوقف بجانبه يؤيده ويشير عليه .

ويدعو الناس إلى التغاضى عما سلف منه ، وارتفاع ما ينتظر أن يقوم به في المستقبل ، حتى بدأ الناس يعذرونه ويرضون عنه ، مما سر به شاور فلم يجد محيصا من الانسياق فى هذا السبيل ، ولا سيما بعد أن شهد من قوة الشعب وعظيم أثره فى انتصار أسد الدين على جيوشه وجيوش الفرنج مجتمعة ، ما زاده يقينا بألا بقاء له على كرسى الحكم ما لم يكتسب رضا الشعب وثقته وتأييده .

وما شعر الفرنج إلا بالغارات تشن عليهم فى جنح الليل والاغتيالات تتصيدهم فى وضح النهار ، من رهط مسلمين يتسللون تسلل النسيم ثم ينقضون انقضاض الصاعقة ثم يختفون اختفاء البرق .

وكذلك اغتيل كثير من الفرنج بأيدى المغاوير من أهل الفسطاط فوجدت جثثهم ملقاة على قوارع طرق العاصمة ، أو اختطفوا فلم يوجد لهم أثر .

وأخذوا يطالبون شاور بالفدية كلما قتل واحد منهم أو فقد ، فكان شاور يعطيهم ما يريدون . وقد هم لما اشتد ذلك عليه أن يتعقب أولئك المغاوير ، فيضرب على أيديهم بدعوى حفظ الأمن والنظام ، لولا أن أبا الفضل نهاه عن ذلك وأقنعه بأن ذلك سيثير الناس عليه وقد بدأوا يرضون عنه فليدعهم .

ولم يكتف الفرنج بأخذ الفدية عن ضحاياهم بل أخذوا يسلكون سبيل الانتقام من أهل الفسطاط خاصة ومن المصريين عامة . وقد استبد بهم الغضب والحنق ، فانفجر ما يبطنون فى أنفسهم من الحقد والضغينة على العرب والمسلمين فغشى على أبصارهم ،فلم يروا ما فى عملهم من إخلال بالسياسة التى رسمها ملكهم من وجوب المضى فى تضليل الشعب المصرى عن حقيقة ما يبيتون له .

وقد أغراهم أن عددهم قد تضاعف منذ رحل ملكهم بمن انضم إليهم من التجار الذين يفدون على العاصمة ثم ينقلبون جنودا محاربين

يحتلون القلاع والحصون ، فأخذوا يتخطفون نساء الناس وبناتهم فى العاصمة وما حولها إلى حصونهم وقلاعهم . حتى إذا بلغوا من هتك أعراضهن ما يريدون استبقوهن فى خدمتهم أو أرسلوهن ليعدن ذليلات كسيرات إلى أهليهن تشفيا وانتقاما .

وكانوا قد رسموا فى سياستهم من قبل أن يفرقوا بين المسلين وإخوانهم الأقباط بمختلف الوسائل وشتى السبل من اجتذاب قلوب الأقباط وإيثارهم بالمصالح والمنافع وإيغار صدورهم على إخوانهم المسلمين ، وتذكيرهم بأنهم وإياهم على دين واحد ، وأن المسلمين جميعا أعداؤهم ، وأنهم قد جاءوا من بلادهم لإنقاذ الأرض المقدسة من أيدى المسلمين وراء لواء المسيحية فى ربوع الشرق ، فعليهم أن يكونوا معهم إليا واحدا على أعدائهم المسلمين .

ولكنهم كانوا يقابلون ممن اتصلوا بهم من الأقباط بالإعراض والازورار ، وربما جاد لهم بعضهم كما وقع من زكريا بن أبى المليح أحد وجهاء الأقباط وشعرائهم إذ تصدى لهم يوما . فلما حاوروه ، قال لهم : « نحن جميعا مصريون ، وهؤلاء إخواننا وبلادهم بلادنا والدين لا يفرقنا إذ نحترم دينهم ويحترمون ديننا وما أنتم بأحق بنا منهم ، حتى الدين لا يجمعنا وإياكم ،فإن مذهبكم يختلف عن مذهبنا فليس يجمعنا بكم شيء .

فأرادوا اليوم أن يتصلوا إلى هدفهم هذا بطرق أخرى ، فأوعزوا إلى بعض الخونة من صنائعهم ، فألقوا القاذورات فى بعض كنائس الفسطاط والقاهرة ليوهموا الأقباط أن ذلك من عمل إخوانهم المسلمين ، ثم ألقوا مثلها فى بعض مساجد المدينتين ليوهموا المسلمين أن ذلك من عمل إخوانهم الأقباط انتقاما مما وقع على كنائسهم .

وكاد هؤلاء الشياطين أن يبلغوا غرضهم ، إذ ثار الأقباط ثم ثار المسلمون فى كلتا المدينتين ، واشتبك فريق من هؤلاء بفريق من

هؤلاء ، لولا أن ارتفع صوتان جهيران فى غمار هذه الفتنة المدمدمة بين أبناء الوطن الواحد ، فأصم دويهما الآذان فى أول الأمر حتى إذا أصغوا إليهما من خلال الفتنة العاوية سمعوا منها فصل الخطاب ، فخشعت الأصوات ، وسكنت الجوارح ، وهدأت النفوس ، وثابت العقول .

قال أحد الصوتين فيما قال : أيها المسلمون المصريون ، ويلكم أين يُذهب بعقولكم ؟ كيف تصدقون أن هذه القاذورات قد ألقيت فى مساجدكم بفعل إخوانكم الأقباط وعلى ملأمنهم ؟ إذن فصدقوا كذلك أن القاذورات قد ألقيت فى كنائسهم بفعلكم أنتم وعلى ملأمنكم ! تبصروا وتدبروا ثم أجيبونى : علام لم يقع هذا التلويث فى بيوت الله إلا بعد أن جاء هؤلاءِ الأنجاس ، فلوثوا عاصمتكم بالرجس والعار ، وديسوها بالمذلة والصغار ؟ فإن لم تفهموا ما وراء ذلك من العبرة فما أجدركم والله أن تكونوا أنتم الشياه وأن يكونوا هم الجزارين ، قال الله تعالى : ﴿ ولاتُسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ! ﴾ .

وقال صوت آخر فيما قال :

« أيها الأقباط المصريون أيها المسيحيون الصادقون ! كيف يضربكم الأعداء فتنتقموا من الأصدقاء ؟ إنه ليس أبعد من تلويث إخوانكم المسلمين لكنائسكم إلا تلويثكم أنتم لمساجدهم ! لقد عشنا فى هذا البلد الأمين قرونا وأحقابا . فلم يقع قط مثل هذا الفعل الآثم فى بيوت الله لا منكم ولا منهم ، وإنما وقع اليوم بعد أن جاء هؤلاء المتوحشون . فأذلوا الرجال وهتكوا أعراض النساء وارتكبوا ما يبرأ منه كل دين ، فما بالكم بالمسيحية دين المحبة والسلام . أما والمسيح الطهر لو لم يخطفوا غير أخواتكم المسلمات لوجب عليكم أن تثوروا لكرامتكم ، فكيف وهم لم يفرقوا فى انتقامهم وتشفيهم بين المسلمات والمسيحيات . ما أسرع ما تنسون ، أو قد نسيتم صاحبكم برسوم الديروطى ، إذ رجعت إليه ابنته الوحيدة العذراء من حصونهم تجر ذيل العار فذبحها ثم انتحر ؟ أسألوا

من اتصلوا به منكم ألم يحاولوا إيغار صدروهم على إخوانهم المسلمين ؟ فكيف غاب عنكم أنهم لما عجزوا عن التفرقة بينكم وبين إخوانكم عمدوا اليوم إلى هذه الحيلة الوضيعة الآثمة ؟ أتريدون أن تبحثوا عن الأيدى التى لوثت كنائسكم ، ومساجد إخوانكم ، فالتمسوها فى تلك القلاع والحصون !

أما الصوت الأول ، فصوت أبى الفضل الحريرى !

وأما الصوت الثانى ، فصوت زكريا بن أبى المليح !

وكان أبو الفضل وابن أبى المليح قد تحريا قبل ذلك عن الجناة ، فأقروا لهما بأن الذى أوعز إليهم بتلويث الكنائس رجل من الأقباط يقال له ابن أبى حنش ،وأن الذى أوعز إليهم بتلويث المساجد رجل من المسلمين يدعى ابن المشهورة ، فأرسل أبو الفضل رجاله فأدركوهما وهما يحاولان الفرار إلى حصون الفرنج بالقاهرة فجروهما وحبسوهما .

فلما انتهيا اليوم من خطبتيهما ، وهدأت الثائرة وخبت النائرة ، أخذا يشرحان للسامعين من الفريقين الحقيقة التى كشفا عنها ، ثم أرسلا فى طلب الخائنين فأحضرا وتعلقت العيون بوجهيهما الكاسفين .

وصاح أبو الفضل : اقترحوا كيف نعاقب هذين الخائنين !؟

فصاح ابن أبى المليح : أرى أن يسلم ابن المشهورة إلى المسلمين ويسلم ابن أبى حنش إلى الأقباط !

فصاح الجميع موافقين .

وكان ذلك يوما مشهودا فى الفسطاط إذ شهد الناس ابن المشهورة ، وقد حفرت له حفرة فى أحد أحياء المدينة ، فألقى فيها فأخذ المسلمون يرجمونه بالحجارة حتى تمزق جسده وتقطعت أشلاؤه .

وعلم أبوه بعد ذلك فعاتبه على أن لم يستشره أولا فى ذلك ، فأجابه شجاع قائلا : « خشيت يا سيدى أن تشفق على ابنـك فتمنعه وأنا لا أريد أن أعصى أمرك » .

وكان شاور قد كره ذلك خشية أن يخرج الأمر من يده إذ اتسع الخرق عليه فيما بين الفرنج وأهل الفسطاط ، ولكنه لم يجرؤ أن يكاشف ابنه بذلك إذ أصبح يرى ابنه كالرقيب الذى فى ضميره يؤنبه على عمل السوء ونيته ويحاسبه حسابا عسيرا .

فقال له : « إذن فإياك أن تغامر بحياتك يابنىّ فتصاب ».

ــ علام الخوف يا سيدى .. إنها الشهادة .

ــ الشهادة لك والثكل لى ولأمك ...

ــ اطمئن يا سيدى فإنما عملى فيهم التدريب والتنظيم ، وقلما أشترك معهم فى الهجمات .

قال ذلك شجاع ليطمئن قلب أبيه وهو لا يعنى ما يقول .

وهكذا ظل شجاع برهة يكتم عن أبيه حقيقة ما يقوم به مع فرقة المغاوير التى أطلق عليها فرقة الموت . إلى أن ضاق شاور يوما بكثرة ما يدفع للفرنج من فدية عن ضحاياهم فقرر الامتناع عن الدفع وقال لهم : « إن شئتم ألا تصابوا فامتنعوا عن الخروج من حصونكم » .

قالوا له : « إنهم يشنون علينا الغارات على أبواب حصوننا » .

قال لهم : « ماذا أصنع لكم ؟ أنتم الذين بدأتم بالعدوان على الشعب ».

قالوا : « نحن هنا مقيمون بمقتضى الاتفاق ، فأنت مسئول عما يصيبنا » .

قال لهم : « كلا لقد نقضتم الاتفاق إذ زدتم عدد الحامية فأصبحتم اليوم ألفا بعد أن كنتم مائتين وخمسين » .

فلما لم يجبهم إلى طلبهم خرجوا من عنده غاضبين متوعدين ..

وأدرك شاور ألا سبيل إلى التراجع ، فأشاع هذا الخبر فى الناس فتحمسوا له ، وفوجئ شجاع ذات يوم بأبيه يقول له على انفراد .

ـ كيف حال فرقة الموت يا شجاع ؟

ـ بخير حال يا سيدى .. يزدادون كل يوم عددا وقوة ..

ـ أتقودهم أنت بنفسك ؟

فظن شجاع أن أباه قد اكتشف أنه يشترك بنفسه فى هجمات الفرقة وأراد أن يوبخه على إخلاله بما وعد ، فقال له : « نعم يا سيدى .. سامحنى إذ لم أستطع أن أبر بوعدى لك » .

وشد ما دهش شجاع إذ قال له أبوه : « بل أريد اليوم أن تقوم أنت بذلك » .

ثم كاشفه شاور بعزمه على أن ينزل بالفرنج ضربة مفاجئة حتى تكون منهم مقتلة عظيمة وقال له : « هل أستطيع أن أستعين بفرقتك فى ذلك ؟ » .

قال له شجاع وهو لا يكاد يصدق ما سمع من شدة الفرح : « كيف لا يا سيدى ؟ هذه فرقة الموت ولا عمل لها سوى هذا » .

واختار شاور جماعة من رجاله الأشداء ليتفقوا مع فرقة الموت على خطة موحدة على أن يتولى قيادتهم شجاع ، فأخذ شجاع يعد العدة من يومئذ .

وأرسل شاور إلى الفرنج ، فاعتذر لهم عما بدر منه من جافى القول ، وأخبرهم بأنه سيعمل جهده على حفظ الأمن والنظام وردع أولئك المغيرين حتى لا يضطر إلى دفع الفدية للفرنج .

ففرحوا ظنا منهم أنه خاف من تهديدهم فأراد أن يصلح الأمر بينه وبينهم ، ولكنهم لم يثقوا كل الثقة بما قال إلا بعد ما رأوا الغارات

والاغتيالات قد أخذت تقل حتى انقطعت جملة ، فاطمأنوا حينئذ وعادوا إلى ما كانوا قد انقطعوا عنه من إقامة حفلات الشراب بين حصونهم فى ليالى الأحد .

وجاء عيد من أعيادهم ، فأقاموا حفل سمر استمر إلى آخر الليل حيث شربوا وطربوا حتى سكروا ، وإذا الفدائيون ومن معهم من رجال شاور ينقضون عليهم وهم لا يعون من فرط السكر ؛ فأوسعوهم ضربا وطعنا وذبحا ، فلم ينج ممن حضروا منهم إلا القليل . وأحصى عدد قتلاهم فبلغوا أكثر من مائتين .

وأصبح الصباح وإذا موجة من الحماسة قد سرت فى أهل القاهرة والفسطاط ثم امتدت إلى سائر أقاليم البلاد ، وهتف الناس بحياة شاور بطل الجهاد . ثم أخذوا يهتفون علنا بسقوط العاضد ، واتهامه بمصادقة الفرنج ليسندوا عرشه .

وحرج مركز العاضد وخشى المغبة ، فعقد مجلسا من دهاقين القصر وقرر على أثره أن يكتب رسالة سرية إلى نور الدين يستنجد به من طغيان الفرنج المقيمين فى القاهرة ، ومما يخشى من عودة جيوشهم للانتقام لما وقع على إخوانهم من أيدى الشعب ، وقد رأى أن يبالغ فى ذلك ، فأخذ ذوائب من شعور نسائه فبعث بها مع رسالته إلى نور الدين .

أما الفرنج فقد ملئوا رعبا بعد هذه الواقعة ، فانقبعوا فى حصونهم لايبرحونها ليلا ولا نهارا ، وهم ينتظرون أن تقدم حملتهم للانتقام من المصريين . وكانوا يعلمون حين اجترأوا على شعب مصر بالبغى والعدوان أن ملكهم مرى يوشك أن يعود بحملته العظيمة المنتظرة ، فلما ذاقوا الويل من الغارات والاغتيالات وَالَوا الرسائل إليه يستعجلونه القدوم حتى إذا كانت الواقعة أرسلوا إليه مستغيثين مستصرخين .

١٧

وأيقن شاور أن القوم آتون لا محالة فاستعد للقائهم ، وقد امتلأ اليوم أملا فى القدرة على صدهم لما وجد من حماسة الشعب وتأييده له ، وزاده طمأنينة وقوف أبى الفضل بجانبه .. وهو لا يدرى أن أبا الفضل لم يستطع أن يثق أو يطمئن إليه . حتى بعد أن جهر شاور بعداء الفرنج وحتى بعد أن دبر لهم تلك المذبحة التى جعلته بطلا فى عيون الناس ، فظل يكاتب نور الدين سرا ، يطلعه على الأحوال ويستنجزه ما اتفق هو مع أسد الدين عليه .. وكان شاور ربما يرتاب أحيانا بما يبطنه أبو الفضل لما يعلم من وثيق صلته بأسد الدين ، غير أنه لا يلبث أن يرى من إخلاص أبى الفضل فى مساعدته وتجميع قلوب الناس حوله ما يطرد الريبة من نفسه .

وأقبلت جموع الفرنج غزاة فاتحين هذه المرة ، فوصلوا إلى بلبيس فانتقموا من أهلها خاصة أفظع انتقام ، ثم أغاروا على الريف يقتلون وينهبون ولا يتركون شيئا إلا استباحوه متشفين منتقمين .

ومما ضاعف حقدهم وحنقهم أنهم وجدوا فى هذه المرة مقاومة من الناس فى كل مكان ، فصاروا يقتلون كل من بلغته أيديهم ، فلم يتركوا الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال ، وارتكبوا من الفظائع ماتقشعر له الأبدان وتنخلع له القلوب .

ولكن ذلك لم يزد الشعب إلا إصرارا على الدفاع عن بلاده بكل ما يملك ، وتنادى بالجهاد فى سبيل الله ، فانتشرت الحركة فى كل مكان : فى الفسطاط وفى القاهرة وفى إسكندرية ، وسائر مدن القطر وقراه ، إلا أن حركة الجهاد تركزت قيادتها فى مدينة الفسطاط حتى كأنما صارت هى العاصمة مكان القاهرة .

وفوجىء شاور بالعاضد قد أرسل في استدعائه إلى القصر ليقابله على انفراد ، فتردد شاور فى أول الأمر خشية أن يغدر به ، ثم ذهب فى حشد من رجاله إليه . واستقبله العاضد وعلى وجهه دلائل الحزن الشديد ، فما إن خلا به حتى أسلم رأسه إلى حجر شاور ، فطفق يبكى وينتحب كالطفل وهو يقول : « أغثنى يا شاور أدركنى يا شاور ! ليس لى سواك » .

فعجب شاور وظن أن العاضد قد خشى أن يخلع ، فتوسل إليه ليبقيه فى العرش ، فقال له فى شىء من العطف والرثاء : « لا تخف يا مولاى فلن يقع ما تكره » .

فرفع العاضد رأسه قائلا : « قد جربنا مجىء رجال نور الدين ومجىء الفرنج ، فاستطعت أنت مشكورا أن تنقذ البلاد منهم وتصون استقلالها على كل حال ، وتحمى العرش ، أما هذا الذى أراه اليوم من انتقال الأمر كله إلى مدينة الفسطاط ، فإنه الكارثة .

ــ وأى بأس فى ذلك يا مولاى ؟

ــ أى بأس ؟ فى ذلك زوال ملك آبائى وأجدادى ، وسينتهى به حكمي وحكمك يا شاور .. فإن أهل الفسطاط لن يخلصوا لنا أبدا ...

وكأنما نبه العاضد منه غافلا ، إذ اقتنع شاور فى الحال بما فى ذلك من خطر على حكم شاور نفسه . ولأول مرة منذ زمن بعيد يخطر بذهنه أن مصيره ومصير العاضد واحد ، فقال له : « اطمئن يا مولاى فسأحول دون ما تخشاه » .

ــ ماذا أنت صانع ؟

فأطرق شاور قليلا ثم قال : « إنى لا أستطيع أن أخبرك الآن بشىء ، ولكن ثق يا مولاى انى لن أدع الفسطاط تغلب القاهرة أبدا» .

ـ لا أمان من ذلك ما ظلت قائمة تنافسها !.

— كِل هذا الأمر إلى يا مولاى .

— بوركت يا شاور .. إنى والله لا أدرى كيف أشكرك .

وبينما كان أهل الفسطاط يعملون منهمكين فى إعداد وسائل الدفاع عن مدينتهم وقد استبد بهم شعور عجيب بأن مدينتهم هى الهدف الأول للعدو ، إذ نادى منادى شاور أن اتركوا مدينتكم وانتقلوا إلى القاهرة ، فإن الفسطاط ستحرق لئلا يحتلها العدو ويستولى على ما فيها من الذخائر ، وأن عجلوا اليوم بحمل ما تقدرون من أمتعتكم وأموالكم ، فسيشرع فى حرقها عشية غد .

وذهل أهل الفسطاط لما سمعوا ، فاضطرب أمرهم ، واختلفوا فمن قائل : نطيع أمر شاور ، ومن قائل : كلا لا نترك مدينتنا لقول أحد ، هذا سوء تدبير بل خيانة .

وانطلق أبو الفضل إلى شاور فصاح فى وجهه : « ماذا فعلت ؟ كيف تحرق الفسطاط وهى قلعة الدفاع الأولى ، وقاعدة الجهاد الكبرى ؟

فأجابه شاور فى تصميم : « أجل يا أبا الفضل ، ومن أجل ذلك لن أدع العدو يستولى على ذخائرها وأموالها ، فيمتنع فيها فلا نقدر عليه» .

— ويلك إن أهلها سيقاتلون دونها حتى آخر رجل .

— فلينتقلوا إلى القاهرة وليقاتلوا دونها مع أهلها ، فإنى لا أريد أن تتفرق قوتهم .

— ويلك إن كان لابد من ذلك . فمر أهل القاهرة ينتقلون إلى الفسطاط ثم احرقها إن شئت .

— كلا هذا لا يكون .. إن القاهرة هى العاصمة .. وقد أصدرت أمرى .. فلا سبيل إلى الرجوع عنه !

— أصدرت أمرك دون أن تستشير أحدا !

ـ بلى قد استشرت .

ـ إنك لم تستشرنى . .

ـ ليس على أن أستشيرك فيما لا خبرة لك به من شئون الحرب فاستشاط أبو الفضل غضبا ، وهو يقول « بل فعلتها يا شاور ولتندمن غدا » .

ـ التبعة على لا عليك ..

وييئس أبو الفضل من إقناعه فخرج غاضبا ، وانطلق راجعا إلى الفسطاط فوجد أهلها فى غمرة حماستهم لقتال الفرنج ، والرعب الذى استولى عليهم من الفظائع التى ارتكبوها فى الريف ، والثقة التى بقيت لهم فى شاور ، قد بدأوا يخلون بيوتهم ، ويحملون أهليهم وأموالهم وأمتعتهم صوب القاهرة ، فأدرك ألا سبيل إلى إقناعهم بالبقاء ورأى ما فى الخروج على أمر شاور فى هذا الوقت العصيب من الخطر على الجميع ، فكف عما اعتزمه من المعارضة والإنكار ، بل أخذ يشجع الناس بنفسه على الانتقال ويحرضهم على التعجل والإسراع .

وأعد شاور عشرين ألف قارورة من النفط وعشرة آلاف مشعل نار ثم أرسل بها إلى الفسطاط موزعة على أحيائها ، فما غربت شمس ذلك اليوم الذى أنذرهم به حتى اشتعلت النار فى كل مكان ، وارتفع لهبها ودخان حريقها إلى عنان السماء . وأخذت المدينة تتوهج من بعيد كأنها قطعة من جهنم ، وأضاءت ما حولها ، فكأن الشمس ما غربت عنه بعد .

ووقف أهلها المساكين والحسرة تعتلج فى قلوبهم والدموع تسح من مآقيهم ، ينظرون إلى ذاك الذى أمسى كتلة من نار ، وكان حتى عصر يومهم هذا مدينة عظيمة مجيدة تضم أنفس ما يملكون من متاع وأغلى ما يصونون من ذكريات ، ففيها مساقط رؤوسهم ورؤوس آبائهم ، وفيها ملاعب صباهم ومسارح لهوهم فى أيام الشباب ، ومواطن تبتلهم فى

عهد الشيخوخة ، موصولة بما سطر التاريخ على أديمها من آيات المجد التليد والطريف ، وبما يتضوع فى جوها من أنفاس الصحابة والتابعين ومن تلاهم من الأئمة المجتهدين .

وكانوا قد أزعجوا فى النقلة ، وأعجلوا فيها ، فترك أكثرهم أموالهم وأثقالهم لينجوا بأنفسهم وعيالهم ، وماجوا واضطربوا كأنما خرجوا من قبورهم فى المحشر ، فاستبقوا ليجوزوا الصراط إلى القاهرة !

واستحال الطريق نهر ينبع من الفسطاط ويصب فى القاهرة ، ويسيل بأفواج البشر من كبار وصغار وذكور وإناث ومن ماشين وراكبين وحاملين على ظهورهم ومحملين على ظهور غيرهم .

وكأى من شاب عجز أبوه الشيخ أو أمه العجوز عن مواصلة السعى فألقى المتاع الذى على ظهره ليحمل أمه أو أباه .

وكأى من دابة حملت فوق ما تطيق فبركت فى وسط الطريق فوقف صاحبها حائرا لا يدرى ماذا يأخذ من حملها وماذا يدع : ورب طفل انفصل عن والدته فى كظة الزحام ، فطفقت تناديه باكية مولولة ، تتلفت يمنة ويسرة ولا تستطيع أن تبحث عنه وراءها مما يجرفها الزحام .

وقليل من أهل الفسطاط من تمكنوا من حمل أموالهم ونقل متاعهم ممن وجدوا الدواب أو استطاعوا اكتراءها ، فقد بلغ كراء الدابة من الفسطاط إلى القاهرة بضعة عشر دينارا وكراء الجمل ثلاثين .

ثم قليل منهم من استطاعوا أن يجدوا دورا يسكنونها فى القاهرة أما أكثرهم فقد كان أسعدهم حظا من سبقوا إلى المساجد والحمامات ، فتكأكأوا فيها بعضهم على بعض . وما وجد الباقون غير الأزقة والطرقات . فتسابقوا عليها وتنافسوا فيها حتى غصت بهم القاهرة فصارت كأنها خلية من خلايا النحل أو بيت من بيوت النمل .

وأقبل الفرنج ميممين صوب الفسطاط ، فقد جعلوها هدفهم الأول لما بلغهم أن القوة التى يخافونها قد تركزت هناك . فإذا استطاعوا القضاء عليها سهل عليهم ما بعد ذلك . ولذلك قرر ملكهم مرى أن ينقضوا على هذه القوة الشعبية أولا . وأن يتجنبوا الالتحام مع جنود شاور ما أمكن ، فربما ينجحون فى التفاوض معه أو مع الخليفة نفسه بعد أن يقضوا على القاعدة العظمى لقوة المقاومة الشعبية التى قاسوا منها فى طريقهم عبر الريف فيضمنوا بعد ذلك أن أسد الدين لن يجد سندا له إذا عاد ، فقد أدركوا أنه لا العاضد ولا شاور يحتمل مختارا وجود أسد الدين فى مصر .

فماراعهم وهم منطلقون فى طريقهم إلا دخان عظيم يتعالى فى أفق السماء من بعيد فوقفوا برهة متعجبين ، ثم واصلوا مسيرهم فإذا نيران تشتعل وتمتد ألسنتها الهائلة إلى عنان السماء ، فوقفوا مرة أخرى مبهوتين . وجعلوا يتأملونها ويقدرون موضعها ، فأدركوا أنها صاعدة من حيث تقوم مدينة الفسطاط ، ولكنهم لم يتيقنوا من ذلك حتى صاروا منها على أميال . فرأوا أن ينزلوا (بركة الحبش) ريثما يعرفون سر هذا الحريق الكبير . ويرون ما يكون من الأمر .

وتشاور مرى مع رجاله ، فاتفقوا على أنه لا معدى من أحد أمرين لا ثالث لهما . فإما أن يكون شاور قد أخطأ فى تدبيره من الناحية الحربية فظن أن حريق الفسطاط هو الخطة المثلى لصد عدوه ومدافعته، وإما أن يكون قد قصد القضاء على هذه القوة الشعبية التى تركزت فى الفسطاط خشية أن تغلبه على أمره فى المستقبل أو تكون عونا لجيش نور الدين عليه ، كما كانت من قبل .

وقد رجح مرى هذا الأمر الثانى من طول خبرته بشاور ومعرفته لخباياه فما لبث أن تقدم بجموعه صوب القاهرة ، فطوقوها، وقد وثقوا

أن النصر قد صار مضمونا لهم ، فضربوا خيامهم حول العاصمة على هينتهم وأقاموا فيها مطمئنين . وأصبح قصارى خوفهم أن يجيء جيش نور الدين من الشام ، ولكن أين جيش نور الدين ؟ لن يصل إليهم إذا جاء إلا بعد أن تسلم القاهرة لهم ، فيدخلوها ويقيموا فيها ممتنعين .

ولكن طمأنينتهم لم تدم طويلا . فما لبثت فرقة الموت من فتيان الفسطاط ومن انضم إليهم من غيرها أن نشطت من جديد ، فأخذ أبطالها المغاوير يغيرون تحت ستار الليل على خيام الفرنج فيصيبون من يُصيبون ثم يختفون كالأشباح .

وبقيت النار تشتعل فى الفسطاط أربعة وخمسين يوما ، ثم أخذت تخبو بعد أن صارت المدينة رمادا .

ولكن القاهرة بقيت تحت الحصار تصلى نارا وقودها الأرواح والأبدان لا السقوف والجدران ، ثم لا يستحيل وقودها إلى رماد بل إلى رمم ذات نتن وفساد ! ها هم أولاء أهلها قد تناهى بهم الخطب واشتد عليهم الكرب وفشا فيهم الجوع والموت ولا سيما فى اللاجئين واللاجئات من أهل الفسطاط الذين تغص بهم الأزقة والطرقات . وكانوا فى أول الأمر يتبلغون بما يأتيهم من صدقات المحسنين فأخذت تقل تلك الصدقات حتى انقطعت أو كادت ، فصاروا يجأرون بالشكوى ، ويمشون جماعات جماعات يجوبون الشوارع ويسبون شاور ويلعنونه ، ويتهمونه بالخيانة والغدر . وكل ما تنطلق به ألسنتهم من قبيح النعوت والصفات .

وضاق شاور بأمرهم لا يدرى ماذا يصنع بهم ، كما ضاق باختلال الأمن فى المدينة إذ كثرت جرائم القتل وحوادث السرقة والسطو على المنازل فأدرك ألا صبر على هذه الحال ، وألا بد من التماس مخرج قبل أن يقع مالا تحمد عقباه فأخذ أياما يفكر ويدبر ويقدر .

وكان يعلم أن مرى قد بدأ يضيق من طول الحصار ، وأن الشاعة التى أطلقها شاور عن قرب قدوم أسد الدين قد أحدثت أثرها فيه وفى

رجاله ، فضلا على غارات الليل التى يشنها عليهم الفدائيون ، فرأى أن ينتفع بهذا كله فى عرض الصلح عليه وإقناعه به مع وعده بإطلاق الأسرى الذين كانوا من حاميته فى العاصمة من قبل ومع إطماعه فى مال عظيم يؤديه له إذا قبل الصلح ومغادرة البلاد .

فكتب رسالة إلى مرى رميت إليه من سور المدينة ، فجاء الرد منه بقبول التفاوض فى ذلك . وهم شاور أن يخرج بنفسه إليه ، ليتمكن من إقناعه بفصاحته وقوة حجته ، ولكنه خشى من غدره ، فاكتفى بإرسال القاضى الفاضل بعد أن لقنه ما ينبغى أن يحاور به ملك الفرنج ، وناهيك بالقاضى الفاضل ذكاء وفصاحة ، ولكنه أيقن بعد أن استمع إلى توجيه شاور أنه ما كان ليقدر أن يبلغ الغاية فى أداء مهمته لو لم يقتبس من بيان شاور ونصاعة حجته حتى سأل نفسه وهو فى طريقه إلى ملك الفرنج : « ماذ يكون حاله لو رزق مع براعته فى الكتابة والإنشاء ما عند شاور من بلاغة القول وقوة الاقتناع ؟ » ثم استطرد يقول لنفسه : « ماذا يكون حال شاور هذا وهو ما هو فى الدهاء والفطنة والكرم والشجاعة وقوة الشكيمة مع هذا البيان الساحر، لو رزق الإخلاص لدينه ووطنه؟ إذن لكان اليوم رجل العرب غير مدافع.

ونجح القاضى الفاضل فى مهمته ، فتم الصلح على ألف ألف دينار يأخذها مرى وينسحب من البلاد . وقد سلمت له مائة ألف دينار فى الحال وأجل الباقى حتى يتمكن شاور من جمعه بعد فك حصار القاهرة ، وانسحاب مرى بجيشه من حولها ليعسكر بهم على فراسخ من جنوب الفسطاط إلى أن يقبض الباقى فيغادر مصر .

ولكن مرى لم يقم طويلا فى معسكره هناك ، إذ بلغه أن أسد الدين قد أقبل فى جيش كبير لا يقل عن ستة آلاف فارس ، وحملة كاملة العدة فأيقن ألا قبل له بملاقاته بعد ما شهد من ازدياد مقاومة الشعب للفرنج ، وميله إلى أسد الدين ، فقرر مغادرة مصر على الفور دون

انتظار بقية المال الذى له . واكتفى بأن كتب إلى شاور يخبره بأنه قد عجل بالرحيل إلى بلده ثقة منه بأن شاور سيرسل إليه ما بقى من مال الصلح ، فسلم شاور للرسول جوابا يشكر له فيه حسن ثقته ، ويؤكد له أنه سيفى بما عليه فى أقرب وقت مستطاع .

وكان شجاع ابنه حاضرا فسأله : « هل تنوى يا سيدى أن تفى له بذلك حقا ؟ فأجابه شاور قائلا : « ويحك يا شجاع ما أطيب قلبك» .

وكان شجاع قد أنكر على أبيه حريق الفسطاط . واعتبر ذلك زلة لا تغتفر وسوء تدبير لا مبرر له ، إلا أنه لم يبلغ به ذلك إلى حد اتهامه بالخيانة . فكل ما أخذ عليه أنه استبد برأيه فى هذا الأمر الخطير ، ولم يراع ما ينتج عنه من الكوارث والويلات لأهل المدينة المنكوبة ، ولم ينظر بعين الاعتبار إلى ما كان عليه أهلها من الحمية واليقظة ، وما أعدوه فى مدينتهم من أسباب القوة ، ووسائل الدفاع ، فكانت أحرى ، لو لم تأكلها النار ، أن تكون عونا له فى صد العدو ومقاومته وتعطيل تقدمه ، ولكنها زلة جديدة أوقعه فيها غلوه فى الاعتداد برأيه ، وعدم مبالاته بما يقول الناس غدا عنه . وعلى شجاع وحده أن يخجل عن أبيه من سوء فعل أبيه ، ويتجرع غصص المذلة والهوان مما يسمع من كلام الناس فيه .

أواه . أكلما بدأ الناس يرضون عنه، ويحمدون له حسنة من حسناته أو مأثرة من مآثره. أو عملا مجيدا من أعماله، بحث عن سيئة جديدة فتطوع بارتكابها ليحبط بها كل ما فعل من خير وكسب من فضل ؟

إن الذى يحير عقله أن أباه ليس ضعيف الرأى ولا قصير النظر ولا قليل البصر بالأمور ، بل هو موف على الغاية فى ذلك كله ، فكيف .. كيف بالله يقع فى مثل هذه السقطات الواضحة التى لا يقع فيها حتى ذوو الرأى الضعيف والنظر القصير ، والبصر القليل بالأمور ؟

ثم إنه قد اصطلح مع أبى الفضل فعاد ما بينهما من المودة . ووقف أبو الفضل بجانبه مؤيدا له ومنافحا عنه وداعيا إليه ، وصار أبوه يستشيره فى الجليل والحقير من الأمور ، فوا عجبا كيف لم يستشره فى هذا الأمر الخطير الذى لا يدانيه فى خطره أمر ؟ بل واأسفاه أن نبهه أبو الفضل فلم يتنبه وحذره وأنذره . فلم يبال بالتحذير والإنذار .

ولم يستطع شجاع أن يخفى عن أبيه استياءه من عمله ، فغاضبه على شدة حبه له ، حتى كان لا يكلمه ولا يجلس إليه ، ولكن شاور يمضى فى سبيله لا يلوى على شىء كأنما لا يعنيه غضب ابنه الوحيد ولا حزنه ولا اغتمامه فى شىء .

وكان يكون الأمر أهون على شجاع لولا دخول أمه بينه وبين أبيه ، فلا تكاد تؤنس منه أى ازورار عن أبيه أو عتب عليه حتى تبادر بلومه وتعنيفه ، دون أن تسأل عن سبب أو تستمع إلى عذر، بل تقول دائما: إن أردت الخير والبركة فانزل على رأى أبيك وابتغ رضاه واتق إغضابه.

فما وسع شجاعا إلا طاعتها ، فاسترضى أباه فى الظاهر ليرضيها ، ولكنه صار يتجنب لقاءه فى البيت جهد ما يستطيع . ووجد فى الطواف على اللاجئين من أهل الفسطاط لمواساتهم وعونهم وتفقد حاجاتهم وقضاء ما يقدر منها عذر يتعلل به فى الغياب عن البيت طول النهار وشطرا من الليل .

وكانت سمية تشعر بما يكابد زوجها فترق له وتحنو عليه ، ولكنها لا تنطق بشىء . ولا تدخل فيما بين زوجها وبين أبيه أو أمه ، خشية أن تزيد بذلك همه وأساه . وقد فات هذه الزوجة المحبة الوفية أن زوجها الذى لا يقل عنها صدق حب ورقة وشعور ، يدرك ما تعانيه هى من جرائه ، ويقدر المعنى الذى تصمت من أجله عن مساءلته فى خطبه ، فيزداد من أجلها أسى على أسى وهما على هم .

ولما رأى الفرنج قد شرعوا فى حصار القاهرة ، أحس كأنما وجد المهرب من ذلك الحرج الذى يعانيه من جهة أبيه ، فترك له كتابا فى

البيت يخبره عن نيته وغايته ، ثم تسلل من المدينة مع رفاقه من فرقة الموت ، قبل أن يتم حصارها بقليل ، ليتمكنوا من شن الغارات على الفرنج من خلفهم ، ودعوة غيرهم من فتيان القرى التى حولها للانضمام إلى فرقتهم متطوعين مجاهدين .

فكان شجاع وهو يعمل فى هذا السبيل يشعر كأنما عليه أن يكفر عن السيئة التى ارتكبها أبوه ، فيبدى من المغامرة بحياته ، ما يبلغ حد التهور فى كثير من الأحايين .

ثم لما فك الحصار عن القاهرة ، وانسحب الفرنج بعيدا عنها ، أعجبه ما صنع أبوه ، فطار فرحا إليه واعتنقه وقبل رأسه مثنيا على حسن تدبيره ولطف حيلته ، ثم جعل يعتذر إليه عما كان من خروجه بغير إذن منه ، فسر شاور من فعله ، وقال له ضاحكا : « ويحك يا بنى ألم تعلم أن العمل الذى قمتم به أنت ورفاقك كان من أكبر ما أعاننى فى إقناع مرى بقبول الصلح ؟

وحينما وردت الأنباء بقدوم أسد الدين ، أبدى شجاع من الفرح والاستبشار ما أحرج صدر أبيه ، وأخرجه من حلمه ، فصاح فى وجهه : « اقتصد ويلك من ولد قليل البر .. أتقعد فى الظل وتترك أباك قائما وحده فى الشمس ؟

وكانت بديهة شاور هذه أسرع على شجاع من أن يتابعها فى الحال ، فسكت غير طويل ثم قال مجاريا ولده فى كنايتهُ : « بل سنقعد يا سيدى جميعا فى الظل » .

ــ هيهات .. إن أسد الدين يريد أن ينزع العمامة التى تقى رأسى ضربة الشمس ! أو قد نسيت عداوته لى ؟

ــ ما عاداك إلا من أجل الفرنج .. أما وقد صارحتهم العداء ، وأنزلت بحاميتهم تلك الواقعة ، ثم دافعت جيش مرى حتى استطعت أن تجليه بحيلتك ، فلن يجد أسد الدين من سبب لمعاداتك ...

ــ لكنه سيجد أسبابا للبقاء فى مصر ..

قال له شجاع : « ما عليك يا سيدى إلا أن تحسن لقاءه ، فتعيد إلى نفسه الثقة ثم تعقد معه ميثاقا على التعاون فى جهاد الفرنج ، فسيعود حينئذ إلى بلده » .

وقد شك شاور فى قبول أسد الدين ذلك منه ، إلا أنه ارتاح على كل حال لهذا الرأى الذى جرى على لسان ابنه ، فقال لنفسه : « ليس أمامى اليوم غير هذا السبيل .» .

وكان أهل القاهرة قد تنفسوا الصعداء لما ارتفع عنها الحصار ، ثم ازدادوا سرور لما سمعوا بقدوم أسد الدين . وحمدوا لشاور ما صنع ، وتحدثوا معجبين كيف استطاع بحيلته ودهائه أن يطاول ملك الفرنج ريثما تأتى نجدة من الشام ، فلما أحس باقتراب مجيئها احتال عليه تلك الحيلة البارعة فحمله على الانسحاب بعيدا عن العاصمة متوهما أنه سيقبض بقية المال من شاور . ولا يعلم أن شاور قد خدعه . هكذا كان جل أهل القاهرة يتحدثون عن دهاء شاور وحكمته .

أما اللاجئون من أهل الفسطاط ، فقد هدأت نفوسهم قليلا لما شبعوا من جوع ، ثم تذكروا أنهم أصبحوا لا بيوت لهم ولا متاع ، فعاودهم الأسى ، وتذكروا أن شاور هو الذى أحرقها ، فعاودهم السخط عليه ، ولم يشفع له عندهم أنه أخذ يعد لهم المضارب والخيام فى أرباض القاهرة ليسكنوها ، فأين المضارب والخيام من الدور الواسعة ، والبيوت الجميلة ذات المتاع والرياش ؟

غير أن نبأ قدوم أسد الدين أنساهم كثيرا من همهم ، وفتح لهم باب الأمل فى أن ينظر إلى قضيتهم بعين العدل والإنصاف ، فتبنى لهم المساكن والبيوت وتعطى لهم الأمتعة والمرافق تعويضا لهم عن بعض ما فقدوه ، فهيهات أن يعوض ما فقدوه .

وقد سلك ملك الفرنج في مسيره طريق الصحراء الشرقية ليتفادى من لقاء أسد الدين الذى أقبل من طريق بلبيس معقبا على آثار الفرنج

فواسى أهل بلبيس فيما نكبهم الفرنج ، ثم مضى فى طريقه معرجا على كل محلة فى الريف ، فكان كالبلسم لكل قرح مسهم من أيدى الفرنج ، وقد لقى من ترحيب المصريين به فى كل مكان . ووجد من صبرهم وحميتهم وحماستهم ، ما جعله يقول لنفسه ولأصحابه « إن كان لنا خلاص فمن هنا .. ليبعثن الله من هؤلاء غدا من يخرج العدو من الوطن العربى كله .

فلما وصل إلى القاهرة رأى عجبا ، رأى الناس جميعا على اختلاف طبقاتهم يخرجون لاستقباله ، وقد ارتدوا أحسن ثيابهم ، ورأى بينهم أقواما تنطق أسمالهم البالية وهدومهم الرثة بالبؤس والتعاسة ، ولكن تنطق وجوههم بالبشر والابتهاج .

وكان شاور ورجاله ، وأبو الفضل وجماعته ، وشجاع وفرقته فى مقدمة المستقبلين ، حتى دخلوا العاصمة فى موكب عظيم ، لم تر مثله من عهد بعيد .

وقد فرح الناس جميعا حين رأوا شاور راكبا بجانب أسد الدين يحادثه ويباسطه ، ويتلقى عرفا جواديهما بين الحين والحين ، كأن لم يكن بينهما شىء من قبل ، وسرى فيهم شعور غامر بأن ويلات الحرب قد انزاحت عن أرض مصر ، فلن يقتتل شاور وأسد الدين بعد يومهم هذا ، ولن يجرؤ الفرنج على العودة بعد اتحاد هذين القائدين .

لهذا فحسب أو قريب من هذا فرحوا كل هذا الفرح وابتهجوا كل هذا الابتهاج .

ترى كيف يكون فرحهم وابتهاجهم لو علموا أن الذى طربوا له اليوم شىء زهيد بالنظر إلى غدهم السعيد ، يوم يشرق على البلاد عهد جديد .

السفر الثالث

١

ما كان الناس يعلمون يوم استقبلوا أسد الدين ، وساروا في موكبه أنهم كانوا يستقبلون عهدا جديدا . ويسيرون في موكب العهد الجديد ، بل لم يشعروا بأن العهد الجديد قد أظلهم حتى بعد أن أشرقت في سماء البلاد بعض أنواره . وظهرت على أرضها بعض آثاره .

ذلك أنه دخل إلى عاصمة القطر ثم انتشر في أقاليمه دون أن يشن حربا حتى على الطغاة الظلمة ، ودون أن يسفك من دمائهم أو دماء جنودهم وأتباعهم قطرة واحدة .

فهم أولا يرون العاضد مقيما في قصره كما كان ، ويرون وزيره شاور باقيا في منصبه كما كان ، ويرون جنود الدولة في ثكناتهم ومعسكراتهم كالعهد ساكنين مطمئنين . يأكلون ويشربون ويرتدون الحلل الفاخرة ذات الطرز الجميلة والسمات المميزة لرتبهم وأقدارهم ينتظرون أمرا من شاور ليطيعوه ، أو أمرا من الخليفة ليطيعوه أيضا إذا وافق شاور عليه .

أما وجود أسد الدين معسكرا بجيشه بأرض اللوق خارج العاصمة فلم يكن ذلك عند الناس بدعا من الأمر . فقد سبق أن أقام بجيشه هكذا من قبل حيث مكث برهة طويلة بعد القضاء على ضرغام وإعادة شاور إلى منصبه . فلم يصنع غير ذلك من شيء يذكر ، إلى أن ارتحل صوب بلبيس للقاء الفرنج ، فكان من أمره معهم ما كان . ثم جاء بعد ذلك

كرة ثانية ، فقاتل جنود شاور وجنود الفرنج . وانتصر عليهم فى الصعيد . واستولى على إسكندرية ، فماذا كان خاتمة أمره ؟ أبرم مع شاور وحلفائه اتفاق الإسكندرية ، فرجع إلى بلاده دون أن يصنع شيئا .

فماذا عسى أن يصنع اليوم ، وقد قدم بعد ما عادى شاور الفرنج فقاتلهم ثم أجلاهم عن البلاد ، فدخل يوم دخل مسالما لشاور مصادقا له ولعله قد شكره وأثنى عليه إذ كفاه مؤنة قتال أعدائه ؟

وهكذا لم ير الناس من شىء جديد يشعرهم بأنهم قد دخلوا فى عهد جديد ، وأنهم يعيشون منذ اليوم تحت جناح ثورة هائلة بعيدة المدى عميقة القرار لم يقم فى بلادهم منذ أشرق فيها نور الإسلام أعظم منها خطرا ولا أوسع منها أثرا .

ولا ملام على الناس إذ لم يتبينوها من أول وهلة . ولا يصح اتهامهم بالغفلة أو قلة الإدراك بل اللوم ـ إن كان لا بد من اللوم ـ عليها هى إذ طلعت عليهم ثورة بيضاء ، لا يرى الناظرون فيها بقعة واحدة حمراء ، وعهدهم بالثورات حتى الصغرى منها أنها كانت كالعرائس تختضب قبل زفافها حتى يكون زفافها مشهودا يملأ الأبصار والأسماع !

ثم أدركوها فيما بعد ، حين اختلط بياضها الصامت بألوان شتى من جراء اتصالها وتغلغلها فى صميم حياتهم وحياة بلادهم ، فأصبحت هى ناطقة بما طرأ عليها من الألوان المختلفة ، وصاروا يلمسون أثرها فى كل شأن من شئون حياتهم وكل مرفق من مرافق بلادهم .

ولكن حتى إذ ذاك ظل سرها مكتوما عنهم لا يعلمه إلا قليل .

ولم يكن ذلك عن تقصير منهم فى البحث والاستطلاع ، وتقضى الأسباب التى أفضت إلى هذا الانقلاب الكبير ، واستكناهها من النتائج التى انبثقت عنه ، فقد بذلوا فى ذلك غاية وسعهم ، فكان قصارى ما انتهى إليه أبعدهم نظرا وأسدهم رأيا وأصحهم فهما أن أسد الدين قد استطاع بقوة جيشه وبمعاونة بعض المخلصين من أبناء مصر ، كأبى الفضل وأمثاله أن يهيمن على أمور البلاد حين تراخت قبضة شاور وقبضة العاضد أيضا على أثر ما منى به كلاهما من الهزائم والصدمات، ففقد شاور ما كان عنده من روح الكفاح والجلاد . كما فقد العاضد مقدرته الأولى على الكيد وتدبير الخطط من وراء الستار . فخلا الجو لأسد الدين فأمكنه أن يقوم بهذا الإصلاح الشامل ، ويحقق منه بعد ما زالت العقبات من طريقه ما كان من قبل مستحيلا أو كالمستحيل .

وإنهم لمعذورون إذ لم يستطيعوا أن يصلوا إلى أبعد من هذا ، لأن النفر القليل الذين يملكون إطلاعهم على جلية الأمر ، لم يشاءوا أن يبوحوا بالسر لأحد احتسابا منهم لله ، وزهدا فى الشهرة والجاه عند الناس .

وأنى يخطر ببالهم أن هذه الثورة قد انقدح نورها أول ما انقدح فى قلب رجل واحد من المصريين هو ذلك التاجر من تجار الحرير الذى يدعى أبا الفضل ، ثم أقبسه لطائفة من أصدقائه وثق بصلاحهم وإخلاصهم فصار النور يضىء فى قلوبهم خافتا لا تدركه حتى أبصارهم هم ، وإنما تدركه بصائرهم وحدها .

ثم أخذت هذه البصائر النيرة ـ وقد توحدت فصارت بصيرة واحدة كبيرة ـ تتلمس سبيل الخلاص فى ذلك الديجور الحالك ، فتهتدى إليه

بعد لأى . ولكنه بعيد جد بعيد ، ودون الوصول إليه عقبات وعقبات يكفى أيسرها لملء قلوبهم يأسا لولا إيمان لم يدع فيها موضعا ليأس من رحمة الله أو قنوط .

وإذ وضح لهم سبيل الخلاص اشتد بهم الشوق إلى تحقيقه ، وتحول الشوق إلى عزم ، فأمدهم العزم بقوة هائلة جعلتهم الجماعة الوحيدة المتماسكة فى مجتمع متهيل غير متماسك .

وسبيل الخلاص عند جماعة المصلحين هو القضاء على أصل الفساد القابع فى القصر . ولكن كيف يتم ذلك ، وفى يده وأيدى الوزراء الذين يتلاعب بهم ، تلك القوة العظيمة قوة الجيش ، وقد أصبحت لا تحمى الدولة بل تحمى العرش والجالس عليه ، فصارت سوط عذاب لا على العدو الذى يتربص بالبلاد على الحدود بل على الشعب .

ونظروا فإذا وراء الحدود من أرض الشام مجاهد عربى عظيم يقف وحده مناضلا دون العدو لينتزع منه بعض ما اغتصبه من أرض العرب ، ويحول دون استيلائه على ما بقى منها فى أيدى أهلها العرب ، فتوجهت قلوبهم إليهم ليستعينوا به فى تخليص مصر من فسادها الحاضر وتأمينها بذلك من كارثة الوقوع عاجلا أو آجلا فى يد العدو المشترك .

ومن ثم بدأ رئيس الجماعات يكاتب نور الدين ، ثم اتفق أن ولى شاور الوزارة فتعلقت آمالهم به عسى أن يستعمل قوة الجيش فى تحقيق هدفهم ، ولكن لم يلبث أن تغلب عليه ضرغام ، فأشاروا على شاور باللجوء إلى نور الدين والاستنجاد به وأيدوه برسائلهم لدى نور الدين حتى استجاب لهم ، فكان ذلك أول خطوة عملية فى هذا السبيل.

لما تبين لهم أن شاور ليس جديرا بثقتهم ، نفضوا أيديهم منه ولكنهم مضوا في سبيلهم . وانتفعوا بالكوارث والأحداث التي نزلت بالبلاد من جزاء الحروب التي دارت على أرضها بين جيش نور الدين والفرنج ، لما كان لها من أثر عظيم في تنبيه وعي الشعب . فأصبح الشعب قوة فعالة في تقدير مصير بلاده .

وكانت الأيام التي قضاها أسد الدين خارج القاهرة يحاصرها ، والفرنج يحاصرون الإسكندرية . ذات خطر كبير في وضع الأسس الثابتة لهذه الثورة المباركة التي يجني البلاد ثمارها اليوم ، إذ كان رئيس الجماعات مقيما معه في خيمة ، فكاشفه بكل ما في نفسه . وذاكره فيما ينبغي عمله في هذا السبيل ، فوافق أسد الدين على كل ما اقترحه أبو الفضل الحريري . ولم يبق إلا أن يعرضه على نور الدين ليوافق عليه .

وهكذا غادر أسد الدين مصر للمرة الثانية ، وهو على اتفاق تام مع أبي الفضل على أن يعود مرة أخرى لتنفيذ خطتهما الكبرى . فلما عاد هذه المرة الثالثة كان أبو الفضل وجماعته قد هيأوا كل شيء ، ورتبوا كل شيء ، دون أن يلتفتوا لما جد من محاربة شاور للفرنج أو يعطوه أي اعتبار منذ نفضوا أيديهم منه .

٢

وظن شاور أن في وسعه أن يستعيد ثقة أسد الدين إذا تودد إليه كما اقترح ذلك عليه ابنه شجاع . فيصالحه على شيء ويرضيه بما يريد ، فاستجاب له أسد الدين في الظاهر ، وكان حريا أن يستجيب له في الباطن كذلك لو لم يكن متفقا مع أبي الفضل وجماعته على وجوب

اطراح شاور ، وعدم الاعتماد عليه ، والمضى فى عملهم دون التعرض له بخير أو شر حتى يبدى هو صفحته ، فإن سكت سكتوا عنه وتركوه ، وإن قاوم أو حاول أن يعرقل ضربوه على يده وأزاحوه عن الطريق .

ومكث شاور أياما وهو يتردد على أسد الدين فى معسكره بأرض اللوق زائرا متوددا فيستقبله أسد الدين أحسن استقبال ويجالسه ويباسطه ، ويثنى على قتاله للفرنج ، وعلى حسن حيلته حتى أجلاهم عن البلاد — فكفاه بذلك مؤنة قتالهم ، فيسر شاور من ذلك وينتظر أن يحدثه أسد الدين عما ينوى أن يعمل فى مصر ، ولكن أسد الدين يتجاهل هذه المسألة أمامه ، فلا يعرض لها بحديث .

إلى أن ضاق شاور يوما بالحال ، فخلا بأسد الدين ، فكاشفه بما فى نفسه ، قال له : « قد تمت نعمة اللّه علينا فعدنا وإياكم أصدقاء ، وأزاح اللّه عنا فتنة الفرنج ، أفلا نتفاوض اليوم فيما ينبغى أن نعقده بيننا وبينكم ؟ » .

فأجابه أسد الدين مداعبا : « أو قد ضقت يا أبا شجاع بإقامتنا فى بلادكم » ؟

— كلا واللّه .. إنكم لعلى الرحب والسعة .. ولكنى أخشى أن تعجلكم الأحداث فتغادروا مصر قبل أن أتفق معكم على شىء .

— إنى لا أستطيع أن أتفق معك على شىء ..

فاضطرب شاور قائلا : « ولم يا أسد الدين ؟ » ..

— إنى لست حاكما مثلك .. وإنما أنا جندى من جنود نور الدين فنور الدين هو الذى يتفق معك ..

فسرى عن شاور قليلا وقال : « أنت تنوب عن نور الدين » .

ــ أنوب عنه فى شئون الحرب لا فى شئون السلم .

ــ تفاوضنى على أساس الاتفاق القديم بينى وبين نور الدين .

ــ إن أردت الحق يا أبا شجاع فإنى قد نسيت شروط ذلك الاتفاق من طول ما تقادم عهده .

ــ سأذكرك به إن شئت .. ثلث الخراج والتعاون معه على قتال الفرنج ...

ــ هل تقبل أنت اليوم ذلك ؟

ــ أقبل التعاون على قتال الفرنج .. وسنتفاوض فى تلث الخراج .

ــ قد أخبرتك أنى لا أملك التفاوض فى شىء .

فهم شاور أن يقول له : « فيم إذن بقاؤك فى مصر ؟ ولكنه استهجن ذلك فأمسك ، وكفاه أسد الدين مؤنة ذلك إذ مضى يقول : « وأنا باق هنا حتى يصل إلىّ كتاب من نور الدين فأمتثل لأمره » .

فتشجع شاور حينئذ فقال : « كأنك يا أسد الدين لا تعلم اليوم كم تنوون أن تقيموا بيننا » .

ــ لا يا أبا شجاع حتى يصل كتاب نور الدين ، فأعلم ما يريد .

ورجع شاور إلى داره والهواجس تذهب به كل مذهب . آه لو أعلم ماذا وراء هذا الرجل ! ثم خطر له فجأة أنه ربما كان أسد الدين قد اتفق من دونه مع العاضد على شىء ، وتذكر أن العاضد قد خلع عليه وعلى رجاله يوم قدموا ثم قابله أسد الدين بعد ذلك فى قصره مرة أومرتين ، فقال لنفسه : عجبا كيف لم يخطر لى هذا الخاطر من قبل ؟

ومضى شاور متسللا إلى القصر ليستطلع الحقيقة من العاضد ، وكان على وفاق معه . وصفاء ، منذ استجاب لرغبة العاضد فى القضاء على

الفسطاط ، فاستقبله العاضد مرحبا كعادته ، وقال له : « ماذا شغلك عنا يا أبا شجاع ، فإنا لم نرك منذ أيام ؟ » .

— ما شغلنى يا مولاى غير هؤلاء القوم ، أتفقد حاجاتهم وأنظر فى راحتهم .

وأدرك العاضد من لحن قوله أنه ضائق الصدر بهم ، فأحب أن يستطلع ذلك منه . وهكذا أراد شاور أن يستطلع من العاضد ، فإذا العاضد هو الذى يستطلع منه .

— لقد ظننت يا شاور أنك على وفاق معهم دونى .. وأن ذلك هو الذى شغلك عنى ... !

— كلا يا مولاى لن أتفق معهم اليوم على شىء إلا بعلمك ومشورتك .

— أو قد كلمك أسد الدين فى شىء ؟

— لا يا مولاى .. لم يفعل بعد .. فهل كلم مولاى فى شىء ؟

— أنا ؟ ماذا يدعوه إلى الكلام معى .. وعنده الوزير المسئول ؟

وهم شاور أن يخبره بما دار بينه وبين أسد الدين لولا أنه خشى أن يغض ذلك من قدره فى عين العاضد ، فآثر أن يطويه عنه .

ولكن العاضد قرر أن يخبر شاور بما دار بينه وبين أسد الدين فى المقابلة الثانية فقال : « لقد أردت أن ألقاك يا شاور لأطلعك على ما دار بينى وبين أسد الدين إذ سألته عما ينوى أن يعمل هذه المرة فى بلادنا ، فتخلص بلطف و لم يجبنى جوابا صريحا .

— فهل رابك هذا منه يا مولاى ؟.

– كلا .. ما رابنى إذ ظننت أنه يريد أن يكلمك أنت لثقته بـك من دونى .

وهنا وقع شاور فى الفخ الذى نصبه العاضد .

– كلا يا مولاى إنه لا يثق بى ، فقد سـألته أنـا أيضـا ، فلـم يعطنـى جوابا صريحا .

فأبدى العاضد حينئذ استياءه من شاور وقال له : « والله يا شاور ما ساءنى أن لم يثق بى أسد الدين مثلما ساءنى أنك أنـت لا تثـق بـى ، لم كتمت عنى هذا فى أول الأمر ؟ » .

فأخذ شاور يعتذر ويتنصل ويقول : « هب لى ذلك يـا مـولاى فإنـه بقية مما سلف من قلة اطمئنانى إليك » .

– ويلك يا أبا شجاع .. عفا الله عما سلف .. وقـد أنقـذت أنـت عرش آبائى بقضائك علـى مدينـة الفسـطاط . فكيـف أنسـى لـك هـذا الجميل ؟ أتدرى ماذا كان يكون لو بقيت الفسـطاط اليـوم ؟ إذن لـنزل أسد الدين عندهم هنـاك فتصرفـوا فـى شئون الدولـة وجعلـوا مدينتهـم العاصمة وأعلنوا انتهاء حكم الفاطميين ..

فقال شاور وقد اطمأن إلى العاضد وزال ارتيابه : « ومـا يدريـك يـا مولاى ألا يكون أهل الفسطاط يعملون مع أسد الدين اليوم على تحقيـق هذا الذى ذكرت » .

– الآن أعجبتنى يا شاور ! أجل هكذا دعنا نتكاشف ونتصارح فيمـا بيننا ، فأنت أولى بنا ونحن أولى بك من هؤلاء ..

– صدقت يا مولاى .. القريب قبل الغريب ..

وانصرف شاور من عند العاضد وقد اطمأن باله إلى حين ..

٣

وما علم شاور حين أرسل كلمته التى طرب لها العاضد أنه قد أصاب كبد الحقيقة دون أن يشعر ومن حيث لم يقصد ، فأنى له أن يعلم أو يخطر على باله أن أسد الدين كان مجتمعا فى ذلك الوقت ذاته ، مع أبى الفضل وجماعته ومعظمهم من أهل الفسطاط ، ويتذكر أن فى هذا الذى سنح بباله عَرَضا حين سمع كلام العاضد عن الفسطاط والقاهرة .

وليست هذه أول مرة يلقى فيها أسد الدين جماعة المصلحين فى القاعة الخاصة بهم من دار الفضل بن أبى الفضل إذ كان قد أخذ يتردد إليها متنكرا متخفيا لا يعلمَ سره غير قليل من خاصة رجاله ، وحتى هؤلاء يعلمون أنه يذهب ليجتمع مع أبى الفضل وطائفة من المصريين من أهل الحل والعقد ليتشاور معهم فى أمور البلاد . ولكنهم لا يدرون أن هؤلاء جماعة سرية وأن أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين قد انتُخبا عقب قدومهم فصارا من أعضائها .

وكان أبو الفضل قد أطلع أسد الدين على سر الجماعة منذ كان مقيما معه فى خيمته أثناء حصار القاهرة ، لكى يخبر نور الدين بذلك فيطمئن ، ووعده أنه سيجمعه بهم عند عودته ، وينتخبه عضوا فيهم إذا شاء ، فلما عاد أسد الدين اقترح على أبى الفضل أن ينتخب ابن أخيه صلاح الدين أيضا ، وقال له إنه أكتم للسر منى فأجابه أبو الفضل إلى طلبه .

وكان يوم انتخاب هذين يوما مشهودا فى تلك القاعة العتيدة التى حملت جنين الثورة سنين طويلة حتى وضعتها اليوم خلقا سويا ، فقد حضر يومئذ أربعون رجلا من أعضاء الجماعة ، وتقدم أبو الفضل إلى أسد الدين وصلاح الدين فحلّفهما أمامهم على المصحف أن يكتما سر الجماعة وأن يعملا لطرد الأعداء من بلاد العرب والمسلمين وحمايتها منهم . فأقسما على ذلك .

ولما انتهى القسم أخذ أبو الفضل يقدمهم واحدا واحدا إلى العضوين الجديدين فكانا يتعجبان من اختلاف مهنهم ، وتباين طبقاتهم ، فهذا قاض وهذا إمام جامع ، وهذا حداد وهذا بزاز وهلم جرا .

وتكلم أسد الدين فقال : « إن أولى الناس أن يكون فى جماعتكم لهو الملك العادل نور الدين » .

فأجاب أبو الفضل قائلا : « إننا نعتبر نور الدين منا وإن لم يكن معنا ولولاه ما نجحنا فيما سعينا إليه .. ورب رجال ماعرفناهم ولا عرفونا وهم منا » .

ثم بدأ الجماعة يتذاكرون فى خطتهم الكبرى ويتباحثون فى وسائل تنفيذها وفى موقفهم من شاور وموقفهم من العاضد ، وموقفهم من جيش الدولة وفى اختيار الرجال الموثوق فى إخلاصهم وأمانتهم من أهل الكفايات لتسند إليهم المهام الخطيرة فى كل شأن من شئون الإدارة والإصلاح ، وكان أبو الفضل قد وضع برنامجا لذلك فاتخذوا أساس البحث والمناقشة ، فأخذوا بما أخذوا منه وعدلوا ما عدلوه .

وتوالت جلساتهم بعد ذلك فكان يحضر أسد الدين مرة ويحضر صلاح الدين مرة أخرى ، ليبقى أحدهما فى المعسكر . عند غياب

صاحبه مبالغة فى التكتم . وظلوا أياما يجتمعون ويشاورون ويقررون ما يقررون دون أن ينفذوا من ذلك شيئا إلى أن كان ذلك الاجتماع الذى حضره أسد الدين على أثر المقابلة الأخيرة بينه وبين شاور ، فلما حكى لهم ما سمع ذلك اليوم من شاور . ، أدركوا أن قد آن الأوان للشروع فى تنفيذ الخطة خشية أن يسبق شاور فيقدم على شىء قد يكبدهم مشاق هم فى غنى عنها ، فأجمعوا على ذلك .

وفى غد ذلك اليوم حضر أبو الفضل إلى المعسكر فاختلى بأسد الدين ونفر من كبار رجاله فيهم صلاح الدين . فتشاوروا طويلا حتى اهتدوا إلى الطريقة التى يبلغ بها أسد الدين هذا الأمر إلى شاور وإلى العاضد ، وإلى جيش الدولة أيضا بحيث لا يترك لأحد منهم مجالا للاعتراض على ذلك .

وما ارتفع ضحى اليوم التالى حتى ركب أسد الدين فى نفر من رجاله إلى قصر العاضد فاستأذن لمقابلته ، فأذن له واستقبله أحسن استقبال كعادته ، فلما استقر بهما المجلس قال للعاضد .

ــ إنى تلقيت أمس كتابا من نور الدين يقرئ أمير المؤمنين العاضد فيه التحية ويرجو أن يكون فى خير وعافية .

فأخذ العاضد يثنى على نور الدين بما هو أهل له ثم قال :

« إنا لن ننسى أبدا جميلة .. إذ ما استغثنا به يوما إلا أغاثنا بكم مرة بعد مرة » .

ــ إنه يرى ذلك واجبا عليه فى سبيل الله وسبيل العرب والمسلمين ، وقد أمرنى اليوم يا مولاى أن أبقى مقيما بجيشى فى مصر تحت خدمتكم خشية ألا يتمكن فى المستقبل من إنجادكم حين تستنجدون به مرة

أخرى ، لما يقتضيه إرسال الحملة من إنفاق أموال هو فـى أشد الحاجة إليها لمواجهة العدو هناك .

فأجابه العاضد قائلا فى الحال : « هذا كرم عظيم مـن نـور الديـن ، وإنى سأصدر أمرى بأن تكون نفقتكم من خزانة الدولة أسوة بجيشنا كل على قدره ورتبته » .

فدهش أسد الدين مما شهد من العاضد ، فقد ظن أنه سيتوقف قليـلا أو يلوح فى وجهه شىء من قلة الرضا ، وما علم أن العاضد قـد استعد بهذا الجواب من قبل ، إذ كان قد توقع شيئا كهذا فقرر بعد التفكير فى جميع الاحتمالات أن يوافق أسد الدين ويجاريه فى كل ما يريـد بغيـة أن يحفظ له ذلك فيبقى على عرشه ، وحينئذ لا يضيره أن يتولى أسد الديـن الوزارة مكان شاور . بل لعله يكون خيرا له من شاور الذى طالما جرعه الغصص .

واستشف العاضد ما فى نفس أسد الدين فمضى يقول :

« لا يدهشك ما سمعت منى فإنى ما استغثت بكم هذه المرة لأدعكم تتركون بلأدى هدفا لمطامع الفرنج من جديد فكفى ما قاسيناه منهم » .

فشكره أسد الدين على ذلك ثم قال :« أخشى يا مولاى ألا يرضـى رجالى بالبقاء فى الخيام خارج المدينة » .

فأسرع العاضد يقول : « هذا لا يجوز .؟. يجب أن تخصص لهم دور فى داخل المدينة كالدور التى ينزل فيها جنودنـا .. لا فـرق بـين هـؤلاء وهؤلاء .. فإنى أعتبرهم جميعا جنودى منذ اليوم » .

فكرر أسد الديـن شـكره ، وتهيـأ للانصـراف ، فقـال لـه العـاضد : « هل كلمتم شاور فى ذلك ؟

— لا يا مولاى .. قد رأيت من واجبى أن أخبرك أولا .. وإنى ماض إليه الساعة لأخبره .

فلاح السرور فى وجه العاضد ، وقال : « إذن فأخبره بما سمعت منى لكى يتهيأ لتنفيذ أمرى » .

وكان شاور قد بلغه ركوب أسد الدين إلى القصر فارتاب وهام فى أودية الظنون ، وحار ماذا يصنع . فما أخرجه من حيرته إلا مجىء أسد الدين إليه فى دار الوزارة ، فاستقبله فى الديوان مرحبا محتفيا ، فأخبره أسد الدين بمثل ما أخبر العاضد ، فلم يستطع شاور أن يخفى ما على وجهه من العبوس . وجعل يقول : « هذا أمر خطير يجب النظر فيه والتفكير فى عواقبه حتى لا يؤدى إلى خلاف بيننا وبين نور الدين ، بعد ما حمدنا الله على زواله » .

فقال أسد الدين : « إن نور الدين هو الذى ارتأى هذا الرأى وهو لا يقصد إلا الوفاق والتعاون على ما فيه خير مصر وخير العرب والمسلمين ، فكيف يؤدى إلى خلاف بينكم وبينه إلا إذا كنتم أنتم تريدون الخلاف ؟

فسكت شاور قليلا ، ثم قال : « وهل كلمت العاضد فى ذلك ؟

— نعم .. فكان أكرم منك يا أبا شجاع .. إذ ما اكتفى بالموافقة حتى أمر بأن تكون نفقتنا على مصر واعتبارنا من جنود مصر ...

— إنك لا تعرف العاضد يا أسد الدين ..

فقال أسد الدين مداعبا : « ولا أعرفك أيضا يا شاور ، فإنك كنت دائما لغزا غامضا على .. فتارة تكون معنا وتارة علينا وتارة بين بين » .

وأدرك شاور أن الأمر قد خرج من يده ، وأشفق أن يكون العاضد أحصف منه وأحكم ، فرأى أن يصلح موقفه .

— أتدرى يا أسد الدين ماذا ساءنى فى هذا الأمر ؟

— أى شىء يا أبا شجاع ؟

— إنكم بدأتم بالعاضد قبلى ، وما كان لكم أن تفعلو ذلك ، وأنتم تعلمون أنه هو الذى وقّع الميثاق مع الفرنج ، وأننى أنا الذى أعلنتها حربا على حاميتهم حتى أجليتهم جميعا ..

وكان فى وسع أسد الدين أن يقول له : « وأنت حاربتنا مع الفرنج وقبل ذلك خلّيت بيننا وبينهم فى بلبيس و لم تنجدنا » ولكنه قد قرر أن يسالمه ما أمكن ، فقال : « عفا اللّه عما سلف يا أبا شجاع وما بدأنا بالعاضد لمزيد له عندنا دونك إلا أنه الخليفة . وأنا أعتذر لك على كل حال . وأعدك أن أرجع فى المستقبل إليك أولا قبله » .

فأظهر شاور الرضا وقال : « وثلث الخراج ألم يشر إليه نور الدين فى كتابه ؟» .

— بلى إنه اقترح أن ينفق علينا منه : ، ولكن لا داعى إليه الآن بعد ما عرضتم أن تكون نفقتنا عليكم ، وأنت تعلم أن نور الدين لا يريد المال لنفسه بل لينفقه فى سبيل اللّه . وهذا فى سبيل اللّه .

وأطرق شاور هنيهة ثم قال : « هذا خير يا أسد الدين ، ولو أنك قبلت مفاوضتى يوم اقترحت عليك لربما انتهيت معى إلى مثل هذه النتيجة » .

— لا بأس يا أبا شجاع .. كل شىء رهين بوقته .. وما كنت إذ ذاك أملك شيئا قبل مجىء كتاب نور الدين .. الحمد للّه إذ وجدت مع العاضد ومنك كمال الموافقة » .

فعاد العبوس إلى وجه شاور .

ــ أما زلت تذكر هذا العاضد يا أسد الدين ؟

ــ كيف لا وأنا بحاجة إلى أمر منه اليوم بأن يُعطى لرجالى دور يسكنونها فى المدينة ؟

ــ لا شأن لك بالعاضد ، أنا الذى سآمر لهم بذلك .

ففرح أسد الدين وشكره إذ كفاه مشقة الرجوع إلى قصر العاضد ، ولم ينصرف من عند شاور حتى أخذ منه الأمر .

٤

وما لبث جند أسد الدين أن قوضوا خيامهم بأرض اللوق ، فانتقلوا إلى المدينة فى مساكن مصاقبة لمساكن الجنود المصريين حتى كأنهم فريق منهم . وقد استاء هؤلاء فى أول الأمر وارتابوا ، ولكنهم رأوا الخليفة والوزير راضيين بذلك فسكتوا . وكانوا قد ضاقوا حينئذ بما لحقهم من الخسائر فى الحروب التى خاضوها متحالفين مع الفرنج ثم مقاتلين لهم على حسب ما ساقهم إليه شاور حتى ذهب كثير من رجالهم ، وحتى صار عامة الناس ينظرون إليهم بازدراء ويتندرون عليهم بأنهم جيش مرى الذى أسلم أو جيش شاور الذى كفر ، فقال بعضهم لبعض : لعل وجود هؤلاء القوم يزيل عنا هذه الوصمة ، ويمنع شاور أن يدفع بـ فى حروب لانجنى منها غير المذلة والعار » .

وقد أمر أسد الدين رجاله بأن يتوددوا إلى العساكر المصرية . فكان لذلك أثر جميل فى شيوع المودة والصفاء بينهم وبين هؤلاء الطارئين . ومما ساعد على ذلك أيضا أن جيش مصر لم يكن فرقة واحدة من عنصر واحد ، بل كان فرقا مختلفة من عناصر مختلفة أهمها فرقة المغاربة

وفرقة الأتراك ، وفرقة السود أو العبيد ، فلم يجدوا في أنفسهم حرجا كبيرا من أن تنضم إليهم هذه الغزّ من جراء توددهم للجميع أن صاروا أحب إلى كل فرقة منهم من الفرقتين الأخريين ، لما بين هذه الفرق الثلاث من تنافس قديم .

أما أسد الدين فقد نزل دارا كبيرة استأجرها له أبو الفضل في وسط العاصمة ، غير بعيد من دار الوزارة التي يقيم فيها شاور ، فصار يستقبل الناس فيها على اختلاف طبقاتهم ، أفواجا أفواجا ، بين زائرين مسلمين ، وأصحاب شكاوى وذوى حاجات ، وخاصة من أولئك اللاجئين الذين فقدوا ديارهم وأموالهم في حريق الفسطاط ، فكان يأمر بتنفيذ شكاويهم وحاجاتهم للنظر فيها ، ثم يبعث بها إلى شاور في ديوان وزارته مشفوعة برجاء لطيف ليوقعها ، فكان شاور يتكرم بتوقيعها وإنفاذها طيب النفس في أول الأمر ، إلا أنه لم يلبث أن ضاق بذلك لما أكثر عليه وشعر أنه مأمور لا آمر ومحكوم لا حاكم ولا سيما حين أخذت الرقاع تصل إليه خالية مما كان يحليها من عبارات الرجاء والاستشفاع ، ولكنه لم يستطع أن يمتنع أو يعترض خشية أن يفقد حتى هذا الحق الباقي له في التوقيع والإنفاذ :

وقد أصبح لهذه الدار كتبة وموظفون ممن اصطفاهم أبو الفضل وجماعته من أهل الكفاية والأمانة . يحسنون استقبال الناس ومعاملتهم ، فأخذ الناس يشعرون شيئا فشيئا أنهم في عهد جديد لا يحتاجون له في رفع ظلاماتهم وقضاء حاجاتهم إلى الوساطات والشفاعات .

وكان أول عمل جديد للعهد الجديد أن اهتم بإعادة بناء الفسطاط وعمارتها . فدعا أهلها إلى ذلك وشجعهم بالمال والمعونة ، فتسابقوا إلى

ذلك وشرعوا يعمرون ما حول الجامع . جامع عمرو . ثم أخذ العمران بعد ذلك يتسع قليلا قليلا .

وكان لهذا العمل صدى جميل فى نفوس الناس جميعا ، فأهل الفسطاط قد شعروا بالإنصاف واستبشروا برجوع مدينتهم الحبيبة ، وأهل القاهرة قد فرحوا كذلك إذ تخلصوا مما كان يضايقهم من وجود هؤلاء اللاجئين بينهم يزاحمونهم فى المساكن ويكلفونهم المغارم ، ويقذون عيونهم بمظاهر البؤس والشقاء .

ولكن العاضد تألم كثيرا من إعادة بناء الفسطاط ، وقد حاول فى أول الأمر أن يثنى أسد الدين عن ذلك ، واقترح عليه أن يأمر ببناء المساكن لهم فى أطراف القاهرة ، زاعما أن ذلك أفضل لهم ، وأقل نفقة على الدولة . وأجدر أن يزيل التنافس القديم بين أهل المدينتين حين تجمعهم مدينة واحدة هى العاصمة . وقد ألح العاضد فى ذلك إلحاحا شديدا على خلاف عادته فى الشئون الأخرى حتى عجب أسد الدين وداخله ريب فى أن يكون العاضد حقا هو الذى اقترح ذلك الحريق على شاور . فاعتذر أسد الدين بلطف ، وقال له : « لو تقدمت لنا بذلك يا مولاى قبل أن نعلنه فى الناس . أما الآن فلا سبيل إلى الرجوع ، وإلا حدثت فتنة لا تؤمن عواقبها . وأرجو أن يزول التنافس بين المدينتين غدا إلا فى الخير » .

واغتم العاضد من يوم ذاك ، وأخذت تساوره الظنون والمخاوف وإن أخفى ذلك وظل على صلة جميلة مع أسد الدين ورجال العهد الجديد .

أما شاور فإنه ـ على استيائه من هذا العهد الجديد الذى بدأت دولته تزول فيه شيئا فشيئا ـ وسلطانه يضمحل على الأيام ـ قد فرح فى قرارة

نفسه بتجديد عمارة الفسطاط ، إذ وجد فى ذلك سبيلا للانتقام من العاضد فيما تخلى عنه وغدر به وأخل بالاتفاق السرى بينهما على ذلك « الغريب » ثم إنه وجد فى هذا العمل أيضا سبيلا إلى إزالة سخط الناس عليه . وكف ألسنتهم عن القدح فيه والتنديد المستمر بخيانته أو سوء تدبيره ، فأبدى همة كبيرة ونشاطا بالغا فى تأييد هذا المشروع وتشجيع القائمين على خلاف عادته فى الشئون الأخرى ، حتى عجب أسد الدين ورجاله وتأكد عندهم من الموازنة بين موقفه وموقف العاضد أنه صادق فيما كان يزعم لهم ـ كلما جاءت سيرة حريق الفسطاط وما فيه من خطأ من الناحية الحربية ـ أن حريق الفسطاط كان من رأى العاضد وأنه ما كان ليلجأ إليه فى مدافعة الفرنج لولا إلحاح العاضد عليه واضطراره هو إلى مسايرته خشية أن ينشق عليه فى ذلك الوقت العصيب .

على أن هذا التباين بين موقف العاضد وموقف شاور من قضية الفسطاط لم يلبث أن صار سبيل تقارب بينهما ثم اتفاق ، فقد استدعاه العاضد سرا ذات يوم ، فلما اختليا جعل العاضد ينكر على شاور ما أظهر من التحمس الشديد لتجديد عمارة الفسطاط ، فانبرى شاور يعتب عليه ما بدأ به من تأييد الغريب فأخل بالاتفاق بينهما أن يكونا إلبا واحدا عليه .

وتعاقبا طويلا حتى انتهيا إلى أن أعتب كلاهما الآخر ، فتعاهدا أن يعودا إلى ما كانا عليه من الوقوف معا للتخلص من هذا الخطر المشترك ما وجدا إلى ذلك سبيلا .

وظل تجديد عمارة الفسطاط غصة فى حلق العاضد لا يكاد يسيغ معها طعاما ولا شرابا إلى أن قام العهد الجديد بعزل جميع قضاة المذهب

الفاطمى وتوحيد القضاء فى القطر كله على المذهب السنى لأنه مذهب عامة المصريين ، وإسناد منصب قاضى القضاة إلى فقيه من جماعة المصلحين هو صدر الدين بن درباس ، فلما سمع العاضد بذلك هان عنده أمر الفسطاط فى جنب ما حدث . فقال لنفسه ولخاصة رجاله : « قد كنت أخشى من تجديد الفسطاط على القاهرة ، فهاهم أولاء اليوم قد حولوا القطر كله إلى فسطاط !

وأتبع العهد الجديد هذه الخطوة بخطوة أخرى فى هذا السبيل فعمد إلى (دار المعونة) وغيرها من السجون التى كان محبوسا فيها كثير من المعادين للبيت الفاطمى ، فأطلق سراحهم ، وهدم تلك السجون لتبنى على أنقاضها مدارس للسنة بين شافعية ومالكية .

فما بقى عند العاضد من شك أن العرش الذى هو جالس عليه يوشك أن يهدم كما هدمت تلك السجون .

٥

وبينما كان العهد الجديد ماضيا فى طريقه من إصلاح إلى إصلاح وأبو الفضل وجماعته من وراء الستار منهمكين فى دراسة مختلف الشئون وبحث وجوه الإصلاح وتقديم المقترحات الجديدة ، وقد طربوا لما أتاح الله لهم من نجاح ، فألهب حماستهم للعمل ونشاطهم فيه ، إذ قالة سوء سرت بين الناس فتهامسوا بها برهة ، ثم أخذوا يلغطون إلا من عصم الله .

فاغتم أسد الدين وتألم ، وطلب من أبى الفضل أن يعقد اجتماعا فى الحال لبحث هذا الشأن .

وُعقد الاجتماع فى القاعدة العتيدة ، وكان من شهوده قاضى القضاة صدر الدين بن أبى درباس والقاضى الفاضل ونجم الدين الخبوشانى وأبو الليث المحتسب وابن حكيم إمام الجامع الأقمر ، وغيرهم من أساطين جماعة المصلحين ، وحضر أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين ، فلما استقر بهم المجلس افتتح نجم الدين الحديث :

ـ هذه قالة سوء أريد بها الفتنة ، فلعن اللّٰه من أرسلها ، وغفر لمن لغط بها وهو لا يدرى ما تنطوى عليه من شر . ولا ينبغى لك يا أسد الدين أن تهتم بها فإنها سحَابة صيف وتنقشع ، وما أنتم واللّٰه بدخلاء فى مصر ، فأنتم منا ونحن منكم ولكن الذين أرسلوا هذه القالة هم الدخلاء .

وتطلع الحاضرون إلى أسد الدين ليسمعوا ما عنده :

ـ أنا أعلم يا إخوانى أنها قالة سوء أريد بها الفتنة ، ولئن ساءت عامة رجالى فإنها لم تسؤنى بقدر ما أخافتنى أن تحبط أو تعرقل ما بدأناه من عمل لخير مصر وخير العرب والمسلمين .

فقالوا جميعا : معاذ اللّٰه يا أسد الدين أن يقع ما تخشاه ونحن معك على الكبير والصغير ..

وقال أبو الفضيل : « لا ريب أن هذه من العاضد ، وقد أشرنا عليك مرارا أن تبادر بخلعه فتريحنا وتريح البلاد منه » .

قال نجم الدين : « إى واللّٰه لقد آن لك اليوم أن تفلق رأس الحية».

ـ رويدكم يا جماعة ، فإن هذا ينبغى أن يتم بالتدريج لئلا نثير ثائرة الجند المخلصين للعرش وخاصة من المغاربة والعبيد . وأنتم تعلمون أن العاضد قد استغاث بنور الدين ، وبعث إليه بشعور نسائه ، فليس فى

وسعى دون الرجوع إلى نور الدين أن أتعجل بخلعه من أجل قالة قالها علينا .

فقال ابن حكيم : « إذن فأعرض عنها يا أسد الدين ولا تبال بها وهبها كأنها لم تكن .

فانبرى صلاح الدين عندئذ يقول : « إن عمى لم يبال كثيرا بهذه القالة وما من أجلها جمعكم ، وإنما ذكرته بأمر كان يريد أن يفاتحكم به من قبل فشغل عنه ، تكلم يا عم واشرح لهم ما تريد » .

— بل تولّ أنت ذلك عنى يا يوسف فأنت أفصح به منى ..

فقال صلاح الدين : « يا معشر المصلحين المخلصين ، إنا قد بحثنا معكم فى كل شىء ولكننا لم نبحث بعد حقيقة وضعنا فى بلادكم ، وكان علينا أن نفعل حتى تكونوا على بينة منا ونكون على بينة منكم» .

فابتدره ابن حكيم قائلا : « ما هذا يا صلاح الدين ؟ نحن وأنتم شىء واحد ومصر بلادكم هى بلادنا » .

— على رسلك يا ابن حكيم دعنى أتم حديثى .. لا ينبغى أن ننكر أننا غرباء فى هذا البلد ، فنحن نتبع نور الدين ، ونور الدين لا يملك مصر ولا يحكمها ، ولكنه أراد أن يجمع قوى العرب جميعا لمحاربة أعدائهم الفرنج . وقد رأى أن مصر تستطيع أن تقوم فى ذلك بالنصيب الأكبر لو هيىء لها السبيل ، فأرسلنا هذه المرة لنبقى فيها إذا وجدنا ذلك فى مصلحة الجهاد المشترك وآنسنا رغبة من المصريين فى بقائنا عندهم وموافقة عليه . وإلا فإنه يأمرنا بالرجوع إلى دمشق فماذا ترون؟

فقالوا جميعا : « سبحان الله ، وهل بقى عندكم شك فى رغبتنا فى بقائكم وتمسكنا به ؟ » .

- إنّا لا نسألكم يا جماعة المصلحين عن أنفسكم ولكن عن غيركم من المصريين .

قال صدر الدين بن درباس : « واللّه ما أنصفتم المصريين إن حكمتم عليهم بقالة سوء أرسلها فاسق فجرت عفوا على ألسنتهم وأنتم تعلمون أن قلوبهم معكم على ذاك الذى أرسلها ابتغاء الفتنة وابتغاء إبقائهم عبيدا له » .

فصاحوا جميعا : « صدقت واللّه يا صدر الدين ، لقد عبرت عما فى نفوسنا جميعا » .

وتهيأ أسد الدين عندئذ للكلام فقال : « إننا نعرف بأنفسنا صدق ما قلتم ، ولكن ماذا تقولون لو انتهت الأمور بمصر إلى أن تكون ولاية من ولايات نور الدين أترضون ذلك ؟ » .

فساد الصمت لحظة ثم قال نجم الدين : « لم لا نرضى بذلك ؟ أليس نور الدين ملكا مسلما وهو خير من هذا العاضد ألف مرة » ؟

فاعترض أبو الفضل قائلا : « كلا يا نجم الدين إن هذا لن يكون ، وما ذلك لأننا لا نرضى نور الدين ملكا علينا ، فإنه أفضل ملوك العرب والمسلمين قاطبة ولكن مصر بلد عظيم يصح أن يكون غيرها ولاية تابعة لها ، ولكن لا يصح أن تكون هى ولاية تابعة لغيرها . ونحن نريد لها أن تقوم من تلقاء نفسها بنصيبها الأكبر فى جهاد العدو وتحرير بلاد العرب والمسلمين ، لا أن يكون محمولة على ذلك مدفوعة إليه».

فاستحسن الباقون كلامه ما خلا نجم الدين إذ قال : « تذكر يا أبا الفضل هداك اللّه أن الإسلام قد أبطل العصبية ، فإنها من أخلاق الجاهلية » .

- كلا يا نجم الدين ، هذه ليست عصبية ، ولكن مصلحة المسلمين تقضى استقلال هذا البلد ، وعدم تبعيته لغيره ، وإن كان حاكمه فى كمال نور الدين وفضله . والتاريخ أصدق شاهد ، فإن مصر ما خضعت فى الإسلام إلا للمدينة فى فجرها الأول على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثم سادها الاضطراب بعد ذلك و لم يلبث أن وضح كيانها المستقل فى جميع العصور ، وقد ساعد ذلك على قيام دولة الطولونيين ثم الإخشيديين ثم هؤلاء العبيديين ، فهل كان ابن طولون يستطيع أن يقوم بما قام به من جهاد الروم بعد أن ملك الشام إلى حدود الفرات ، لو لم يستقل بمصر ويجعلها عاصمة ملكه ؟ وهل كان فى الإمكان أن تبقى دولة العبيديين فى مصر لو أن المعز لدين الله رجع إلى المغرب واعتبر مصر ولاية تابعة له ؟ لقد أدرك المعز هذا المعنى فقصر اهتمامه على مصر وقطع صلته ببلاده الأصلية حتى نقل منها جثث آبائه فدفنها فى مصر . نحن لا ندعو إلى عصبية يا نجم الدين ، ولكنا نريد أن تنطلق القوة الكامنة فى هذا البلد العظيم لخدمة العرب والمسلمين أجمع .

فأعجب الحاضرون بكلام أبى الفضل إلا أنهم أشفقوا أن يضيق به أسد الدين وابن أخيه ، فما راعهم إلا صلاح الدين يقول : « لله درك يا أبا الفضل ، لقد قلت الحق وشرحته أحسن شرح ، وإنا قد اقتنعنا بهذا المعنى لا من التاريخ كما فعلت ، بل مما شهدنا بأعيننا من حال مصر وما أودع الله فيها من قوة لا تحدوغنى لا ينضب .

قال نجم الدين : « هذا كله حق ولكنا لا نريد أن نفرط فيما كسبناه من تعاونكم معنا ، إذا أصر نور الدين على أن يجعل مصر ولاية تابعة له » .

قال أبو الفضل : « إن كان نور الدين لا يدرك هـذا المعنى ، فعلينا أن نشرحه له حتى يقتنع به ، وليس لنا أن نوافقه على كل ما يريد ، فنجور على مصلحتها ومصلحة العرب والمسلمين كذلك » .

فقال صلاح الدين : « هذا بيت القصيد . إن نور الدين لم يكلم عمى فى هذه المسألة ألبتة ولكن عمى رآكم تعدونه ليكون حاكما مكان شاور . فبدا له أنه إن صار حاكم مصر فينبغى ألا يكون تابعا لنور الدين ، يعزله إن أراد ويستدعيه للرجوع إليه متى شاء ، فأحب أن يسمع رأيكم فى هذا » .

قالوا جميعا : « هذا غاية ما نريد » .

ومضى صلاح الدين يقول : « ولعلكم تستطيعون الآن أن تدركوا سر تشبثه بإبقاء العاضد فى ملكه ريثما يضمن قدرته على الاستقلال بمصر ، فإنه لو خلعه اليوم لصارت مصر تابعة لنور الدين على التو » .

قالوا : « الآن فهمنا سبب امتناعه عن ذلك على شدة إلحاحنا عليه » .

وهنا قال أسد الدين : إن يوسف ابن أخى قد قال لكم جل ما فى نفسى ، ولكن فاته أن يخبركم بأنى لا مطمع لى فى حكم مصر إلا من أجل حرصكم على توليتى وإلا فإنى مستعد أن أغادر بلادكم وأعود إلى نور الدين .

فقال أبو الفضل : كلا يا أسد الدين ، لن ندعك تذهب عنا ، وإن حاولت ذلك منعناك بالقوة ، فإنا لا نرضى أبدا أن يذهب سعينا الذى سعيناه سدى فنعود إلى حكم شاور وحكم العاضد ، ويرجع الفساد فى مصر كما كان . كلا لا مناص لك من أن تتولى حكم مصر مستقلا بها

على نور الدين ، ولكن متعاونا معه على جهاد الفرنج ، ثم تخلع العاضد وتخلصنا من عرشه وعرش آبائه .

فوافقوا جميعا على كلام أبى الفضل .

وتطلق أسد الدين عند ذلك ، وعاد إليه مرحه وخفته ، فأخذ يقول مداعبا : « بأى قوة تمنعنى يا أبا الفضل من السفر لو أردت ؟ بقوة شاور أم بقوة العاضد » ؟

فتضاحكوا جميعا وقد شملهم السرور لما انتهوا إليه من حل جميل لهذه المشكلة ، ولكن أبا الفضل أجاب قائلا فى جده وصرامته : « بل بقوة الشعب يا أسد الدين » .

ثم التفت أسد الدين إلى القاضى الفاضل ، فقال له مداعبا أيضا : وأنت يا عبد الرحيم يا كاتب إنشاء شاور ، فيم سكوتك طوال الوقت، ولم تنطق بكلمة ؟ أتخشى أن ينقل كلامك إلى شاور ؟؟

ـ قد كان هذا فيما مضى يا أسد الدين ، أما اليوم فما عدت أخشاه . إنى إن طردنى شاور فسأعمل كاتب إنشاء لك .

وهكذا انتهى الاجتماع بجو يسوده الصفاء والمرح .

ولكن جماعة المصلحين لم يتركوا العاضد دون حساب على القالة التى أرسلها ، فما فرغ ابن حكيم إمام الجامع الأقمر من صلاة الجمعة التالية ، حتى خطب الناس خطبة بليغة ، تعرض فيها لتلك القالة ، وألمع إلى الذى أرسلها . حتى كاد يصرح باسمه وكان مما قال : « أيها المصريون ، لن يكون رجل ينفع بلادكم ، ويصلحها غريبا فيكم إلا إذ كنتم أمة سوء ، فكنتم معه كما قال أبو الطيب :

أنا فى أمة تداركها اللـــ ـــه غريب كصالح فى ثمود

ولستم بحمد الله كذلك بل أنتم أمة خير وصلاح ، فلا غريب فيكم إلا ذلك الذى يريد بكم السوء دائما ولا يحب لكم خيرا أبدا .

وبلغ العاضد ما حدث فقال لخاصته : « لقد هان أمرى على الناس حتى اجترأ على إمام جامع من جوامع آبائى » .

— مرنا يا مولانا نأتك به ليلقى عقابه .

— ويلكم كيف نعاقب رجلا دافع عن أسد الدين ورجاله ؟ إذن نُثبت على أنفسنا أننا نحن الذين أرسلنا القالة .

وقرر العاضد أن يكلم أسد الدين فى ذلك فأرسل إليه يستدعيه فلما حضر استقبله بالبشر والترحاب كعادته ، ثم قال له : « إنى أعتب عليك يا أسد الدين أن تركتم إمام الجامع الأقمر يعرض بى ويتهمنى أمام الناس بأنى صاحب القالة ، حتى يتوهمون أن بينى وبينك شيئا وأنت تعلم منزلتك عندى وإعجابى بك وإعزازى لك فى السر قبل العلانية » .

وبعد أن شكره أسد الدين على ثنائه الجميل قال : « لعلك قد علمت يا مولاى أن هذا العهد قد أطلق لكل امرىء أن يقول ما يشاء إلا أن يقذف أحدا أو يمس عرض أحد ، أو يحرض على فتنة ، ومبلغ علمى أن إمام الجامع الأقمر ، لم يأت شيئا من ذلك .

— لكنه أراد أن يفهم الناس غير الحقيقة فيما بينى وبينك .

— هذا أمر بيننا وكلانا يعرف حقيقة الآخر ، فليفهم الناس ما شاءوا، فذلك لا يضير مودتنا فى شىء ...

ولما انصرف أسد الدين قال العاضد لخاصته : « إن الرجل قد حذق شيئا من الدهاء منذ نزل فى مصر » .

٦

واختفت القالة من ألسنة الناس كفرية قام على بطلانها ألف دليل ودليل ، فأخذوا يعجبون كيف كانوا يلغطون بها ، وهم يرون حسنات العهد الجديد ماثلة أمام أعينهم فى كل مجال ، وكيف لم يكتشفوا فى الحال من ذا قالها ولأى شىء قيلت ، وإن ذلك منهم لعلى طرف الثمام.

وإنهم اليوم ليحمدون اللّه على ما وقى وسلم ، إذ يرون العهد الجديد ماضيا فى سبيله أقوى وأثبت مما كان وأسرع ، فكأنما كانت تلك الفتنة نذيرا لرجاله ، أن حثوا الخطا فإن الطريق بعد طويل ، وفوتوا العدو فإنه على آثاركم لا يتوقف ساعة ولا يميل .

وأصبحت دار أسد الدين ديوانا لا تهدأ فيها الحركة ، ولا ينقطع فيه الزحام ، وكانت الرقاع والأوامر والمراسيم تنطلق من هذا الديوان إلى ديوان الوزارة فيوقعها شاور بختم الوزير ثم تعود منطلقة إلى ديوان أسد الدين ، فيجرى تنفيذها فى الحال .

وبلغ الضيق بشاور ذات يوم أقصاه . فتوقف فى توقيع مرسوم من المراسم ليعطله أو يؤجله ، فما كان من أسد الدين إلا أن طلب المرسوم ، فلما عاد إليه أمر بتنفيذه من غير توقيع شاور ، وعلم شاور بذلك فصار يسارع بالتوقيع دون توقف أو تردد .

وظل كذلك برهة إلى أن شعر يوما أن ليس فى إمكانه أن يستمر على هذه الحال ، فقد صار كأنه حامل أختام أسد الدين فحسب . ولم يعد له رأى فى شأن من الشئون ولا أمر ولا نهى . وقد انقطع الناس عن ديوانه ، فلم يعد يتردد عليه أحد . حتى رسول أسد الدين صار

يغشاه مرة واحدة فى اليوم يحمل إليه الرقاع والأوامر جملة واحدة ليوقعها شاور جميعا فيمضى بها إلى أسد الدين ثم لا يعود إليه إلا من الغد برقاع جديدة . فيقضى شاور بقية يومه فى ديوان الوزارة لا يصنع شيئا ولا يُعرض عليه شىء .

وينظر إلى من بقى من كتبة ديوانه وموظفيه ـ فقد طلب أسد الدين كثيرا منهم فانتقلوا إلى ديوانه ـ فيراهم جالسين لا يصنعون شيئا ، وإنما يقضون وقتهم فى الحديث وتبادل النكات والملح . فيضيق صدره بهم ويود لو يصرفهم إلى بيوتهم لئلا يشهدوا ما وصلت حاله إليه ، فقد صار يخجل منهم ، ويتوهم كلما تناهت إليه أصواتهم يضحكون من نكتة يتبادلونها أنهم يتندون عليه .

وكان كاتب إنشائه القاضى الفاضل هو وحده الذى يجلس إليه ويأتنس بالحديث معه ، ويفضى إليه بذات صدره ، فكان جُلّ حديثه الشكوى من هذا الزمان الذى يخفض الرفيع ويرفع الوضيع ، ويذل الأصيل ويعز الدخيل ، يعنى بالأصيل نفسه وبالدخيل أسد الدين — والقاضى الفاضل يجاريه فى ذلك ويعزيه ويسليه جهد ما يستطيع ، حتى إذا قام شاور من عنده وصعد إلى داره انكب هو على الكتب التى أحضرها معه من مكتبته الخاصة يطالعها فى شغف إلى أن يجىء موعد انصراف الديوان فينصرف .

وجلس ذات يوم مع شاور كعادته . فقال له شاور : « إنى لم أعد أطيق هذه الحال يا عبد الرحيم ، والله لقد صار هذا الديوان عندى كأنه سجن مطبق وإن هواءه ليكاد يخنقنى .

فقال القاضى الفاضل متلطفا : « لا حيلة لك إلا الصبر يا أبا شجاع حتى يقضى اللّه أمرا كان مفعولا .

— الصبر ! واللّه لو ابتلى أيوب بمثل ما ابتليت به لا نفجر .

— فلتكن أنت أصبر من أيوب .

— آه يا ليتنى كنت مغرما بهذه الكتب مثلك فأتعزى بها ..

— إن شئت أعرتك منها ما تحب .

— ويحك يا عبد الرحيم .. شاور بن مجير السعدى يقلّب صفحات الكتب وغيره يأمر وينهى فى البلاد !

— فماذا أنت صانع يا أبا شجاع ؟

— لقد حدثتنى نفسى أن أترك دار الوزارة لأسد الدين وعصابته وأنتقل أنا بأهلى إلى بيتنا بيت سعيد السعداء ... فما رأيك ؟

— وتُرسَل إليك الرقاع هناك ؟

— تُرسل أو لا تُرسل .. ذلك لا يعنينى بل صار يملأ قلبى قيحا أن أوقع على أمور ينسب فضلها إلى سواى .. سأترك لهم ختمى هنا ليوقعوا به على ما يشاءون .

— وأنا يا أبا شجاع ماذا يكون مصيرى ؟

— قد فكرت أيضا فى أمرك يا عبد الرحيم ، فأرى أن تبقى فى مكانك تعمل كاتب إنشاء له على حالك ، فإنه لن يستغنى عنك ..

فأطرق القاضى الفاضل لحظة ثم قال : « لكنى لن أجد عنده ما عندك يا أبا شجاع ، فماذا لو استقلت ؟ » .

— كلا لا تفعل ، فقد يظنون أنك ممن يعادى عهدهم هذا الذى سموه العهد الجديد .

ـ ليظنوا ما يشاءوا فإنى لا أبالى ..

ـ أنت فى حاجة إلى راتبك ..

ـ سيغنينى الله عن ذلك .

ـ أمن أجلى تصنع ذلك ؟

ـ أجل فإنى لا أستطيع أن أتلون ألوانا يا أبا شجاع ..

ـ ويحك فابق فى منصبك إذن من أجلى لعلك تستطيع غدا أن تنفعنى بشىء .

وأدرك القاضى الفاضل ما يرمى إليه شاور . وقد استدرجه بهذا الحديث ليبوح له بهذا السر ، ولكنه تجاهل ذلك .

ـ كيف يا أبا شجاع .

ـ لا أستطيع الآن أن أخبرك بشىء .. ويلك يا عبد الرحيم جئت أستشيرك فى أمرى فتناسيته واهتممت بأمر نفسك .

ـ لا تنس يا أبا شجاع أن أمرى من أمرك ، أتريد أن تعرف رأيى فيما ذكرت ؟

ـ نعم ماذا ترى ؟

ـ افعل فهذا أحفظ لمقامك وأصون لكرامتك ، ولأن تتقدم إليهم بذلك الآن من تلقاء نفسك متفضلا متكرما خير من أن يحملوك عليه غدا إذا بدا لهم ذلك .

فلما كان الغد . ذهب القاضى الفاضل إلى أسد الدين رسولا من شاور ليبلغه ما عزم عليه من النزول عن دار الوزارة رغبة منه فى التيسير على أسد الدين فيما يضطلع به من المهام .

وأسر إليه القاضى الفاضل بكل ما دار بينه وبين شاور ، فقال له أسد الدين : « هذا خير .. أره أنك معه إلى النهاية حتى يبوح بأسراره فنتقى مكايده ودسائسه ، ارجع إليه فأبلغه شكرى لأريحيته وحسن صنيعه» .

وما لبث شاور أن انتقل إلى بيت سعيد السعداء .. فانتقل أسد الدين إلى دار الوزارة ، فأقام فيها ونقل إليها ديوانه ، وفرح رجال العهد الجديد بهذ النصر الذى جاء يسعى إليهم دون أن يسعوا إليه ، وكان لانتقال ديوانهم إلى ديوان الوزارة وإستغنائهم عن مراجعة شاور وانتظار توقيعه على الأوراق أثر كبير فى تسهيل الأعمال وتأديتها على وجه أكمل وأسرع .

وانطلقت أعمال الإصلاح والتعمير فى كل مجال ، فمن تأمين السبل والقضاء على اللصوص وقطاع الطرق ، إلى تحصين البلاد وعمارة أسوار القاهرة والإسكندرية وبلبيس وتقوية قلاعها وحصونها ، وتعزيز ثغر الإسكندرية وثغر دمياط ، وتقوية الجيش وتشجيع المصريين على الانضواء فيه حتى يتكون جيش جديد من ذات الشعب لا يدين بولائه للأسرة الفاطمية ، ولا يستعمل سوط عذاب على الرعية ، ولا يساق كالأنعام ليحالف أعداء العروبة والإسلام على أبناء العروبة والإسلام .

وفى هذا السبيل اهتم العهد الجديد بتدريب الشباب على أعمال القتال لا ليتولوا الدفاع عن مصر غدا فحسب . بل لينطلقوا مجاهدين فى سبيل الله ليقوموا بالنصيب الأكبر فى طرد العدو الدخيل من الوطن العربى كله .

وأنشئت مراكز للتدريب فى كل حى من أحياء العاصمة ، وفى بعض الأحياء التى تم عمرانها من مدينة الفسطاط الجديدة ، وتطوع

كثير من الفتيان فانخرطوا فى تلك المراكز بين مدربين ومتدربين وكان فى طليعة المتطوعين لتدريب الشباب شجاع بن شاور .

٧

وقد وجد شجاع فى هذا العمل الحبيب إلى نفسه عزاء من همّ كان يؤرقه وما زال ، ومهربا من حيرة كانت تزلزله وما برحت .

ياويح هذا الشاب ، ما أشد ما قست الأيام عليه !

لقد ظن يوم قدم أسد الدين القاهرة ، وخرج أبوه فى كوكبة من رجاله ، وخرج هو مع رفاقة المغاوير من فرقة الموت يستقبلون القادم الكريم مع ألوف المستقبلين من جميع طبقات الشعب ، أن همومه قد ذهبت ولن تعود ، وأن مواجعه قد شفيت ولن تنتكس .

هذا أبوه وأسد الدين يسيران متصافيين فى الموكب السعيد ، وهذه جموع الشعب تحييهما فرحة مستبشرة ، وقد ذهب العدوّ مدحورا واصطلح الصديق مع الصديق . وهذا أبوه فى الأيام التالية ليوم الموكب يتردد إلى أسد الدين ، ويجلس إلى شجاع فيحدثه بما شهد من مودة أسد الدين وحفاوته ، ويعيد عليه ما قاله أسد الدين فى الثناء عليه فيما أوقع بحامية الفرنج . وفيما دافع جيشهم بعد ذلك حتى أجلاه عن البلاد ، فكفى أسد الدين شر قتالهم فى أرض مصر . فيطرب شجاع لحديث أبيه ، ولا يمل سماعه ، وهو يعيده مرة بعد مرة . .

ولكن الأيام مالبثت أن أخلفت ظن شجاع ، إذ خيبت رجاء أبيه ، فقد رجع شاور ذات يوم من عند أسد الدين ، فإذا على وجهه عبوس ،

وإذا هو ينفخ ويتأفف ، قال له شجاع : « ما خطبك يا سيدى ؟ ألم تجد أسد الدين هناك ؟

فأجابه شاور متأففا متكرها ، كأنما يقتلع القول من لهاته اقتلاعا :

ــ بلى وجدته : أين يذهب ؟ إنه باق هنا إلى يوم القيامة .

فاضطرب شجاع لما سمع وتوجس شرا ، ولكنه تجلد وتماسك .

ــ ماذا جرى يا سيدى ؟ هل وقع بينكما شىء ، لا سمح اللّٰه ؟

ــ لو يقع شىء جديد . الشىء القديم بينى وبينه لا يمكن أن يزول .

ــ لكن هذا قد زال أمس فماذ جد اليوم ؟

فصاح شاور منفجرا : « ويلك ! أجئت تحاسبنى ؟ دعنى الساعة فإنى ضيق الصدر » .

فتقهقر شجاع ناحية الباب ليخرج . ولكنه لم يستطع أن يترك أباه قبل أن يعرف جلية الأمر منه فتقدم ثانية إليه .

ــ يا سيدى اغضب على ما شئت ، ولكن أخبرنى بما جرى لعلى أستطيع أن أصنع شيئا ..

ــ أجل .. تستطيع أن تصنع له هو لا لى .. أنت تشفق عليه هو لا على أبيك !

ــ معاذ اللّٰه يا سيدى ! أنت والدى . فلا أسد الدين ولا غيره يمكن أن يفضلك فى قلبى .. علام يا سيدى تشك فى حبى لك ؟

وشعر شاور أنه قد قسا على ابنه بغير حق ، فقال وقد عادت الرقة إلى قلبه : « كلا يا بنى ما أشك أنك تحبنى ، ولكنك لا تقدر أن تصنع لى شيئا فى هذا لأمر ، فدعنى وهمى ولا تثقل به قلبك ..

ـــ إن همك يا سيدى من همى ولا أستطيع أن أراك مغتما ولا أغتم ، فأجلسه شاور ، وطفق يحكى له ما دار بينه وبين أسد الدين ذلك اليوم . وكيف أن أسد الدين يتهرب من الاتفاق معه على شيء ، ويداوره ولا يريد أن يصارحه ، حتى أيقن اليوم أنه يريد به سوءا ويبيت له شرا ، وأنه ينوى أن يبقى فى مصر ، وينتزع منه الحكم » .

وحاول شجاع أن يسرى عن أبيه فطفق يهون عليه الأمر ، ويقول لعله يقصد كذا ، ولعله ينوى كذا ، فيجادله أبوه ويقول : ويحك يا بنى ! لا أحد يستطيع أن يخدعنى !

ومنذ ذلك اليوم عادت هموم شجاع وآلامه ..

وقد همّ أن يذهب إلى أسد الدين فيكلمه فى هذا الأمر لعله يجد عنده ما يزيل شكوك أبيه ، ولكن ماذا يقول لأسد الدين ؟

أأقول له : أسد الدين إن أبى يخشى أن تبقى فى مصر وتنتزع الحكم منه ؟ هذا كلام يقال : وهبنى قلت له هذا ، فأى شيء يحمله على مصارحتى بما لم يشأ أن يصارح به أبى ؟ بل هبه صارحنى مخلصا وأكد لى أنه لا ينوى هذا الذى ظنه أبى . فكيف أقنع أبى بذلك ؟ أو يعتقد أن أسد الدين قد داورنى كما داوره هو من قبل ؟ ثم ماذا أقول له لو قال : نعم ، إنى سأبقى فى مصر لأن شعبها يريدنى مكان أبيك ؟ أأقول له : كذبت ، هذا غير صحيح ؟ أم أقول له : لا حق لك فى ذلك وإن أرادك شعب مصر ، فإن أبى هو صاحب الحكم وإن رغم الناس كلهم أجمعون ؟

وكان هم شجاع كالخنجر ذى الحدين ، يدمى قلبه أنىّ تحرك يمنة أو يسرة ، فهو يخشى على أبيه من أسد الدين ، كما يخشى على أسد الدين

من أبيه ، لو كانت الأولى وحدها لكان الأمر هينا ، إذن لسعى جهده مع أبيه وكافح فى سبيله بكل ما أوتى من قوة ، فإما أن ينتصر أبوه فيرضى ، وإما أن ينهزم فيستريح هو مما يقاسيه من عذاب الحيرة والقلق . ولو كانت الثانية وحدها لكان الأمر أهون إذَنْ لأنذر أسد الدين بما سمع من شاور وحذره مما يحتمل من كيده وغدره ، وحرضه على أن يتغدى بعدوه قبل أن يتعشى عدوه به ، ولن يجد أسد الدين صعوبة فى الإيقاع به لأن قلوب الناس معه . وعلم بتسلل أبيه إلى القصر ، فقلق . وأشفق أن يتواطأ مع العاضد على ما لا يرضاه اللّه والوطن . وسأل أباه حين رجع من القصر : أين كان ، فارتبك وغمغم، ثم زعم له أن العاضد كان قد استدعاه منذ أيام فذهب ليقابله اليوم فوجده معتكفا لا يقابل أحدا لو عكة أصابته ، فأحس شجاع بأن أباه قد أخفى عنه الحقيقة ، فتعاظم قلقه وزادت وساوسه .

وحدثته نفسه أن يذهب إلى أبى الفضل ليكاشفه بما فى نفسه لعله يجد عنده مخرجا . ولكنه تذكر أن الأمر لا يتعلق بسره هو بل بسر من أسرار أبيه . وأبو الفضل ليس على وفاق مع شاور منذ حريق الفسطاط ، وقدوم أسد الدين لم يزل ما بينهما من خصام وإن لطفه فى الظاهر ، فصارا يتصافحان أمام الناس إذا التقيا ، ويكلم أحدهما الآخر ، ولكن باطنهما لم يزل فيه ما فيه ، وقد حاول شجاع مرارا أن يصلح بينهما فلم ينجح لا مع أبيه ولا مع أبى الفضل » .

أواه ! إن أبا الفضل كان و لم يزل النجى الأمين الذى يلجأ إليه شجاع كلما حزبه أمر ، فيجد من رأيه ومشورته ما ينير له السبل ولكنه لا يستطيع اليوم أن يلجأ إليه ، فإلى من يلجأ ؟

أيلجأ إلى القاضى الفاضل ؟ إنه صديق أمين وإنه لذو عقل ورأى ، ولكنه لا يجد عنده فى هذا الشأن ما يريد ، لأنه أمين سر شاور ولا يقبل أن يخوض فى مثل هذا حتى مع شجاع .

أيلجأ إلى والدته ؟ لكنه يعرف ماذا هى قائلة له : « إن أردت الخير والبركة فلا تعترض على والدك فى شىء ، وقصارى ما يفيد من ذلك لو فعل أن يثقل قلبها بهم جديد .

أيلجأ إلى زوجته ؟ إنها لعطوف ودود وإنها لذات عقل ورأى ، ولكنها ابنة أبى الفضل ومشربها من مشربه ، ولا تخلو مكاشفتها بسرّ أبيه هذا من حرج .

أواه .. هذا سر لا ينبغى أن يكاشف به أحدا حتى سُميّة !

وأحسَّ بوطأة المصاب إذ شعر بالوحدة القاتلة تأخذ بتلابيبه حتى تكاد تكتم أنفاسه . و لم يتنفس الصعداء إلا حين جاء أسد الدين ليزور أباه فنزل شجاع من أعلى الدار مسرعا فاستقبله حتى دخل به عند أبيه فى الديوان ، وتمنى لو دعاه كلاهما أو أحدهما لشهود مجلسهما حتى يسمع ما يقولان . ولكن ذلك لم يحدث فانسحب .

وحدثته نفسه أن يسترق السمع إليهما من مكان قريب ، ولكنه استهجن ذلك ورآه لا يليق ، فوقف غير بعيد منتظرا على أحر من الجمر ، وهو يدعو اللّه فى سره أن يجعل هذه الزيارة المفاجئة بشارة خير ومفتاح فرج .

واستُدعى القاضى الفاضل فدخل عندهما ثم خرج فأسرع إليه شجاع يسأله فقال له : « إن الوزير أمرنى أن أكتب له أمرا بأن تعطى جنود أسد الدين دورا يسكنونها فى القاهرة ، ولما أراد شجاع أن

يستوضحه قال له : « دعنى أكتب الأمر أولا ثم استوضحنى بعد ذلك » .

وخرج أسد الدين لينصرف ، فحرص شجاع على تشييعه ليتفرس فى وجهه فرآه طلقا متهللا فاستبشر خيرا ، ثم انطلق إلى القاضى الفاضل ليستوضحه فلم يجد عنده جوابا إذ قال له : « اذهب إلى أبيك فسله » .

ودخل عند أبيه فوجده مطرقا واجما ، فاكتأب وتوجّس سوءا ، ولكن شاور لم يلبث أن رفع رأسه وأبدى الرضا والطمأنينة قائلا : ادخل يا شجاع ، أتريد أن تعرف مادار بينى وبين أسد الدين اليوم ؟ لقد أراد العاضد أن يكيد لى فوعد أسد الدين بأن يأمر لرجاله بدور يسكنونها فى القاهرة ، فأحبطت كيده ، إذ سبقته فأمرتُ أنا لأسد الدين بذلك ، ليعلم كل منهما أننى أنا صاحب الأمر والنهى » .

وفهم شجاع من بقية حديث أبيه أن أسد الدين قد نوى حقا أن يقيم طويلا بمصر نزولا على أمر نور الدين ، ولكن ليس ثم ما يؤيد خوف أبيه أنه سينتزع الحكم منه ما ظل أبوه متعاونا معه على تحقيق ما يريده نور الدين من توحيد القوى لمحاربة الفرنج . وفيما صنعه اليوم ما يشر بذلك . وحسنا فعل إذ سبق العاضد إلى هذه المكرمة فلعل العاضد قد نوى حقا أن يتقرب إلى أسد الدين على حساب أبيه فأحبط أبوه تدبيره ، فسر شجاع لهذه النتيجة ، واطمأن باله ، ولم يشأ أن يسترسل مع أبيه فى هذا الشأن خشية أن يسمع منه ما يكره . فيقلق بله من جديد .

وسمع بنبأ الدار التى نزل بها أسد الدين فى سرة العاصمة ، وأنه أخذ يستقبل الناس فيها أفواجا أفواجا ، فلم ينكر من ذلك شيئا ، فقد كانوا يتوافدون عليه فى معسكره خارج القاهرة ، فأحر بهم أن يتوافدوا عليه اليوم وقد صار بينهم داخل العاصمة ، وعزا ارتياب أبيه بذلك إلى ما داخله من الغيرة الطارئة التى لا تلبث أن تزول .

وهكذا قدر لشجاع لما شغله من هم أبيه ألا يشعر ببداية قيام العهد الجديد الذى هو نفسه من بناته إلا بعد ما شعر به عامة الناس .

وأخذت الرقاع ترد من أسد الدين إلى ديوان أبيه ليوقعها ، فأحس حينئذ برثاء لأبيه الذى يحاول جاهدا أن يكتم ما يعانيه من الموجدة والأسى . مظهرا أنه لا يزال صاحب الأمر والنهى حيث يختم الرقاع ويخط بقلمه تواقيعها .

وامتزج فى قلب شجاع هذا الرثاء الشديد لحال أبيه ، بفرح شديد للعهد الجديد الذى أحس به الآن ينبض فى كل عرق من عروق البلاد ليحييها بعد موات ويبعثها بعد همود ، فكان شعوره عجبا من العجب، وكان موقفه من ذلك أعجب .

إنه ليشعر برغبة شديدة فى إعلان سروره واستبشاره ، ولكنه لا يستطيع ذلك إشفاقا على أبيه أن يظنه شامتا فى الشامتين . وقد صار لا يستطيع أن ينظر إلى وجه أبيه إلا اختلاسا خشية أن يلمح أبوه دلائل السرور فى عينيه فيتضاعف أساه الدفين .

وقد كان من حظه فى أول الأمر أن شاور كان يتجلد تجلدا شديدا . فلم يظهر تضعضعا لأحد من أهله ولا من غير أهله ، فظل

بينهم على حالة من الشموخ والوقار، كأن الأمور ما تزال تجرى فى البلد بأمره . وكأن هذه الإصلاحات التى تتم على قدم وساق ، إنما هى من تدبيره بالاتفاق مع أسد الدين ورجاله ، فكفى شجاعا بذلك حرج الموقف أمام والدته التى يعزّها غاية الإعزاز ، فكان لا يرى بأسا إذا جلس إليها فى غير مشهد أبيه أن يحدثها بما يجرى فى البلد من إصلاح ، وتعمير ، وما لأبيه فى ذلك من فضل كبير ، إذ قبل أن يتعاون مع أسد الدين على ما فيه إصلاح البلد وخير الشعب .

وقد غاب عن شجاع أن والدته تدرك من حقيقة الحال مثل ما أدرك فقد أحست بما يعانيه زوجها من القلق والأسى ، وإن لم تشأ أن تظهر ذلك لزوجها مراعاة لشعوره ، ومجاراة له فيما اختار لنفسه من مظهر التجلد والتجمل ، ولا لابنها كراهية أن تكشف له ضعفا يحرص أبوه على كتمانه ..

أما سمية ، فقد كان موقف شجاع منها أعجب وأغرب ، فإنه على فرط حبه لها وشدة تعلقه بها ، يشعر شعورا خفيا بأنها عين لأبيها على أبيه ، وإذا كان أبو الفضل قوى الارتباط بأسد الدين حتى فى صلاتهما الظاهرة للناس ، فإنه يجد حرجا فى الإفضاء إليها بذات صدره فيما يتصل بحقيقة موقف أبيه مما يجرى اليوم فى البلاد : آه لو يستطيع أن يكاشفها بما فى صدره ، إذن لربما وجد من عطفها وحنانها ما يسرى بعض الهم الذى يعتلج بين جوانحه .

وتحس سمية بما يحس به زوجها الحبيب فترثى لحاله ، وتتألم لما به ، ولكنها لا تستطيع أيضا أن تكاشفه فيما لم يشأ هو أن يكاشفها فيه .

وظلت الحال على ذلك إلى أن بدىء بتجديد عمارة الفسطاط ، وظهر من شاور ما ظهر من الاهتمام الشديد بهذا المشروع والنشاط البالغ فى تنفيذه حتى أشعر الناس جميعا بأنه هو القائم الأول فى هذا السبيل ، فحينئذ تغير الموقف فى بيت شاور كما تغير خارج بيته ، فاستطاع أن يعلن فرحه العارم من غير تحفظ أمام أبيه وأمام والدته وأمام زوجته وأمام الناس أجمعين .

وتكاشف أهل بيت شاور بعضهم لبعض حين أحسوا جميعا أن أباهم قد عاد حقا رب الموقف ومالك الزمام ، وأن تلك السحابة القاتمة التى كانت تغشى ما بينه وبين أسد الدين قد انقشعت ، فإذا هما يد واحدة تعمّر من الفسطاط ما أتلفه الحريق ، وتصلح لأهلها فى هذا السلم المستتب ما أفسدته ويلات الحرب .

وقد ضاعف سرورهم أن أبا الفضل قد مدّ يده إلى شاور فعاد الصفاء بينهما من جديد وعاد التزاور بين البيتين كما كان ، وانطلق شجاع يساعد أباه فى الإشراف على حركة البناء فى تلك المدينة الحبيبة إلى نفسه لما تضمه من ذكريات غالية تتصل بتلك الأيام التى كان يختلس فيها ساعات اللقاء بحبيبته اختلاسا .

وصار فى خلال ذلك ، يتردد على ديوان أسد الدين كأنه ديوان أبيه لا فرق بينهما عنده . فكلاهما يموج بالحركة فى تلك الأيام ولا يستريح كتبته وموظفوه ساعة من نهار لكثرة ما بأيديهم من الأعمال ، وتوافد اللاجئين واللاجئات من أهل الفسطاط ، كل ينتظر أن يعطى نصيبه من المعونة ليشرع فى إنشاء بيته من جديد .

ولكن هذه الحال لم تدم ، فما كادت هذه الحركة الدائبة فى الديوانين تخف بعد أن فرغ معظم المستحقين من أهل الفسطاط من أخذ ما فرض لهم من المعونات فانتقلوا إلى مدينتهم يبنون ويعمرون ، حتى أخذ ديوان شاور يعود إلى ما كان عليه من السكون والخواء ، من حيث بقى ديوان أسد الدين على حاله ينبض بالحياة ، ويموج بالحركة ، وينمو بما يجد من الأعمال ، ويزيد عدد العاملين فيه بمن يسحبهم أسد الدين من كتبة ديوان شاور وموظفيه فيضمهم إليه .

ذلك أن شاور لم يستطع أن ينبرى للنهوض بأعمال الإصلاح الجديد انبراءه لتجديد عمارة الفسطاط ، إذ لم يجد فى نفسه انبعاثا لذلك فتخلف عن المشاركة الجادة والمعاونة الفعالة ، فعاد كما كان قانعا بالتوقيع على ما يرسله الديوان الجديد إليه من الأوامر والرقاع .

ولم يلبث أن عاوده الضيق كما كان بل اشتد فى هذه المرة حتى لم يعد قادرا على تجلده وتجمله السابقين ، فصار يعلن تبرمه وتضجره لأهله ولغير أهله ، وقد أحس أن شمسه قد أفلت فلن يرجى لها طلوع .

وكان أكثر ما يعلن ضيقه وتبرمه لابنه شجاع . وهو يشعر شعورا خفيا بأن ابنه هذا مسؤول عما أصابه من السقوط والإدبار وأن له يدا فى ذلك ، وأنه لولاه لكان له مع هؤلاء شأن آخر ، ولما وصل على أى حال إلى هذا الدرك من الذل والمهانة .

ولم يستطع أن يكتم هذا الشعور عن ابنه فصار يصارحه به كلما جره الحديث إلى ذلك . فكان شجاع يتألم ولا يقول شيئا ويمضى شاور فى ذلك يسوق الحجج الواهية والبراهين المتهافتة ، فيحيلها ببلاغته وبيانه كأنها حجج بالغة وبراهين دامغة حتى اعتقد شجاع آخر الأمر

أنه مسؤول عن ذلك حقا ، أو كاد ، وكان شاور ربما راجع نفسه في ذلك بعض الأحيان فاستسخف شعوره هذا الذى لا يقوم عليه برهان ، فلا نكران أن شجاعا أبر أبنائه جميعا به ، وأصدقهم حبا له ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى هذا الظن المتغلغل فى نفسه فيحس - لا يدرى كيف - أن شجاعا كان يقف دونه كالرقيب على أعماله ، فيحد من حريته وانطلاقه ويحول فى كثير من الأحوال بينه وبين وسائل لو اتخذها لتغير مجرى الحوادث ، فلم يبلغ أعداؤه منه ما بلغوه . وكان كثيرا ما يقول له كلما تم عمل جديد من أعمال الإصلاح : « افرحْ واطرب ياشجاع ، فإن أصحابك قد قاموا اليوم بعمل جديد » فيسكت شجاع على مضض .

ولما قرر شاور ما قرر من ترك الوزارة لأسد الدين لم يستشر شجاعا فى ذلك ولم يخبره ، فما علم شجاع إلا من والدته وزوجته حين رجع إلى الدار فرآهما منهمكتين فى حزم الأمتعة لنقلها إلى بيت سعيد السعداء ، فكتم شجاع ما فى نفسه ولم يبده لهما .

ولما قابل والده لم يعتب عليه أنه أخفى هذا الأمر عنه ، كما ينتظر أن يفعل . بل قال له : « لقد أحسنت يا سيدى فى هذا القرار الذى اتخذته ، ستستريح إن شاء الله فى بيت سعيد السعداء بعيدا عن هذه الدار التى أضحت كالسجن لنا جميعا » .

فكان جواب أبيه له أن قال : « أجل ، لا ريب أن هذا يسرّك ويطربك .. سيتم لأصحابك غدا كل مظاهر الحكم والسلطان » .

وكان شجاع حريًّا أن يفرح لما انتقل مع أبيه وأهله إلى بيت سعيد السعداء لولا ذلك التقريع الدائم الذى يلقاه من أبيه ، وقد احتمل ذلك

طويلا لا يعارضه ولا يرد عليه إلى أن نفد صبره يوما ، فذهب إلى أمه دامع العين ، كسير القلب ، فشكا إليها ، لما لقى من اضطهاد أبيه على غير ذنب جناه ، فجعلت أمه تصبره وتواسيه واعدة إياه بأنها ستكلم أباه فى ذلك .

وما راعه من الغد إلا أن دعاه أبوه متطلفا على غير عادته ، فاعتذر له عما كان منه فى حقه ، وقال له : « سامحنى يا بنى ، فقد ذهب هذا الخطب بلبى ، وإن مثله لخليق أن يذهب بلب الحليم » .

واستبد الفرح بشجاع فعانقه وهو يقول : « أستغفر اللّه يا سيدى واللّه ما كان قصدى أن تعتذر إلىّ ، فمن أنا حتى أسامحك ؟ وإنما جل قصدى أن ترضى عنى ، وقد فعلت الساعة ، فالحمد للّه .

ثم اقترح شاور على ابنه أن يرحل مع عروسه إلى ضيعة له فى قليوب ، ليقضى فيها برهة يروّح فيها عن باله ، فوقع هذا الاقتراح موقع الرضى من نفس شجاع . فقد كان بحاجة شديدة إلى الترويح والتفريج ، ولكنه لم تطاوعه نفسه أن يترك أباه وحده وهو فى هذه المحنة ، فاعتذر إليه قائلا : إنى أفضل يا سيدى أن أبقى هنا بجانبك .

ولكن شاور ألح عليه قائلا : « بل تذهب بسمية معك لتسرى عنها فإنها لم تقض معك أياما سعيدة منذ تزوجتها » ..

فقال شجاع متنصلا : « لا تشغل نفسك يا سيدى بأمر سمية فإنها راضية كل الرضا ولا تشكو شيئا » .

ــ اسمع كلامى .. إنى أريد أيضا أن تتفقد الضيعة ، فقد أهملناها زمن قديم .

ــ أما هذا فحبا يا سيدى وكرامة ..

وفرحت سمية بالخبر ، فقد كانت فى أشد الحاجة إلى التفريج عن كربها الحبيس كما فرحت زبيدة أيضا إذ أشفقت على ابنها مما كابده من الهم الثقيل ، فرجت أن يجد فى رحلته هذه بعض التسرية والترويح .

٨

وكانت الأيام التى قضاها شجاع وسمية فى قليوب من أسعد أيام حياتهما المليئة بالهموم والآلام ، فقد شعرا كأنما تجدد عرسهما . وكأنهما يستأنفان حياة جديدة كلها حب ودعة وسلام فى حضن الطبيعة الرءوم .

وقد ارتفع ذلك الحجاب القائم بينه وبينها من جراء موقفهما من شاور ، فأصبحا يتكاشفان فى كل شىء حتى فيما يتصل بأمر شاور ، فصار شجاع لا يجد حرجا فى أن يقص عليها كل ما عانى فى هذا السبيل من محنة ومن كبد ، وكأنه إنما يقص عليها حلما مزعجا انتبه منه مرعوبا فحمد الله على أن ما شهده كان مناما لا حقيقة .

وفى هذا الجو الطليق استطاع شجاع أن يفكر فى أمر أبيه تفكيرا هادئاً غير متأثر بعاطفته نحوه ولا بهيمنته عليه . فأخذت الأمور تنجلى له على حقيقتها أوضح من ذى قبل ، فإذا هو قد فرّط كثيرا فى حق العهد الجديد من جراء أبيه ، ولم يفرّط فى حق أبيه من أجل أسد الدين إلا قليلا على خلاف مازعم أبوه .

فهذا العهد الجديد قد قام فاشترك الصغير والكبير فى نصرته وتأييده ، وانبرى كل قادر على شىء فعاونه بما يقدر عليه ، ولكنه هو لم يصنع شيئا ولم يشترك فى شىء ، اللهم إلا ذلك الجهد الضئيل الذى

بذله في إبان عمارة الفسطاط حين رأى اهتمام أبيه بذلك فعاونه عليه وكان حريًّا به أن يكون فى طليعة العاملين المجتهدين فى بناء هذا العهد وتثبيت قواعده وأركانه لولا ما شغله من أمر أبيه فألهاه عن كل شيء .

وقر عزمه أن يكفر عن ذلك حين يعود إلى العاصمة ، فيتطوع فى عمل من الأعمال ، وما أكثرها فى هذا العهد الذى أتاح المجال للكفايات التى كانت مغمورة فبرزت أو محبوسة فانطلقت تعمل وتبدع .

ولكن علام ينتظر حتى يعود إلى العاصمة ؟ ألا يستطيع وهو فى عزلته الجميلة هذه أن يقوم بعمل نافع ؟ بلى إنه ليستطيع .

وهبت سمية ذات صباح فإذا زوجها يقول لها : « هلمى يا سمية معى إلى الحقول لأعلمك الرماية هناك » .

فسألته ضاحكة : « الرماية ؟ .... »

— أجل ... الرماية والمسايفة وركوب الخيل وسائر أعمال القتال..

وظنته فى أول الأمر يمزح ، فلما رأت الجد منه تعجبت ..

— أى شيء دفعك إلى هذا يا شجاع ؟

فأخبرها أنه فكر فى ذلك منذ شهد ما حدث للنساء من الترويع حين غزا الفرنج البلاد ، فهتكوا أعراض كثير من الحرائر لعجزهن عن الدفاع عن أنفسهن ، ولكن لم تتح له فرصة لتنفيذ ذلك حتى اليوم .

واستحسنت سمية الفكرة فى الحال ، ولكنها أرادت أن تحاوره ليقول لها كل ما عنده ، فسألته : هل يظن أن الفرنج سيعودون مرة أخرى ؟ فأجابها متحمسا : « إن الحرب قائمة بيننا وبينهم فإن لم تدر معارك فى ديارنا فستدور فى ديارهم ولن نضع السلاح حتى يخرجوا من الوطن العربى كله » .

وأحست سمية بحماسة عجيبة لما سمعت من زوجها ، وتذكرت ما كانت تسمع من أبيها فى هذا المعنى ، غير أنها لا تحسب أن أباها يوافق على اشتراك النساء فى أعمال القتال لما تعرف من رأيه فيهن .

وبدأت تتدرب على الرماية كأنها تلعب مع زوجها فى أول الأمر ، وما لبث أن تحول اللعب إلى جد . ثم أخذ زوجها يدربها على ركوب الخيل وعلى استعمال الخنجر والسيف والرمح ، فكانت سمية تجد لذة عظيمة فى هذه الرياضة . ولا سيما إذ نظرت فى المرآة فوجدت وجهها قد زاد غضارة ونضارة .

ولم يقتصر شجاع فى خلال الأيام التى قضاها فى قليوب على تدريب زوجته سمية وحدها ، فقد اتصل بفتية من أهل قليوب وصار يجمعهم فى ضيعته ويولم لهم ، ثم اقترح عليهم أن ينشئوا فرقة للدفاع عن بلدتهم إذا هاجمها مغير . فاستجابوا لدعوته ، وأخذوا يتدربون على يديه فى أوقات خصصها لهم غير الأوقات التى يقضيها مع سمية .

وانقضت فى ذلك ثلاثة أشهر كأنها ثلاثة أيام .

وود الحبيبان لو بقيا مدة أطول فى قليوب ، لولا أنهما اشتاقا إلى أهلهما . واشتاق شجاع خاصة أن يطمئن على حال أبيه ، وأن يتطوع فى عمل من الأعمال بالعاصمة ، فارتحل بزوجته من قليوب بعد أن ترك فيها قلوبا فتية تنبض حبا له وإعجابا به وحماسة للدفاع عن الوطن.

٩

ولما عاد شجاع إلى القاهرة وجد أباه قد اجتهد فى تعمير بيته وتحسينه وأنفق فى ذلك أموالا طائلة حتى جعله أفخم وأبهى من دار

الوزارة ، واستكثر من العبيد والخدم ، حتى صار عددهم أكبر ممن كانوا معه حين كان فى دار الوزارة ، وأصبح هو فى حال حسنة من هدوء البال وانشراح الصدر ، وبشاشة الوجه . وقد زايله ذلك العبوس والقلق والتشكى والتذمر فعجب شجاع مما رأى من تبدل حال أبيه ، ولكنه لم يلبث أن علم منه أنه قد قرر أن يعتزل حياة السياسة ، ويريح باله من همومها وأثقالها . ليقضى ما بقى من حياته فى دعة وسلام . فسر شجاع من ذلك سرورا كبيرا ، وحمد الله على أن انتهت حال أبيه بهذه الخاتمة السعيدة فلم يعد يخشى منه ولم يعد يخشى عليه .

وقد رابه قليلا أن أباه لم يفرح بعودته من قليوب كما ينبغى ، إذ كان يود له لو بقى ابنه هناك مدة أطول . ولكنه عزا ذلك إلى خرص أبيه على سعادة ابنه وراحته ، ولا سيما وقد أصبح فى حال من الدعة والاستقرار لا تدعو إلى وجود ابنه بجانبه .

قال شجاع لنفسه : « الآن أستطيع أن أقوم بواجبى لهذا العهد الجديد فأكفر عما سلف من تقصيرى فى خدمته » .

وانطلق إلى أبى الفضل ، وكان قد صار خازنا لأموال الدولة إذ ذاك فزاره فى منزله ، حيث وجد سمية قد سبقته هناك لتقضى عند أهلها بضعة أيام ، فلقى منه الترحيب كعادته ، وجلسا يتحدثان فى شئون شتى من خاصة وعامة ، وأثنى أبو الفضل على ما قام به شجاع فى قليوب وإن أخذ عليه تدريبه سمية على مالا يجدر بغير الرجال ، فأخذ شجاع يدافع عن رأيه .

وكان مما احتج به أن الصحابيات فى عهد الرسول ﷺ كن يخرجن مع المقاتلين إلى الميدان .

– وما كن يقاتلن بل يخدمن المقاتلين ويأسون الجرحى ويحملن الرواء للعطاش .

– بل كان منهن من اشتركن في القتال . وخاصة في فتوح الشام على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

– ما أحسبهن إلا اضطررن إلى ذلك ..

– قد تضطر نساؤنا أيضا ..

ومضيا يتناقشان دون أن يستطيع أحدهما أن يقنع الآخر بما ذهب إليه ، إلى أن قال أبو الفضل في النهاية : « هي زوجتك على كل حال ، فأنت أولى بها منى ، وليس فيما فعلت من جناح ، وإن كنت لا أميل إليه ولا أوافق عليه » .

وكانت سمية تسمع وتضحك دون أن تقول شيئا ، أما أمها فكانت تقول : ما بقى في آخر الزمان إلا أن تخرج النساء لقتال الرجال .

وانتظر شجاع أن يرشحه أبو الفضل لعمل من الأعمال ، وقد لمّح له بذلك إلا أنه آنس منه تحاشيا ، فلم يراجعه في ذلك ، وإنما عرض عليه رغبته في التطوع لتدريب الفتيان على نحو ما فعل قديما يوم أنشأ فرقة الموت ، فإذا أبو الفضل يشجعه على ذلك ، ويقول له : « هذا أفضل عمل تقوم به اليوم يا شجاع فإن القوة أهم ما نحتاج إليه في هذا العهد ، وقد قرر أولو الأمر أن ينشئوا مراكز لتدريب الفتيان على حمل السلاح ، فحبذا لو تطوعت أنت في هذا السبيل » .

وانصرف شجاع من عند أبى الفضل وفى نفسه بعض العتب ، إلا أنه ما لبث أن التمس لأبى الفضل عذرا فيما فعل ، فلعله كره أن يرشحه لمنصب من المناصب خشية أن يظن به المحاباة ، أو لعله خشى ألا

يثق أولو الأمر بشجاع من أجل انتسابه إلى شاور . وشجاع يعلم أن قادة العهد يختارون الكفايات حيثما وجدت دون أى اعتبار آخر ، من جاه أو نسب ، فلم يجد فى نفسه أى غضاضة إذ لم يسندوا منصبا إليه ، وفى باب التطوع مجال للجميع .

وما أن أنشئت مراكز التدريب فى البلاد حتى اختار شجاع حى العسكر فتطوع فى تدريب فتيانه ، وبذل من الهمة والنشاط ما جعل هذا المركز يفوق سائر المراكز نظاما ودربة .

وكان شجاع سعيدا بعمله هذا ، غير أن شاور لم يشأ أن يترك ابنه وشأنه ، فما لبث أن أنكر عليه قناعته بهذا العمل الحقير فى زعمه واتهمه بسقوط الهمة وقلة الطموح .

قال له ذات يوم وقد رجع إلى البيت متأخرا : « والله إنى لأرثى لك يا شجاع وآسى لحالك » .

— فيم يا سيدى ؟

— جهد مبذول .. وجزاء غير مأمول ...

— الجزاء يا سيدى راحة القلب فى الدنيا ورضوان الله فى الآخرة .

— راحة القلب يا بنى فى جليل الأمور لا فى سفسافها ..

— هذا من أجل الأمور عندى .

— لأنك لم تجد غيره .. ثم سلهم لماذا يجزون من دونك ولا يحيلون على الله سواك ؟

— ماذا تعنى يا سيدى ؟

— أعنى أصحابك هؤلاء .. قادة العهد الجديد ...

— إنى ما طلبت منهم شيئا فمنعونى ..

— لم ينتظرون حتى تطلب ؟ هذا حموك قد أصبح خازنا لأموال الدولة . أفلا يستطيع أن يجد لك منصبا يليق بقدرك ؟

— لا مكان للمحاباة يا سيدى فى هذا العهد ..

— أى محاباة ؟ ألا يعرف كفايتك ؟ فكيف يعطلونها وهم يزعمون أنهم يختارون الكفايات وينصفون أصحابها ؟

— إنى ما عطلت كفايتى على كل حال ، فقد تطوعت فى خدمة بلادى بما فى مقدورى وطاقتى ...

— واحرّ قلباه .. من طيب قلبك وغفلتك .. أما عرفت بعدُ أنهم إنما أقصوك لمكانك منى ؟ ويلهم لقد تركت لهم كل شىء .. أفلا يولون ابنى ما هو أهل له !؟

— لا بأس يا سيدى . فإنى لست بحاجة إلى المنصب ، فعندنا بحمد الله ما يكفينا .

— أو قد غرك هذا الذى جمعته لكم ؟ غدا يصادرونه منا كما صادروا أموال غيرنا من الأمراء والكبراء ...

— الله يا سيدى هو الرزاق الكريم !

ولم يكتف شاور بكلامه لابنه فكلم سمية زوجته وقال لها : « إذا لقيت أباك يا سمية فاسأليه أن يرشح زوجك لمنصب يليق به فلا ينبغى أن يهملوه هكذا وهو ذو كفاية لا تنكر .....

فوعدته سمية خيرا ، وقد اقتنعت هى أن زوجها مظلوم ، فلما ذهبت تزور أباها كلمته فى ذلك وألحت عليه ، وحاول أبوها أن يقنعها بكل سبيل فلم ينجح .

قال لها : « تعلمين يا بنيتى ما كان من شاور » .

ـ وما ذنب شجاع فى ذلك ؟ لقد كان ضد أبيه وفى سبيلكم لقى منه ما لقى ..

ـ أجل ، لا ذنب لشجاع فيما كان من أبيه ، ولكن لقادة العهد عذرهم إذ لم يعتمدوا عليه اليوم على الأقل حتى تحصل لهم الطمأنينة من جهة شاور . ثم ما حاجة زوجك إلى المال وقد جمع له أبوه ما يكفيه ؟

ـ ليس من أجل المال يا أبى .. ولكن من أجل المنصب والمقام .

ـ هذا العمل الذى يتولاه شجاع .. أفضل من كل منصب .

ـ ذاك عمل يستطيع أن يقوم به أى جندى فى الجيش ..

ـ إنك لا تعلمين يا سمية ماذا صنع شجاع هناك .. لقد أنشأ نواة لكتيبة كاملة بفرسانها ورجالتها ومقدمتها وساقتها وطلائعها ...

ـ أفجزاؤه على ذلك أن ينسى ويهمل ؟

وطالت المراجعة بينهما . هى تلوح وهو يعتذر . حتى قال لها آخر الأمر : « يا بنيتى أنا من جهتى لا أستطيع أن أقترح تعيين زوجك ، ولكن دعيه هو يذهب إلى أسد الدين فسيعرف له فضله » .

فقالت له : « إنك لا تريد أن تصنع له شيئا .

انصرفت غاضبة وبقيت مغاضبة أباها برهة طويلة .

وكلمت شجاعا فاقترحت عليه أن يذهب إلى أسد الدين لعله يعرف فضله فيوليه منصبا يليق بقدره . فتعجب شجاع من قولها وسألها : « من أين أتيت بهذا ؟ من الذى اقترحه عليك ؟» .

فسكتت سمية و لم تجب ..

ـ كنت عند أبيك قريبا فلا ريب أنه هو الذى اقترح ؟

ـ نعم هذا اقتراحه .

— كلمته أنت ذلك ؟

— نعم ..

— لقد سمعت هذا من أبى وسمعته من أمـى ، أفأسمعه منك أيضا يا سمية !!

لقد كنت أظنك آخر من تخوض فى هذا اللغو ..

— هذا حقك يا شجاع !

— كلا لا حقّ لى على أحد .. نعم من حقى أن أعمل فى خدمة بلادى و لم يمنعنى أحد هذا الحق .

١٠

وتكدّر قليلا ما بين شجاع وسمية من جراء ما حدث ، ولكنه ما لبث أن رضي عنها لما استرضته ، ووعدته أنها لن تخوض فى هذا الحديث مرة أخرى ، وإن ظلت واجدة على أبيها لقلة اهتمامه بأمر زوجها ، ولو شاء لصنع له شيئا فقبله شجاع دون غضاضة .

وعاود القلق شجاعا من جهة أبيه مره أخرى . إذ رأى رجالا يترددون عليه ، ما كانت لهم صلة به من قبل . غير أنه علل نفسه فى أول الأمر بأن أباه ربما آثر أن يبتعد عن حياته القديمة ما أمكنه، فاتخذ هؤلاء الأصدقاء الجدد . إلى أن لمح ذات ليلة رجلا يتسلل من عند أبيه فى الظلام بعد ما جلس معه برهة على انفراد ، ودبّ فى قلبه الشك . فتتبع أثره ليعرف من هو فإذا هو ابن الخياط ، ذلك الجاسوس القديم الذى كان أبوه قد ضربه أمامه من قبل ، والذى ظهرت موالاته للفرنج بعد ذلك أيام وجود حاميتهم فى القاهرة .

هذا كان عدوّ أبى فما الذى جاء به الآن إليه ؟

وأرق شجاع ليلتها و لم ينم . فلما كان الغد غدا إلى أبى الفضل فى دار الوزارة ، فاختلى به وسأله عن ابن الخياط هذا : كيف لم يقبضوا عليه وقد كان معروفا بالتجسس للفرنج وموالاتهم ؟!

— هل رابك شىء من أمره اليوم ؟

فتوقف شجاع لحظة ثم قال : « لا ، ولكنى لمحته أمس يمشى فى الشارع مطمئنا بين الناس ، فوقع فى قلبى أن أنبهكم إلى أمره لعلكم نسيتموه أو اختبأ عنكم فلم تجدوه » .

— كلا يا شجاع ، إننا ما نسيناه ، ولكن السياسة الجديدة قائمة على الإعراض عما كان فى الماضى واعتباره كأن لم يكن ..

وعاد شجاع إلى بيته مغموما لا يدرى ما يفعل ، فقد كان يود لو قبض على ابن الخياط اليوم حتى تنقطع صلته بأبيه قبل أن يتواطأ معه على شىء لا يرضاه لأبيه ولا لسلامة البلاد .

وأفضى إلى سمية بما فى نفسه ، فقد ارتفع ذلك الحائل بينه وبينها فى مسألة أبيه ، وخاصة بعد ما رأى ازورارها عن أبيها من أجله هو فأصبح يكاشفها بكل شىء .

ووجد من سمية عطفا وحنانا سرّيا عنه بعض ما يلقى ، وحدثته أنها هى أيضا ترى كثيرا مما يريبها فى شاور وأنها تلاحظ عليه كأنه لا يرتاح لوجود شجاع فى المنزل ، حتى إنه حسَّن لها ذات يوم أن تعود مع شجاع إلى قليوب ليقضيا برهة أخرى هناك ، فتذكر شجاع أن أباه كان قد كلمه هو أيضا فى ذلك .

وأحس شجاع أنه لم يعد اليوم وحده فى محنته ، فقد صارت سمية معه يكاشفها وتكاشفه ، وتقوم له بمراقبة أبيه فى أثناء غيابه ، فهوّن ذلك كثيرا من خطبه .

وتنازع قلبه عاطفتان متناقضتان : إحداهما ترغب فى اكتشاف سر أبيه ، والأخرى تشفق أن تطلع منه على مكروه ، فقرر بعد لأى أن يعمد أولا إلى مناقشة أبيه فى شأن العهد الجديد ، لعله يستطيع أن يغير رأيه فيه ويزيل تحامله عليه ويستل سخيمته علىّ رجاله .

دخل على أبيه يوماً وليس عنده أحد فقال له : « يا سيدى ! إنك قد أنصفت نفسك حين لزمت دارك وألقيت هموم السياسة وراء ظهرك ، فاسترحت واطمأننت ، واستراح أهلك واطمأنوا ، ولكنى أراك ما تزال تتحامل على هؤلاء القوم وأنت ترى هذا الإصلاح العظيم الذى تم على أيديهم ، أفليس خيراً من ذلك يا سيدى لو أنصفتهم كما أنصفت نفسك فرضيت عنهم كما رضوا عنك ؟! » ؟

فأجابه شاور غاضباً : « قد علمت أنك تميل إليهم وتؤثرهم علىّ ! » .

— كلا — والله — يا سيدى ، ما يعنينى أمرهم كما يعنينى أمرك ..

فسكت شاور قليلا ثم قال : « قد أمكنتنى اليوم من نفسك ، أفتريد أن تسمع رأيى فى هؤلاء ؟ » .

— نعم .. فلعلّنا نتفق على شىء ...

— إنهم قد خدعوا الناس عن حقيقتهم ، وكنت أنت أول مخدوع .

— هذه أعمالهم تشهد لهم ..

ــ أو تظنهم مخلصين فى ذلك ؟ لو كانوا مخلصين ما أهملونى هذا الإهمال !

ــ يا سيدى ، إنك لم تظهر الرغبة فى خدمة هذا العهد . فتركوك على حريتك .

ــ بل لكيلا أكشف عوراتهم ..

ــ هذا سوء ظن منك لا حقّ لك فيه .

ــ ويلك ! ماذا تريد أن أصنع لهم ؟ أحنى لهم رأسى ؟

ــ إنهم لا يريدون أن يحنى لهم أحد رأسه ، فهو قوم متواضعون ويعملون ليل نهار فى خدمة الشعب .

ــ بل يعملون لأنفسهم فى صورة خدمة الشعب ، اذكر لى عملا واحدا من أعمالهم خالية من هذا الغرض ...

ــ كل أعمالهم خال مما ذكرت ..

ــ ويلك ! أأعجبك مصادرتهم لأموال الناس وأملاكهم ؟

ــ ما صادروا غير أموال الأمراء التى احتجنوها عن الشعب ، فأنفقوها فى خدمة الشعب .

ــ هكذا يزعمون ، ولكنا ما رأينا الشعب استفاد شيئا .. أين الرخاء الذى وعدونا به ؟

ــ الرخاء آت غدا لا محالة حين تبدأ المشروعات التى قاموا بها تؤتى أكلها ..

ــ هيهات ! .. ما عهدت البلاد قط غلاء فى الأسعار كهذا الذى تعانيه اليوم .. وما الغد إلا ابن اليوم ..

ـ إن كان غلاء فمن أثر ما وقع من تدمير فى البلاد وترويع للفلاحين فى الأرياف أيام حرب الفرنج ، ولما يقوم به الفرنج اليوم من حصار البحر ، فعاقوا ورود السلع إلى البلاد .

ـ إن كان هذا من عمل الفرنج فأين عملهم هم لرفع هذا الغلاء عن الناس أو تخفيفه؟

ـ أنسيت أنهم أبطلوا الرسوم جميعا ورفعوها عن الناس فى جميع الأقاليم ؟

ـ ويلك ! هل بقى فى أيدى الناس ما يدفعون منه تلك الرسوم ؟

واللّه لخيرٌ للناس أن يدفعوها ويكونِ لديهم مال من أن ترفع عنهم وليس فى أيديهم شىء !

ـ سبحان اللّه يا سيدى .. الحسنات تتحول عندك إلى سيئات ؟

ـ بل أنت الذى تتحول عندك السيئات إلى حسنات !...

١١

وأدرك شجاع بعدما حاور أباه مرة بعد مرة أن من المحال تغيير رأيه فى هذا الشأن ، بل أشفق فى بعض الأحيان أن يتحول رأيه هو قبل أن يتحول رأى أبيه ، فقرر أن يكف عن جداله وأن يتركه وشأنه .

ولكن خيال ابن الخياط ظل ماثلاً أمام عينيه لا يفارقه فى ليل أو نهار . واستبدت به رغبة فى أن يعرف حقيقة الصلة بينه وبين أبيه ، وكان قد عرف أن شاور يأذن له من الباب الخلفى ، فظلّ شجاع يرصده ليالى فى نفس الموعد بعد صلاة العشاء حتى بَصر به ذات ليلة

يدخل متسللا . فتسلل شجاع إلى موضع قريب من حجرة أبيه كان قد فكر فيه واختاره من قبل بحيث يسمع ما يدور بينهما دون أن يشعرا به .

ووقف شجاع حابسا أنفاسه فسمعهما يتناجيان ، وكان فحوى نجواهما أن أسد الدين ينوى أن يستقل بمصر عن نور الدين ، فالرأى أن يكتب « مرى » ملك الفرنج كتاباً إلى أسد الدين يذكر له فيه أنه يوافقه على التهادن ، ما دام أسد الدين لا ينوى أن يؤيد نور الدين فى حربه مع الفرنج . ثم يتعمد الرسول الذى يحمل الكتاب أن يقع فى أيدى رجال نور الدين ليفتشوه فيجدوا عنده هذا الكتاب ، فهذه الخطة كفيلة بإفساد ما بين نور الدين وأسد الدين ، وفى ذلك فائدة لكلا الطرفين« مرى » وشاور .

واضطرب شجاع حين سمع من نجواهما هذا القدر ، وارتعدت فرائصة حتى لم يعد قادرا على البقاء ليستمع إلى ما بعد ذلك ، وخُيل إليه أنه لو بقى لندت منه صيحة أو حركة تكشف لهما أمره ، فانسحب وقد ابتل جسمه عرقاً من شدة الكرب الذى اعتراه وصعد مسرعاً إلى سطح البيت حيث وقف يستنشق الهواء الطلق لينفس به بعض ما احتبس فى صدره ، ولكن رجليه مالبثتا أن أسلمتاه إلى الأرض حيث جلس مرتفقا إلى حائط السطح ، مادًا ركبتيه مسترخيا فى وهن شديد وإعياء بالغ . وقد أحس كأن الأرض تدور به ، وكأنه يوشك أن يغشى عليه . فبقى كذلك برهة لا يدرى كم كان طولها ، تنازعته فى خلالها شتى الهواجس والخواطر . فذهبت به كل مذهب ، وهامت به فى أودية سحيقة يسودها الظلام والضباب ويملأها الخوف والرعب والأوهام والأشباح .

وحاول أن ينهض لينزل إلى سمية فيلوذ بها ، ويجد عندها مثابة وأمنا ، ولكنه أحس بالوهن الشديد يحول دون ذلك كأنما فقد القدرة على الحركة ، وهم أن يصيح لعلها تسمعه فتصعد لإسعافه ، فكأنما فقد القدرة على الصوت أيضا ، فاستسلم واستكان .

وتتابعت فى عينه صور مخيفة تتراقص أمامه كالأشباح ثم تتلاصق وتتضام وتتحد فى صورة واحدة ، يتضاءل حجمها شيئا فشيئا فإذا هى وجه أبيه ! وترددت فى أذنه أصوات منكرة من زئير وفحيح وعُواء ونهيق وقُباع ونعيق ، تتناوب على سمعه ثم تختلط وتتمازج فى صدى واحد . يتخافت شيئا فشيئا فإذا هو صوت أبيه .

ثم انقشع الظلام والضباب فاختفت الأوهام الأشباح ، وأخذت تتجلى له الحقائق سافرة يؤيد بعضها بعضا . ويجلو بعضها وجه بعض ، فإذا خيانات أبيه كبيرها وصغيرها وقديمها وحديثها ، تطير عنها هلاهيلها ، فإذا هى عارية لا يكسوها شىء !

لقد كان يحتملها ويلتمس لها المعاذير ، إذ كان العهد عهد فساد مستطير فى كل شىء ، والأمور فيه فوضى مختلطة ، فلا تتميز فيه الخيانة من الأمانة ، ولا يتبين فيه الصلاح من الفساد ، أما فى هذا العهد الجديد فأى شبهة تستطيع أن تستر تلك الخيانات أم أى معذرة تستطيع أن تغفرها ؟ كلا ، لا شبهه ولا معذرة .

وهذه التى اقترفها اليوم ليست بأبشع من أخواتها اللائى سبقنها إلا أنه رآها بعينيه وسمعها بأذنيه ، آه ! ياليته لم يكشفها اليوم ، فبقى له فى الدنيا رجل يستطيع أن يسميه أباه ! بل ليته كشف أخواتها من قبل فاستطاع أن ينقذ نفسه من وهم عاش دهرا فيه .

ياويلتاه ! هذه خيانة صريحة لمصر وللعرب والمسلمين !

ماذا يصنع ؟ أيبلغها لأسد الدين ؟ إذن يُقبض على أبيه ، ويُحكم عليه بالموت ، فماذا يكون حاله هو ؟ بل ماذا يكون حال والدته العجوز التى تقدس زوجها تقديسا حين تفجع به وتفجع فيه ؟ ماذا يكون موقفها من ابنها إذا علمت أنه هو الذى وشى بأبيه ، فقدمه إلى سيف الجلاد ، وألبسها الحداد على الحداد ، وضرب عليها وعلى نفسه المذلة والعار ؟ أيكون ذلك جزاء حبها له وحنانها عليه ؟ إن هذا إذن لعقوق أىّ عقوق !

ولكن كيف يتركه هكذا يخون مصر ويخون العرب والمسلمين دون أن يبلغ عنه ؟ إذن ليكونن مسئولا أمام اللّه وأمام العرب والمسلمين ، ولتحلن عليه لعنة اللّه ولعنة اللاعنين .

آه ! ليت أباه قد مات من قبل فاستطاع اليوم أن يزور قبره ويترحم عليه ؟! أو ياليت أمه توفيت فضمن أنه لا يؤذيها إذا قام بواجبه فآثر حرمة اللّه والوطن على حرمة أبيه !

وتراءى له فجأة شبح ضرغام ، واقفا أمامه برأس مقطوع ، يحوم فى الفضاء حول عنقه ، ثم يستقر على العنق ، فإذا هو يقول : « ويحك يا شجاعٌ ! أعرفت اليوم حقيقة أبيك ؟ وقبل أن يتمكن شجاع من جوابه ، اضمحل الشبح واختفى فى طرفة عين .

مسكين ضرغام ! لقد سبق زمانه فقتل ، لو عاش حتى اليوم لا نسجم مع هذا العهد الجديد . آه ! كيف فضلت أبى عليه ؟ لقد كان حقا وفيا لدينه ووطنه دون أن يبالى ما يقول الناس عنه ، فظنوه خائنا وهو أمين ، فأين منه أبى الذى يزعم أنه أمين وهو خائن ؟

ياليتنى كنت ابنه لا ابن شاور . وياليتنى لقيت مصرعى فى الجسر الأعظم معه . فقال الناس يومئذ : « الحمد للّٰه الذى أراحنا من ضرغام وابن ضرغام » ! فذلك خير عندى من أن أكون ابن هذا الخائن !

رباه لم جعلتنى ابن شاور ؟ هلا جعلتنى ابن ذاك السقاء الصالح نعمان بن عبيد ، أو ابن ذاك الفلاح الأمين الذى يعمل فى ضيعتنا بقليوب ، أو ابن أى رجل فى الأرض سوى شاور ؟ إذن لاسترحت من هذا العذاب الأليم ، عذاب الحيرة والهوان .

أستغفرك اللهم لا اعتراض على قضائك ياربباه ، ولكن إذا قضيت علىّ بما قضيت فأنر لى السبيل ، وألهمنى خير ما أعمل ! هذا الرجل يخون الدين والوطن فكيف أسكت عليه ؟ ولكنه والدى فكيف أقوده إلى القتل وأفجع والدتى به ؟

وكأنما سمع اللّٰه دعاءه إذ انقدح فى قلبه خاطر . لم يكد يجتليه حتى اطمأن إليه : لم لا يطلع أسد الدين على ما يعلم من سر الخيانة دون أن يكشف له سر أبيه ؟

وكأنما استرد قوته إذ ذاك فنهض عن الأرض واستوى قائما ، وأخذ يقلب بصره فى السماء ، وقد تندت عيناه بالدمع فجعل يلمع فى ضوء النجوم .

هل من سبيل إلى الاتفاق مع أسد الدين على أن يكتفى منه بالخبر ليسعى فى إحباط ما يراد به من كيد دون أن يطالبه بمصدره ؟ لم لا ؟ إن أسد الدين لفارس كريم ذو شهامة وأريحية ، فما أجدره أن يقبل هذا الشرط . ولكن لا ينبغى أن يذهب هو بنفسه إليه ، فربما يسترتيب به فيستجلى الحقيقة التى يريد إخفاءها عنه ، لا بد من شخص آخر يكون

واسطة بينهما ، فمن يكون ؟ أبو الفضل لا .. لا يؤمن أبو الفضل على شاور .. القاضى الفاضل ؟ إنه وفى لشاور . فيما يعلم ، ولكنه قد صار اليوم كاتب إنشاء أسد الدين ، فليس بمأمون حتى لو أراد الوفاء لشاور . فقد يدرك أسد الدين الحقيقة بالتخمين لما بين القاضى الفاضل وشاور من قديم الصلة ، كلا ، لا يصلح لهذا الأمر إلا شخص لا يخطر ببال أسد الدين أن له أيما صلة بشاور أوآل شاور .

وتذكر حينئذ أنه قد أطال المكث بالسطح واشتاق إلى سمية ليفضى إليها بذات صدره عسى أن تسرى عنه أو تخفف بعض ما به فبرح مكانه فى السطح ونزل .

١٢

كان صلاح الدين يسمر فى الديوان مع خاله ، شهاب الدين الحارمى والقاضى عيسى الهكارى ونفر آخرين بينهم القاضى الفاضل ، إذ سمع صوت عمه أسد الدين يناديه من أعلى الدار فنهض من بينهم مسرعا ليصعد إليه ، وكان أسد الدين قد صعد إلى حجرته من أول الليل لينام مبكرا ويستريح لأنه أحس ذلك اليوم بنوبة من نوبات العلة التى أصابته منذ قليل من جراء ذلك الجهد العنيف الذى كان يقوم فى الديوان ليل نهار .

فأشفق صلاح الدين أن يكون الوجع اشتد بعمه ، فناداه ليستدعى له الطبيب ، أو ليدلك له مكان الوجع فى أعلى ظهره ، وحول كتفيه ، كما اعتاد أن يقوم له بذلك ، ولكنه لما صعد إليه وجده واقفا فى البهو ورأى سواد شخص واقف عند باب البهو يرتدى عباءة سوداء سابغة ،

فلما نظر إليه فى ضوء السراج الخافت تبين امرأة فارعة القوام ، منتقبة لا يُرى منها غير عينيها ، وكأنها تتهيأ للانصراف ، فارتبك قليلا حتى نسى أن يبدأ عمه بالسؤال عما يريد ، وعجب . ولكن لم يطل عجبه ، إذ ناداه عمه قائلا : « هلم يا يوسف أدنُ منى « ثم التفت إلى المرأة فقال : « هذا يا أمةَ الله صلاح الدين ابن أخى وهو بمنزلتى وأنا وهو شىء واحد . فإذا جئت يوما ولم تجدينى فأفضى إليه بما عندك ولا تخافى فإنه شاب صالح وسيكون موقفه منك مثل موقفى ، يسمع منك ما تريدين ولا يسألك عن شىء ولا يستوضحك شيئا ، وسأخبره الآن بأمرك وأجعله يحلف لى كما حلفت لك » .

وأومأت المرأة برأسها علامة الموافقة ، ثم انسلت خارجة .

— من هذه يا عم ؟

— تعال اجلس لأحدثك عنها .. إنها امرأة عجيبة !

— من هى ؟ وماذا جاء بها ؟

— احلف لى أولا أنك لا تبوح بسرها إذا أنا أخبرتك .

— والله العظيم لا أبوح بسرها إلا إذا أذنت

— أتذكر ذلك الجاسوس الفرنجى الذى قبضنا عليه منذ شهر ؟

— نعم .. أفهذه هى عصفورتك ؟

— ويلك كيف علمت ؟!

— ما عِلمت شيئا بعد وإنما خمنت من حديثك ...

— أجل هذه هى عصفورتى التى نقلت لى خبر الجاسوس ...

— وكيف تسنى لها أن تعرف ذلك ؟

— هذا مالا ينبغى لنا أن نسأل عنه ، قد اتفقت معها وأعطيتها عهـدا بذلك ...

— لكن ...

— كلا ، لا تقل لكن .. هذا العهد يسرى علىّ وعليـك ، فلا أقبل منك أى مراجعة فيه .. عليـك أن تجهز نفسـك الليلة لترحل غدا إلى الإسكندرية ...

— إلى الإسكندرية ؟

— نعم .. فقد أبلغتنى اليوم أن الفرنج قد يهاجمونها فى الشهر القادم من البحر ، فاذهب وتفقد وسائل الدفاع هناك .. وأنذرهم ليستعدوا لمنازلتهم فى البحر بما تم صنعه من قطع الأسطول ...

— وما يدريك أنها صادقة ؟

— أنا واثق من صدقها ، وقد صدقتنى فى الأولى !

— ألا تخشى أن تكون هذه دسيسة علينا من العدو ليستدرجنا إلى مكيدة مدبرة ؟

— أوه ! دعنى يا يوسف من وساوسك ..

— هذه ليست وساوس ياعمى .. هذا احتياط واجب ..

— فماذا تريدنى أن أصنع ؟ أرفض خدمتها لنا وأقول لها انقطعى ، فإنا لا نريد أخبارك ؟

— كلا يا عمى ، ولكن يجب أن نعرف أولا من أين تستقى هذه الأخبار ...

فاحتد أسد الدين قائلا : « قلت لك إنها حلفتنى ألا أسألها عن شىء غير ما تخبرنى به ، وقد قطعت لها على نفسى عهدا ، فحذار يا يوسف أن تنقض عهدى ، فتفسد علىّ أمرى » .

فقال صلاح الدين معتذرا : « لا تغضب ياعم ، فستجد عندى من كمال الطاعة ما تحب ...

١٣

وتوجه صلاح الدين فى نفر من رفاقه إلى الإسكندرية ، وهو فى حيرة من أمر هذه المرأة التى يسميها عمه العصفورة ، فظل طول الطريق مشغول الفكر بها ، فإذا سأله رفاقه عن سبب وجومه . تنصل من ذلك منتحلا عذرا من الأعذار .

وبلغ الإسكندرية ففرح أهلها بمقدمه ، وتذكروا سالف عهده معهم ، فاستقبلوه استقبالا رائعا ، ثم توافدوا عليه حيث نزل ضيفا على صديقه ابن رشيد الذى صار عاملا على الإسكندرية فى هذا العهد .

وأسرع صلاح الدين فنفذ أمر عمه فى تفقد وسائل الدفاع وتجهيز ما تم صنعه من سفن الأسطول لمنازلة أسطول الفرنج ، وإن بقى فى شك من مجيئهم إلى أن أقبلوا بأسطولهم حقا ، فلما رأوا الأسطول المصرى واقفالهم بالمرصاد سُقط فى أيديهم ، فانسحبوا بعد معركة قصيرة احترقت فيها بعض سفنهم .

ورجع صلاح الدين إلى القاهرة بعد أن سبقته بشائر النصر إليها ، فعانقه أسد الدين ورجاله فرحين مستبشرين وما لبث أبو الفضل أن اقترح مضاعفة الاهتمام بإنشاء الأسطول وزيادة عدد سفنه ، بحيث يكون قادرا لا على مدافعة سفن الفرنج فحسب بل على مهاجمة مدنهم وحصونهم على سواحل الشام فى المستقبل ، فتحمس أسد الدين لهذا الاقتراح وأمر بتنفيذه . وقد زاده حماسة بعد ذلك ورود كتاب من نور

الدين يهنئه بانتصاره على الفرنج فى تلك المعركة البحرية ويوصيه بمزيد الاهتمام بالأسطول ويقول له : « إنك تعلم أننا لا نملك سفنا بالشام ولا السواحل فعلى مصر أن تسد نقصنا فى هذا السبيل » .

أما صلاح الدين فقد ظل التفكير فى أمر العصفورة شاغلا قلبه ، ولا سيما بعد ما تبين صدق ما أخبرت به فى هذه الواقعة .

وحدثته نفسه أن يراجع عمه فى أمرها ليوافق على السعى لاكتشاف حقيقتها ، ولكنه عدل عن ذلك لما يعلم من إصرار عمه على رأيه ، فآثر أن يجاريه فى الظاهر . واعتزم أن يراها بنفسه حين تجىء إلى عمه لعله يستطيع أن يكتشف شيئا من أمرها بالتوسم والتفرس فظل أياما يترصد مجيئها دون أن يلفت نظر عمه إلى ذلك .

فلما أحس بمجيئها ذات عشية أسرع فصعد إلى عمه متعللا ببعض الأمور ، فما كان من أسد الدين إلا أن دعاه فدخل ، فما إن رآها حتى داخلته هيبة عظيمة لا يدرى ما سرها . فغضّ بصره وسمعها تتحدث إلى عمه فى صوت خافت ولكنه ثابت لا يضطرب ولا يرتعش ولولا رقته ونعومة جرسه لظنه صوت رجل .

وما لبثت العصفورة أن انصرفت . ولما يسمع صلاح الدين منها غير كلمات معدودة . ولم يتمكن من تأملها إلا خلسة أو خلستين فما وعى سمعه من حديثها معنى تاما ، ولا وعت من صورتها غير خصلة من شعر !

ولم يستطع صلاح أن يسترسل طويلا فى سرحان ذهنه ، إذ ما لبث عمه أن نبهه قائلا : « ما خطبك يا يوسف ؟ إياك أن تكون وقعت فى سحرها فإنها ليست خالية » .

— متزوجة ؟

ـ أجل .. عصفورها معها ، فابحث لك عن عصفورة أخرى !

ـ لا والله يا عمى ، ما بى شيء مما ذكرت .. وما بى غير التعجب من أمرها ..

ـ وأنا والله أشد تعجبا منك ..

ـ وكيف علمت يا عمى أنها متزوجة ؟

ـ أنا سألتها فأخبرتنى ...

ـ كأنك تعلم يا عمى من هى ؟

ـ كلا .. إنها أبت أن تخبرنى من هى .. وأخذت علىّ العهد ألا أبحث عن ذلك .

ـ ألا يريبك هذا منها ؟

ـ قلت لك دعنى من ظنونك ووساوسك

ـ لقد رابنى منها الليلة أن شعرها فى لون الذهب ...

ـ شعرها ؟ أين رأيت شعرها ؟

ـ لمحت خصلة منه تدلت من تحت النقاب ..

ـ هب أن شعرها كما ذكرت فأى بأس فى ذلك ؟

ـ قد تكون من أصل أجنبى ..

ـ ما شاء الله .. إن كان هذا مبلغ فراستك فإنها لا تساوى عندى بصلة ! هذا أبو الفضل مثلا هل تشك فى مصريته وعربيته ؟

ـ معاذ الله .

ـ فشعره أصفر كلون الذهب .

ـ أعرف ذلك يا عمى . وإنما أنا الآن بصدد هذه المرأة التى لم تشأ تخبرنا باسمها ، فلا غرو أن نرتاب فى أمرها ونحتاط .

ــ دعني من هذا .. إني سأحفظ عهدي معها ولست بخاسر ولا نـادم ، فها هي ذي جاءتنا بنبأ جديد كما سمعت !

ــ أنا يا عمي لم أسمع شيئا !

ــ ويلك ماذا كنت تصنع إذن ؟

ــ ما سمعت أول حديثها ، فما فهمت شيئاً ..

ــ زعيم الخلافة الذي عند العاضد يراسل الفرنج ويراسلونه .

ــ عجباً كيف علمت هي ذلك !

فضرب أسد الدين على صدره وهو يقول : « ويلـك ! هـذا سؤال يأباه العهد الذي بيني وبينها ــ ألم تفهم بعد ؟ » .

فتمتم صلاح الدين في يأس : « بلى ! فهمت .. فهمت » .

١٤

وفوجيء الناس ذات صباح بجثة ملقاة على جانب الطريـق قريبـاً مـن باب زويلة وقد تمزق صدرها بالطعنات وانشق بطنها فخرجت أمعاؤه . فلما تأملوها عرفوا بعد لأي أنها جثة ابن الخياط ، ولكن أحداً لم يعرف من الذي قتله ولماذا قتله .

واهتم أبو الفضل بأمر هذا الحادث ، وتذكر ما سمع من شـجاع في شـأنه قبـل أشـهر ، فداخلـه شـك مـن جهتـه إلا أنـه كتـم ذلـك ، ولم يكاشف به أحدا ، وقال لأسد الدين : « لقـد لقـي هـذا الخـائن جـزاءه العدل إذ قيض الله له يدا مجهولة فاغتالته ، فعـلام نبحـث عـن صاحبهـا ليعاقب أو يدان ؟ » .

فوافقه أسد الدين على رأيه ولكن صلاح الدين اعترض وقال : « لا بد من معرفة القاتل ومحاكمته وإلا اجترأ الناس على الجريمة غدا فاغتالوا الصالح والطالح .

فقال له أسد الدين : « إنا قد بحثنا عن القاتل وما قصرنا فلم نقع له على أثر ولو وجدناه لعاقبناه وحاكمناه » .

واختلف الناس فى تأويل مصرع ابن الخياط وإن اتفقوا جميعاً على أنه لقى القصاص العادل ، ومال أكثرهم إلى أنه من فعل رجال الحكم وتدبيرهم لما سبق من موالاة هذا الرجل للفرنج إلا أنهم كتموا ذلك حرصاً على القاعدة التى سنوها من عدم محاسبة أحد على ما سلف ، ولم يخطر على بال أحد أن قاتله هو شجاع بن شاور .

فقد ظل شجاع يراقب ابن الخياط منذ اكتشف تواطؤه مع أبيه على الخيانه ، فإذا حضر إليه استرق السمع إلى نجواهما كما فعل فى المرة الأولى ، إلا أنه قد مرن على ذلك ، فلم يعد يتهيبه أو تخوننه قواه فى أثنائه .

وسمعه ذات ليلة يبحث مع شاور فى تدبير مكيدة واسعة النطاق ، يقوم فيها ابن الخياط بدور الوسيط بين أبطالها الثلاثة . وهى زعيم الخلافة من رجال قصر العاضد . وشاور ، و « مرى » ملك الفرنج ، ويكون مسرحها القصر وميقاتها يوم العاشر من محرم إذ يحتفل العاضد بعيد عاشوراء وبتولية أسد الدين الوزارة تولية رسمية .

وكان العاضد قد عرض الوزارة على أسد الدين منذ زمن ، ولكن أسد الدين ظل يتنصل من قبول ذلك ويؤجله مكتفيا بأنه قد صار يحكم مكان شاور ، ولم يبق لشاور غير الاسم ، ولا سيما بعد ما ترك له

شاور دار الوزارة ، وترك له فيها ختمه ليوقع به أسد الدين على ما يشاء من الأوراق دون الرجوع إليه .

وكانت هذه المسألة موضع خلاف بين جماعة المصلحين فانقسموا فيها فريقين : فريقا يدعو إلى قبول هذا العرض من العاضد ، ومن هؤلاء قاضي القضاة ابن درباس ، وفريقا يتمسك بالرفض وعلى رأسهم أبو الفضل الحريرى . وحجة الأولين أن العاضد مازال هو الحاكم الشرعى في البلاد ، فهو مصدر السلطات كلها ، وحجة الآخرين أنهم عازمون على خلع العاضد فى أقرب وقت مناسب . فهو فى حكم المخلوع من اليوم ، فلا ينبغى أن يستمد أسد الدين السلطة منه ، وقد بايعه بها أهل الحل والعقد من المصريين ، ثم انتصر رأى الفريق الأول فى آخر الأمر فبعث أسد الدين إلى العاضد يخبره بالقبول ، فرأى العاضد أن يبالغ فى تكريم أسد الدين فاختار أن تجرى التولية يوم عاشوراء تيمنا به .

أما فحوى المكيدة كما سمعها شجاع ، فأن يتولى زعيم الخلافة القيام باغتيال أسد الدين وكبار رجاله ، ويقوم شاور بقيادة أجناد الدولة لمواجهة جند أسد الدين إذا ثاروا ، ويبعث ابن الخياط إلى ملك الفرنج يستعجله القدوم للقضاء على فلول جيش نور الدين وقطع دابرهم من مصر فلا يطمع نور الدين فى الاستيلاء عليها بعد ذلك ويعود شاور إلى الحكم ، ويأمن العاضد على عرشه وعرش آبائه . فلما أبدى شاور ارتياحه لهذه الخطة أخرج له ابن الخياط الرسالة التى كتبها فى هذا المعنى ليرسلها إلى ملك الفرنج ، وقد وقع عليها زعيم الخلافة بخطه ، فما ينقصها غير إمضاء شاور . وقد تردد شاور برهة وابن الخياط

يحرضه ويؤكد له ألا خوف من انكشاف سره حتى رضخ شاور آخر الأمر فوقع .

وانسحب شجاع عند ذلك فنزل إلى الباب الخلفى وجعل يرصد خروج ابن الخياط ، فلما خرج اقتفى أثره وهو يتسلل مسرعا فى الظلام . حتى بلغ موضعا منقطعا عن الناس قريبا من باب زويله ، فانقض عليه شجاع وطرحه أرضا ، وكم فمه بطرف عمامته خشية أن يصيح ويستغيث ولكنه تذكر أنه لن يفعل ، فخلى عن فمه ، واستل خنجره فشرعه فى وجهه .

ــ أعطنى الرسالة وإلا ذبحتكُ ..

ــ شجاع بن شاور ! ... ويلك ! إن حياة أبيك فى هذه الرسالة .

ــ حياة شاور فى جنب حياة البلاد لا تساوى عندى حياة كلب قذر مثلك .. أعطنى الرسالة ، ويلك !

ــ قم عنى لأعطيك إياها ..

ــ كلا حتى تعطينيها .. أين وضعتها ؟

ــ هى فى جيب القميص .

ــ أخرجها بيدك ..

ــ ها هى ذى .. مزقها يا شجاع لتحفظ حياة أبيك .

وتطلع شجاع فى الرسالة حتى استيقن أنها هى ، فهم أن ينهض عنه ويخلى سبيله مطمئنا إلى أنه لن يفشى سر أبيه ، لما فى ذلك من خطر على حياته هو أيضا ، ولكنه تذكر بغتة أنه سيتصل لامحالة بأبيه ويفضى إليه بما حدث ، ونظر فبصر بخنجر يخفيه ابن الخياط فى وسطه فاستخرجه .

— أجل .. خذ خنجرى هذا لتطمئن إلى أنى لن أفتات عليك .

فأغمد شجاع خنجره وأعاده فى وسطه واستلّ الخنجر الجديد وجعل يقلبه فى كفه .

— قد أخذت الرسالة فانهض عنى .

— كلا لن أدعك تكتب أختها أبدا يا خائن .. سأقتلك بخنجرك كما تموت العقرب بسمها !!..

فأخذ ابن الخياط يستعطف ويتوسل :

— أجل ، إنى لخائن ، ولكن والله لأتوبنّ على يديك ، ولأكشفن لك أسرارا أخرى تهمك ، فإنى أراك أعظم الناس إخلاصا لبلادك ..

— أتريد أن تخدعنى يا فاجر ؟

— خل عنى وإلا صحت فجمعت عليك الناس فعرفوا سر ..

و لم يتم ابن الخياط كلمته هذه إذ عادت عمامته فسدت فمه ، وانبرى خنجره يغوص فى صدره ويخرج كأنه يفتش عن موضع العلة فى قلبه ليداويها !

و لم يدر شجاع ماذا حدث بعد ذلك إذ وجد نفسه عند سمية فى البيت وهى تخلع ثيابه وتغسل الدم عنه ثم تدثره فى الفراش وتتفقد خنجره فتجده أبيض ناصعا لا أثر لدم فيه ، فسمعها تقول له : « بم قتلته فإنك لم تستعمل خنجرك ؟ » .

وسمع نفسه يقول لها : « قتلته بخنجره ياسمية فلم ألوث خنجرى » !

وسمعها تقول له : « خيرا صنعت يا حبيبى » .

ثم لم يسمع بعد ذلك شيئا .

١٥

وأصبح الصباح فهب شجاع من فراشه فزعا وبحث عن الرسالة ، فلم يجدها فطار عقله ، ونادى سمية فأقبلت إليه :

ـ أين الرسالة يا سمية ؟ ألم تجدى البارحة رسالة بين ثيابى ؟

ـ بلى ، وجدتها !

ـ ماذا صنعت بها ؟ إياك أن تكونى مزقتها أو ..

ـ كلا يا حبيبى ، ما كنت لأفعل شيئا دون أمرك .. وإنما خبأتها وحفظتها .

وعاد إليه صوابه حين ناولته سمية الرسالة فنشرها وتصفحها مليا ثم طواها .

ـ ماذا أنت صانع بها ؟ أتريد أن تمزقها ؟

ـ كلا ، بل سأحفظها وأصونها لأهدد بها هذا الشيخ الضال إذا أراد أن يعود لمثل حماقته ..

ـ فهاتها لأصونها لك فى خزانه ثيابى فلا تصل إليها يد أخرى .

ونزل شجاع من غرفته ليصبح على والديه ويقبل يديهما كعادته ، فدخل أولا على والدته ، فوجدها واجمه مغمومة :

ـ ما خطبك يا أماه ؟ هل تشكين شيئا ؟

ـ لا يابنى ، ولكن والدك أصبح متغيرا اليوم منذ سمع خبز الجريمة البشعة التى وقعت فى البلد ..

فبذل شجاع جهدا كبيرا ليسيطر على نفسه .

ـ أين هو الساعة يا أماه ؟

— فى حجرته قد أوصدها على نفسه .. اذهب إليه يابنى لعلك تسرى عنه .

— إنى جئت لأقبل يده .

— إن أردت الخير والبركة يا بنى فلا تقبل يده وتنصرف كعادتك كل يوم ، بل ابق عنده اليوم واجلس إليه ، وتلطف فى السؤال عن حاله .

— سأفعل يا أماه وكرامة عين !

واشتاق شجاع أن يسمع ما يقول الناس عن الحادث أولا قبل أن يدخل عند أبيه ، فخرج إلى الشارع وسمع من هذا وذاك ، فلما قضى أربه من ذلك كر راجعا إلى البيت .

ودخل عند أبيه فرأى جزعا لم ير مثله منه قط ، وشهد وجوما غريبا حتى أنه لم يرد عليه التحية إذ حياه ، وإنما مد إليه يده للتقبيل دون أن يتكلم كلمة واحدة . وأدرك شجاع ما فى نفسه فأحس بشىء من الرثاء فى شىء من التأثم ولوم النفس ، مع شىء من الشماتة الخفية المستترة ، وخطر له — ولكن سرعان ما طرد هذا الخاطر - أن يقول لأبيه ، « اطمئن يا سيدى فإن الرسالة محفوظة عندى لم يطلع عليها أحد » .

وجلس شجاع أمامه جلسة الخادم المتهيىء لأن يؤمر فيطيع ، فما لبث شاور أن نظر إليه نظرة فيها ذل وانكسار ، وفيها تنصل واعتذار ، وفيها استغاثة واستنصار ، وشجاع صامت كأنه يقول بلسان حاله : « إن بقى عندك ثقة بابنك ، فأفض إليه بذات صدرك ، فإنه يخشى أن يبدأك بالسؤال فتصده وتكسر خاطره .

— سمعت بحادثة ابن الخياط يا شجاع ؟

— نعم يا سيدى ، أفمصرع هذا الرجل هو الذى ساءك اليوم وكدرك ؟

— كلا يا بنى ما ساءنى ذلك ولا كدرنى .

— ياليتك يا سيدى ما صادقت هذا الرجل ولا قربته بعد الذى جاهر به من موالاة الفرنج ، وبعد أن ضربته أنت بنفسك على جاسوسيته .

— لقد غرنى يا شجاع واستدرجنى .

— فاحمد اللّه إذن إذ أراحك اليوم منه .

— ويحك يا بنى ! إنك لا تعرف ماذا كان يحمل معه حين اغتيل البارحة .

— كان يحمل خنجرا .

فأجفل شاور وظهر فى وجهه الارتياب الشديد :

— كيف علمت ذلك ؟

— سمعت ذلك من الناس .. قالوا إنه قتل بالخنجر الذى كان يحمله .

فسرى حينئذ عن شاور .

وكأنما كان لهذه الاسترابة التى استرابها ثم زالت عنه أثرها فى إزالة كل ما بقى فى قلبه من قلة الثقة بشجاع . فلم يلبث أن تبسط إليه غير متحرج ولا متحفظ فصارحه بكل شىء ، وحكى له القصة بأكملها ، ثم قال له فى النهاية : « أنا خائف يابنى أن تقع تلك . الرسالة فى يد أسد الدين .

وتاقت نفس شجاع أن يؤنب أباه على خيانته ، ويقرعه تقريعا فهذا أول مرة أمكنته فيها من نفسه إذ اعترف بخيانته ، غير أنه لم يشأ أن يفعل ، لأن جانب الرثاء كان قد غلب جانب الشماتة فى نفسه ، بعد ما تأيد

ذلك بسرور شجاع من صراحة أبيه . فتجدد فى نفسه الرجاء أن يرعوى أبوه عن هذه الغواية فى المستقبل ، ويلزم جانب الحكمة والسداد .

وهاله فى أول الأمر ما رأى من جزع أبيه على غير ما عهد فيه من الجلادة والثبات ولكنه عاد فعذره فى ذلك ، إذ لو كان هو مكانه ولم يكن مطمئنا إلى وجود الرسالة عنده ، لكان جزعه على أبيه أشد من جزع أبيه على نفسه . وكاد يخبره بسر الرسالة ليطمئن أولا أنه استنجد بكل ما أوتى من قوة ليثبت على الخطة التى اعتزمها من قبل فى شأن أبيه .

ــ إن كنت يا سيدى تخشى من جهة الرسالة فاطمئن .

ــ كيف ؟

ــ لا ريب أنها لم تصل إلى أسد الدين وإلا لما أمهلك حتى الآن ، فإنها ناطقة بخيانتك للدولة والوطن والعرب والإسلام ، فلو صدرت من صلاح الدين ابن أخيه ما أمهله .

ــ ربما تصل إليه بعد قليل .. لعلها فى طريقها إليه !

ــ كلا يا سيدى ، هذا بعيد .. لا ريب عندى أنها قد مُزقت أو أتلفت أو سلمها الملعون إلى صديق له قبل مصرعه وإلا لوجدت معه ولو صلت إلى أسد الدين فى الحال ، فإن أحدا لا يجرؤ على استبقائها عنده لحظة واحدة . فليطمئن بالك من هذه الناحية ، وتب إلى اللّٰه من هذا الإثم العظيم ليتوب اللّٰه عليك ..

١٦

ومكث شاور أياما فى قلق وجزع حتى صار لا ينام ليلا ولا يهدأ نهاراً وحتى عزم أن يهرب من البلاد قبل أن يقبض عليه ، ولكن شجاعاً منعه من ذلك وسفه له فكرة الهروب لأنها ستثير الريبة حوله ، وربما تثبت التهمة عليه ، وحينئذ لا ينجيه مهرب ولا معتصم إلا إذا تمكن من اللحاق بالفرنج أعداء اللّٰه ، وفى ذلك غضب اللّٰه ولعنته ، ومع ما قد يتوقع من إعراضهم عنه وسومهم إياه الخسف والهوان حين يرونه لاجئاً عندهم مهيناً لم يعد له قوة ولا سلطان فاقتنع شاور بكلامه فعدل عن عزمه ، ثم أخذ جزعه يخف قليلا قليلا كلما مضت الأيام ولم يظهر من جانب أسد الدين ما يخشاه ، حتى اطمأن آخر الأمر وكأنما نسى كل شىء .

وأخذ يفكر حينئذ فيما يكون من أمر تلك المكيدة التى كانت موضوع الرسالة المفقودة ، هل ينفذها زعيم الخلافة فى ميقاتها ، أم يضرب عنها صفحاً . وأحس من جديد بالرغبة فى عدم مكاشفة ابنه بما يجول فى نفسه من الخواطر والفكر ، فكتم عنه هذه المسألة بالذات ، وتجنب الخوض فيها معه من قريب أو من بعيد .

ولكن شجاعا لم يتركها ففاتحه فيها ، فغمغم ولم يجب بجواب قاطع .

ــ قد كفانى اللّٰه شر هذه البلية ، فلأ نفض يدى منها ، فلا شأن لى بشىء .

ــ كلا يا سيدى يجب أن ننذر أسد الدين بهذه المكيدة الأثيمة فربما ينوى زعيم الخلافة تنفيذها بعد .

ـ ويحك يابنى ! لا سبيل إلى ذلك ما لم نكشف له سر الرسالة المفقودة .

فأطرق شجاع ملياً ثم قال ، وقد تبين له صواب رأى أبيه فقرر فى نفسه أن يسلك سبيلاً آخر : « صدقت يا سيدى ، لا سبيل إلى ذلك ، ولكن فكر فى هذا الأمر ، وسأفكر أنا أيضا لعلنا نهتدى إلى حل .

أما شجاع فقد قر عزمه على أمر فنفذه في الحال دون أن يخبر أباه ، وأما شاور فليس يعنيه ما يعنى ابنه من سلامة أسد الدين ونجاته ، وإنما يعنيه شيء آخر يتصل بمصلحته هو لا بمصلحة أحد سواه ، فاشتاق أن يعرف ماذا ينوى زعيم الخلافة أن يفعل ، وقد اشتد به هذا الاشتياق حتى هم أن يتصل به سراً ليرى ما عنده ، غير أنه تخوف ، فتردد ثم أحجم .

إلى أن فوجىء ذات يوم برسول من زعيم الخلافة يخبره بأنه سيجىء لمقابلته سرا ، فليستعد للقائه على انفراد ، دون أن يشعر بهما أحد ، فسر شاور سرورا عظيما وأخذ يستعد له ويرتقب قدومه بفارغ الصبر .

واختلى الرجلان فتناجيا طويلا ، فيما كان وفيما ينبغى أن يكون فاتفقا فى آخر الأمر على أن تجرى الأمور مجراها الذى كان مرسوما من قبل دون تغيير أو تعديل ، وسيتكفل زعيم الخلافة من جهته بمكاتبة ملك الفرنج ليسرع بالقدوم .

وانسل زعيم الخلافة خارجا تحت ستار الليل فانصرف فى سلام ، ولم يكد شاور يخلو إلى نفسه حتى ظهر له شجاع كأنما انشقت عنه الأرض ، فاجفل شاور وارتعد ثم تماسك وتجلد :

ـ أين كنت يا شجاع منذ قليل ؟

ــ كنت يا سيدى خلف هذا الباب .

ــ ماذا كنت تصنع ؟

ــ كنت أتطلع وأتسمع .

فاستشاط شاور غضبا .

ــ ويلك ! من أذن لك بذلك ؟ كيف تجرؤ على أن تتسقط أحاديثى ؟ أفهذا عادتك معى ياقليل الأدب ؟

ــ حاشاى يا سيدى أن أفعل ذلك ، ولكنى رجعت الليلة قبل موعد رجوعى لصداع ألم بى فلمحت هذا الرجل يدخل متسللا عندك ، فارتبت فى أمره وخشيت أن يقصدك بسوء ، فوقفت أرقبه من خلف الباب .

ــ وسمعت حديثنا ؟

ــ نعم سمعته كله من أوله إلى آخره .

فاطرح شاور على الأريكة فبقى برهة واجما يتلون وجهه ويتمعر

ــ لو كنت أعلم يا سيدى أنك تريد أن تخفى هذا الحديث عنى لسددت أذنى ووقفت أحرسك دون أن أسمع ، لقد ظننت أنك لا تكتم عن ابنك سراً !

ــ ويلك ! هذا ليس سرى بل سر غيرى ائتمنى عليه ..

ــ لا سر لمثل هذا الخائن يا سيدى فليطب بالك ! يجب علينا أن نبلغ أسد الدين عنه فى الحال ..

فأطرق شاور مليا يفكر ويقدر ، ثم تطلق وجهه فجأة ، فنهض إلى شجاع فأجلسه بجانبه وأخذ يطبطب على كتفه وهو يقول : « لله درك يا بنى . والله ما عدوت ما فى نفسى ، لقد استدرجت أنا هذا الرجل

لأكشف سره لأسد الدين ، وكان في عزمي أن أخبرك وآخذ رأيك ولكنك سبقتني بهذه الطريقة التي لا أرضاها لك فأغضبتني منك . هذا مسلك لا يليق بولد شاور ، وإنما يأتيه أولاد السفلة والرعاع » .

— سامحني يا سيدى ، ولكن أحقاً كان هذا عزمك ؟

— نعم ، أو تشك أنت في ذلك ؟

— لا يا سيدى ولكن ..

— اسمع يابني .. لا تظنن أني أفعل ذلك من حبي لهؤلاء القوم ، فإني والله لأكرههم كره الموت ، ولكني قد تبت إلى الله منذ نجاني من تلك البلية وستر عليّ فأردتُ أن أتقرب إليه بإنقاذ البلاد من شر هذه الفتنة .

فكاد شجاع يطير من الفرج .

— الحمد لله يا سيدى .. لا أحد يطلب منك أن تحبهم ، فذلك ليس في ملكك ، ولكن يكفي ألا يحملك شنآنهم على الإضرار بمصلحة الدين والوطن .

— قد شرح الله صدرى لذلك يا بني ، فالحمد لله على كل حال .. ونهض شاور وهو يقول : « هلمّ رافقني الآن » .

— إلى أين يا سيدى ؟

— إلى أسد الدين ...

— علام تتعب نفسك يا سيدى في هذا الليل ؟ سأذهب أنا لأبلغه عنك ...

— كلا يا شجاع .. لقد آليت أن أسعى إليه فأبلغه بنفسي . وتحضر أنت معي لتصدق قولي ..

— حبا يا سيدى وكرامة ..

١٧

وأقبل يوم عاشوراء ، فأقيمت الزينات فى قصر العاضد احتفالا بهذا العيد وبتولية أسد الدين الوزارة ، واستعد العاضد من الصباح لاستقبال أسد الدين ، وكبار رجاله عند الضحى ، ولكنه لم يشعر إلا بجنود أسد الدين قد اقتحموا القصر فى الصباح ، فقبضوا على زعيم الخلافة وأعوانه فى القصر فساقوهم معهم ، فأسقط فى يد العاضد ، وأيقن أنهم ينوون خلعه فى ذلك اليوم .

وكان قد توقع الخلع منذ زمن ، وأدرك أن القوم يتبعون فى ذلك سبيل التدريج ، لئلا يثيروا ثائرة أجناده المخلصين للعرش . فقد رآهم يستولون باللين واللطف على أملاكه وأمواله شيئا فشيئا بدعوى حاجتهم إلى الإنفاق منها فى مشروعاتهم الإصلاحية ، ثم أخذوا يستولون على قصوره باللين واللطف أيضا لاستعمالها فى مختلف الأغراض ، حتى لم يبق له غير القصرين الشرقى والغربى ، وكانوا يستأذنونه قبل ذلك ، فلا يسعه إلا أن يأذن لهم ، إذ يعلم أن الرفض لن يجديه شيئا .

ولكنه لم يتوقع أن يتم الخلع فى هذا اليوم الذى يحتفل فيه بتولية رئيسهم منصب الوزارة ، فماذا يريدون ؟ وسأل من حوله من رجال القصر فلم يجد عند أحد منهم جواباً مقنعاً ، أترى القوم قبضوا على زعيم الخلافة لشىء رابهم منه هو ولا شأن للعاضد به ؟ ولكن ماذا فعل زعيم الخلافة ؟ إنه لم ير منه شيئاً يريب ، ولو كان عنده شىء لأخبر العاضد به ، فليس من عادته أن يكتم عنه شيئا .

وحار العاضد ماذا يصنع ، وشعر اليوم أكثر من أى يوم آخر أنه قد أصبح وحيداً ، لا قوة له ولا ناصر . حتى الأجناد المخلصون لعرشه قد حيل بينه وبينهم ، فلا يتصلون به ولا يتصل بهم إلا من طريق هؤلاء القوم . وكان قد ألح على أسد الدين أن يقبل ما عرض عليه من توليته الوزارة تولية رسمية ليستدرّ بذلك عطفه ، ويكتسب رضاه لعله يبقى على عرشه ، فكان يقلق ويجزع كلما تنصل أسد الدين وسوّف ، فلما أعلنه بالقبول فرح فرحاً عظيما وقوى أمله أن يضرب أسد الدين صفحاً عن نية خلعه ، ولكن حادث اليوم قضى على أمله ، وضاعف جزعه وقلقه .

ولم يجد أمامه سبيلا غير الصبر والانتظار ، حتى يرى ما يكون من أمرهم معه . وهمّ أن يبعث إلى أسد الدين ليكلمه فى الأمر ويستوضحه ما حدث لعله ظن به سوءاً لم يقع منه فيبين له براءته وحسن نيته ، ولكنه تذكر أن أسد الدين لم يبعث فى الاعتذار عن حضور حفلة التولية فمن المنتظر بعدُ أن يحضر إلى القصر فى ميعاده ، فلا يستدعيه ويستعجله ؟

وإنه لفى حيرته وقلقه لا يدرى ماذا يأتى وماذا يدع ، إذا بالحُجّاب يعلنونه بقدوم أسد الدين وصحبه فتهيأ لاستقبالهم .

ودخل أسد الدين وصحبه إلى الإيوان ، كأن شيئا لم يحدث اليوم ، فصافحوا العاضد ، ثم أخذوا مجالسهم حوله دون أن يبدو فى وجوههم أى أثر يدل على الاستياء منه أو العتب عليه . وحذا العاضد حذوهم ، فلم يلح فى وجهه أى أثر للحيرة أو القلق .

وتليت وثيقة التولية ، وهى من إنشاء القاضى الفاضل ، إذ حرص العاضد أن يتولى القاضى الفاضل كتابتها بأسلوبه مبالغة منه فى تكريم أسد الدين ، « هذا عهد لا عهد لوزير بمثله من عبد الله ووليه أبى محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل المنصور سلطان الجيوش ولى الأمة الأمير أبى الحارث أسد الدين شيركوه ...»

ولما انتهى الحفل اختلى أسد الدين بالعاضد فحدّثه عن المكيدة التى كان قد دبرها زعيم الخلافة لاغتياله واغتيال كبار رجاله اليوم فى القصر ، وكيف اعترف أعوانه عليه لما وُضعوا تحت العذاب . فجعل العاضد يبدى شديد أسفه ، ويلعن زعيم الخلافة ويقسم أغلظ الأيمان ما كان له أى علم بذلك ، فصدقه أسد الدين وقال له : « قد تحقق عندنا ألا يد لك يا مولاى فى ذلك ولا علم ، فحمدنا الله على كمال رضاك عنا وحاشاك أن تغدر بنا هذا الغدر ..

— عاقبهم أيها الوزير عقاباً شديداً ولا تأخذك بهم رأفة ولا رحمة .

— إنا قد وضعناهم فى السجن .

— السجن لا يكفى .

— سيُنظر فى أمرهم حين تتم محاكمتهم .

و لم يكد ينصرف أسد الدين حتى أقبل مؤتمن الخلافة على العاضد :

— مولاى أميرَ المؤمنين كيف تحرضه على عبدك وخادمك زعيم الخلافة ؟

— كاد الملعون يقضى اليوم على عرشى .

— بل كاد والله ينقذ عرشك لولا وسطاء الطالع ووشاية شاور .

— شاور !

ـ أجل ، كان قد اتفق مع شاور فغدر به شاور .

ـ وكنت أنت على علم بذلك ؟

ـ كنت أعلم وكأنى لا أعلم .

ـ فعلام لم تخبرنى ؟

ـ لم نشأ أن نخلطك معنا يا مولاى ، فإن يكن النجاح فهو لك وإن يكن الإخفاق فهو علينا ..

فسكت العاضد قليلا ثم قال : « هذه مساع لا فائدة منها الآن وضررها أكبر من نفعها » .

ـ غدا يا مولاى تتاح فرص ..

ـ ويلك ! إياك يا مؤتمن الخلافة . إياك ..

ـ اطمئن يا مولاى فإنى ـ إن فعلتها ـ لن أكون مثل زعيم الخلافة ..

١٨

وفرح الناس جميعا بتولية أسد الدين الوزارة تولية رسمية ، إذ رأوا فى ذلك تثبيتاً لحكمه ، وتوطيداً لأركان هذا العهد الجديد ، فتوافدوا عليه مهنئين بتوليته وبنجاته من تلك المكيدة الأثيمة .

ولم يستطيعوا أن يصدقوا أن العاضد برىء منها ، فاشتد سخطهم عليه وتساءلوا عما يمنع أسد الدين من التعجيل بخلعه بعد أن كان منه ما كان .

ودعا أبو الفضل جماعته فعقدوا اجتماعا بعد صلاة العشاء ، فى دار الوزارة حيث صاروا يعقدون اجتماعاتهم فى كثير من الأحيان ، كأنهم

قوم دعاهم أسد الدين للتشاور أو للتسامر ، فلما انتظم عقد مجلسهم ، تذاكروا فى أمر العاضد فمال أكثرهم إلى وجوب خلعه فى الحال ، وعلى رأس هؤلاء أبو الفضل ، وحجتهم فى ذلك أن العاضد وإن لم يثبت اشتراكه فى المكيدة أو علمه بها فإن فى بقاء قصره وكراً للدسائس والمكايد ما يكفى لوجوب القضاء عليه فى الحال حتى لا يتكرر مثلها فى المستقبل .

ولكن أسد الدين عارض فى ذلك متمسكاً برأيه القديم من وجوب التدريج فى خلعه لأسباب كثيرة منها اتقاء ما يخشى من ثورة الأجناد المخلصين بعد للعرش ، ومنها الحيلولة دون صيرورة مصر ولاية تابعة لنور الدين إذا تم خلع العاضد فى الحال ، ومنها لا يليق أن يخلع اليوم ، ولما يجف عهد التولية الذى كتبه لأسد الدين فلا أقل من مجاملته إلى حين .

وانتهوا بعد التناقش إلى رأى وسط يضمن ألا تحاك الدسائس فى القصر مرة أخرى ، فقرروا أن يبعد أكثر رجال القصر منه . ولا سيما أولئك الذين لا يؤمن شرهم حتى لا يبقى من حاشيته معه إلا قليل .

ومنذ نفذ هذا القرار أصبح العاضد فى حكم المخلوع لا قوة له ولا سلطان ، ولا أثر له فى شأن من شؤون البلاد ، ولا يرجع إليه فى أمر من الأمور ، حتى كاد الناس ينسون وجوده ، ولولا أن اسمه مازال يذكر فى الجوامع أيام الجُمع لعده الناس فى الموتى !

واضمحل شأن القصر ، شيئاً فشيئاً ، حتى صار كأنه سجن مهجور يقضى العاضد بقية أيامه سجيناً فيه .

١٩

واعتزم أسد الدين ذات يوم أن يرحل بنفسه إلى دمياط ليتفقد الاستحكامات التى تم إنشاؤها لتعزيز هذا الثغر ، ولما بلغه من العصفورة أن الفرنج قد أوعزوا إلى بعض جواسيسهم فى البلاد ليقوموا بنسف المصانع التى تبنى فيها السفن على ساحل دمياط . وتدميرها خشية أن يصبح لمصر أسطول كبير يغزو سواحلهم فى المستقبل ، ويقضى على أسطولهم الذى يتفوقون به على نور الدين فلا يقوون على الوقوف أمامه بعد ذلك .

وأقام صلاح الدين نائباً عنه فى أثناء غيابه، فأظهر صلاح الدين كفاية وحسن تدبير وسرعة فى بت الأمور المعلقة وتوفيقاً فى حل المشاكل المعقدة حتى شعر الجميع فى هذه الفترة القصيرة أنه لا يقل عن عمه بل يتفوق عليه فى كثير من الأحوال .

وفوجىء ذات عشية بتسلل العصفورة إليه ، فأحس بقلبه يدق فى صدره دقاً عنيفا حتى أشفق أن يخونه جلده . فيقع منه أمامها ما لا يرضاه لنفسه من الوهل والاضطراب . وحتى حدثته نفسه أن يعتذر عن مقابلتها لولا خشيته أن يكون لديها خبر مهم تتوقف عليه سلامة البلاد . ومنذ رحل عمه فناب هو منابه لم يشعر قط بثقل الأمانة التى يحملها على كاهله شعوره اليوم ، فود لو بقى عمه ورحل هو مكانه ، وعجب لذلك من نفسه فى أول الأمر ثم استهجنه منها ولامها عليه ، ولم يلبث أن استجمع قوته ورجولته فتوكل على الله وقابل العصفورة الرهيبة !

ورآها تقف أمامه مثل موقفها أمام عمه من قبل ، ثم سمعها تحدثه مثلما سمعها تحدث عمه من قبل دون اختلاف فى الحالين .

ولم يكد ينظر إليها من خلال نقابها الأسود وعباءتها السوداء السابغة ويسمع صوتها الثابت المطمئن حتى سكنت نفسه بعد اضطراب ، وهدأ قلبه بعد وجيب ، وأحس كأن أخته هى التى تقف أمامه وتتحدث إليه ، فعجب من نفسه كيف داخلته تلك الهيبة من قبل واعتراه ذلك الاضطراب ؟!

وكان الخبر الجديد التى جاءت به أن الجواسيس لما علموا بمسير أسد الدين إلى دمياط قرروا تأجيل ما اعتزموه من نسف مصانع السفن إلى وقت آخر . فقال صلاح الدين لنفسه : « هذا خبر لا يستحق أن تتجشم من أجله هذا العناء » ، ثم خطر لها أنها ربما حرصت على إبلاغه خشية أن يشك أسد الدين فى صدق خبرها السابق ، فاستحسن ما صنعت .

وقد ساعده سكون جأشه على التفكير فى أمرها فى أثناء استماعه إليها ، فما إن أتمت حديثها وتهيأت للانصراف حتى قرّر فى نفسه أمراً .

وشهدت بعض شوارع القاهرة من أول الليل عباءة سوداء تدرج فى الظلام كأنها سحابة سوداء تسرى فى سماء حالكة . ومن خلفها على بعد منها سحابة أخرى أقل منها سواداً ، تسرع إذا أسرعت الأولى ، وتتمهل إذا تمهلت ، وتتوقف إذا توقفت ، وتميل إذا مالت !

وكانت الأولى متوجهة فى سبيل ، ثم توقفت مترددة ، فعدلت عنه ويممت سبيلا آخر ، إلى أن وقفت أمام دار كبير ، فقرعت بابها فانفتح الباب وانسربت فيه ثم انغلق .

ووقفت السحابة الأخرى من بعيد تنظر وتتأمل ، وكأنما ضلت سبيلها بعد ما غابت أختها الهادية ، فلبثت برهة لا تدرى أين تسير ، ثم كأنما بدا لها أن تنقلب راجعة من حيث أتت خشية أن تضيع فى ظلمة السماء ، ولكنها ما كادت تتحرك من مكانها فى طريق العودة حتى سمعت حسًّا من ورائها فاستدارت فإذا باب تلك الدار قد انفتح مرة أخرى وأضاء وإذا السحابة الهادية قد برزت أمام الباب ، فوقفت قليلا ثم تحركت ، وإذا خلفها سحابة أخرى أصغر منها تتبعها ، وكأنما فرحت السحابة الضالة إذ وجدت أمامها هاديتين لا هادية واحدة ، فانطلقت تقفو أثرهما وقد اطمأنت أنها لن تضل مرة أخرى حتى انتهى بها المطاف إلى دار فخمة فوقفت مرة أخرى تنظر من بعيد كأنها تخشى ألا يؤذن لها بالدخول ولو من بابها الخلفى الذى انفتح لهاديتيها فغابتا فيه .

وما ترددت سحابتنا هذه المرة ولا حارت ، بل سارت فى طريقها مسرعة لا تلوى على شيء حتى بلغت مستقرها دار الوزارة !

وبات صلاح الدين ليلته ساهراً يفكر فى العصفورة : من تكون ؟ لقد اهتدى إلى عُشّها الأول ، ثم إلى عشها الثانى ، وكلاهما معروف لديه فمن تكون ؟

وكانت المشكلة فى الحقيقة يسيراً حلها على صادق فراسته وثاقب فطنته ، ولكنه مكث يدور حولها ويعقدها على نفسه ، كأنما يشتهى ألا يهتدى إلى حلها سريعا ، ولا يدرى لماذا تذكر عمه عند ذلك وتذكر كلماته التى قالها له من قبل : « هذه عصفورها معها ، فابحث لك عن عصفورة أخرى ! » .

قد عرفتُ الآن من تكون .. لا شك عندى الآن أنها هى ! ...

ولكن من أين تستقى هذه الأخبار ؟ وماذا يحملها على سلوك هذا المسلك العيب ؟ أليس فى وسعها أن ترسل بها إلينا دون أن تتجشم هى هذا العناء وتحتمل هذا الحرج ؟ إنها تعلم أن أباها صديق لنا ، فلم لا تخبره هو ليبلّغنا ما تريد ؟ وزوجها هل يعلم زوجها بصنيعها هذا أم تقوم به من وراء علمه ؟

وأخذت هذه الأسئلة وأمثالها تضطرب فى رأس صلاح الدين فشغلته عن النوم بقية ليلته .

٢٠

ولما رجع أسد الدين من رحلته إلى دمياط لم يجد صلاح الدين بُدًّا من إخباره بما صنع مع العصفورة ، فغضب أسد الدين غضبا شديدا ، وطفق يلومه ويعنفه ، وصلاح الدين يهدئه ويعتذر إليه ، فلا يسمع له كلاما ولا يقبل له عذرا :

ــ ويلك ! كيف طوعت لك نفسك نقض العهد ؟

ــ لست أنا الذى قطعه يا عمى ولست أنت الذى نقضه .

ــ ويلك هذه شاورية لا أرضاها لنفسى ! ما أقطع من عهد فأنت ملزم به .

ــ قد علمت يا عمى أن هذا سيغضبك ، ولكنى خشيت يومئذ أن تطير هذه العصفورة عنا يوماً فلا تعود إلينا أبدا فتضيع منا فرصة الاهتداء إلى الخائن الذى يتعاون مع العدو فى قلب البلد ..

ــ فهل اهتديت الآن إليه ؟

ــ نعم هذا شاور ...

ولم يستبعد أسد الدين هذا من شاور . غير أنه تردد قليلا إذ ذكر أن شاور قد أفشى له سر المكيدة التى دبرها زعيم الخلافة ، فكيف يتفق ذلك مع استمراره فى الكيد أو الخيانة ؟

فلما سمع صلاح الدين ذلك قال لعمه : « إن صح ظنى فيه فإنه أراد التمويه علينا بما فعل حتى يبعد الشبهة عن نفسه ! » .

فقال أسد الدين : « والله إن هذا لمعقول ! » .

ثم أخذ صلاح الدين يشرح لعمه كيف استنتج أن الذى يتعاون فى البلد مع العدو هو شاور ، وأن العصفورة وزوجها يراقبانه ويحصيان عليه . ويتسقطان الأخبار منه ، حتى اقتنع أسد الدين بصحة ما ذهب إليه .

ــ إذن فزوجها هو الذى يبعثها إلينا بالأخبار ؟

ــ نعم ، لا ريب عندى فى ذلك . يريد أن يؤدى واجبه نحو الدولة ولا يريد أن يكشف خيانة أبيه ..

وطفق أسد الدين يستعرض فى ذهنه سيرة شجاع منذ عرفه أول مرة فى بلبيس ، إذ جاء رسولا من ضرغام إليه وإلى شاور ، وكيف قاد فرقة الموت فيها بعد ذلك . ثم حاول الإصلاح بينه وبين أبيه ، وفى أطفيح إذ قدم إليه محاولا جمع كلمته وكلمة شاور على الفرنج ،وفى الصعيد كيف بعث إليه ينذره بعزم أبيه وحلفائه على محاصرة الإسكندرية ، وكيف كان الساعى بعد ذلك لعقد اتفاق الإسكندرية ، وكيف زالت دولة أبية فما ثناه ذلك عن التطوع فى تدريب حى العسكر حتى اليوم ، فما وسع أسد الدين إلا أن يستصوب رأى ابن أخيه .

ــ وماذا علينا أن نصنع الآن يا يوسف ؟

ــ الرأى لك الآن يا عمى وقد عدت .

— كلا .. قد خالفت أمرى فى البداية ، فامض فى هذا الشأن إلى غايته . التبعة كلها عليك .

— إن كنت تريد رأيى ، فلنستدع إلينا شجاع بن شاور لنكاشفه بالحقيقة .

— وأبو الفضل ؟

— سنخبره قبل ذلك وندعوه ليسمع معنا كلام زوج ابنته .

— أجل ، لابد من حضور أبى الفضل .

٢١

كان شجاع منهمكا فى عمله بمركز التدريب فى حىّ العسكر كعادته كل يوم ، إذ جاءه رسول فأخبره أن أبا الفضل يستدعيه فى ديوان الوزارة ليكلمه فى أمر هام ، فاستأناه شجاع حتى ينتهى من بعض عمله ، ولكن الرسول أكد له أنه مطلوب فى الحال ، فترك ما بيده ومضى معه .

ولقيه أبو الفضل فاختلى به برهة كاشفه فى خلالها بكل شىء . ثم أخبره أن أسد الدين سيستفهمه ويستجليه ، فعليه أن يقول له الحقيقة كاملة ، وقال له : « لا تخف يا شجاع فإن أسد الدين يحبّك ويعزّك ، ويقدر فضلك وإخلاصك ، وعسى أن تشفع إليه فيشفّعك فى أبيك .

وارتاع شجاع فى أول الأمر إشفاقا على أبيه ، ولكنه لم يجد بدًّا من مواجهة الأمر ، فتجلد وتحمّل ، وكان لكلمات أبى الفضل أثرها الجميل فى تثبيت قلبه .

ثم دخل به أبو الفضل عند أسد الدين ، فإذا هو جالس فـي حجرتـه الخاصة ، وليس عنـده غـير صـلاح الديـن ابـن أخيـه ، فنهضـا لشـجاع ورحّبا بمقدمه وأكرما مجلسه ، ثم أخـذ أسـد الديـن يلاطفـه ، ويباسـطه ويسأله عن حاله وحال أبيه ، ويثنى على تطوعه فى تدريب شباب حـى العسكر حتى سكن شجاع واطمأن .

ـ لعلّ أبا الفضل قد بيّن لك يا شجاع لأى شىء دعوناك اليوم ..

ـ نعم يا سيدى . قد كاشفنى الساعة بذلك .

ـ إنا لا نريد أن نؤذيك يا شجاع أو نؤلمك .. ولكن هذا أمر خطـير يتعلق بسلامة الدولة ومصلحة العرب جميعاً ، وقـد قـال اللّـه تعـالى فـى محكم كتابه : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ فهـل أنت معينى يا شجاع على كشف الحقيقة بما عندك من علم ؟

وارتج على شجاع لحظة وجعل يغالب عبرة تترقرق فـى عينيـه ، ثـم قال بصوت متهدج : « نعم يا أسد الدين سأفعل ما تريد » .

ـ هل كان شاور حقًّا هو الذى يتعاون فى البلد مع العدو أم شخص سواه ؟

ـ بل هو يا سيدى ، واحسرتاه !..

وهنا ستر وجهه بيديه ، وانفجرت دموعه تسيل علـى خديـه ، فدنـا منه أبو الفضل فلف ذراعه حول ظهره يسكّنه ويواسيه ، وضلوعه تعلـو وتهبط بشدة كأنما تريد أن تتقصف .

واغرورقت عينا أسد الدين بـالدمع ، رثـاءً لـه وعطفـا عليـه ، فبقـى برهة طويلة واجما لا يدرى ما يقول .

وأدركت الرقة صلاح الدين أيضاً إلا أنه استطاع أن يجتلد حين رأى عمه قد عجز عن الكلام ، فقال : أما كان جديرا بك يا شجاع أن تبلغ عنه في الحال ولا تنتظر حتى ينكشف لنا أمره ؟

فتقلص دمع شجاع ورفع رأسه قائلا : « وقد بلّغت عن أعماله ومكايده في حينها .

ــ ولكنك تسترت على شخصه .

ــ ألا تعلم يا صلاح الدين أنه والدى وأنني ولده ؟

ــ إن الأمين لا يتولى الخائن وإن كان إياه !..

ــ هذا كلام تقوله في السعة يا صلاح الدين . لو ابتليت أنت بمثل هذه المحنة لكان لك قول آخر ، ولما كان عملك خيرا من عملي بحال ...

وكأنما أشفق أسد الدين أن يحتدم الحوار بين هذين الشابين فيقع ما لا تحمد عقباه . فاجتذب هو عنان الحديث وقال : « على رسلك يا يوسف ، والله لقد صدق شجاع . إنها لمحنة قاسية . أنا نفسى لا أعلم ماذا كنت أصنع لو كنت مكانه ، وربما لا أجد القوة على التبليغ حتى عن عمل والدى بخشية أن يتكشف أمره من جراء ذلك » .

فلان شجاع حين سمع ذلك فقال : « حاشاك يا أسد الدين ! حاشاك أنا والله أردت أن أزكي نفسى ، وإنى لمعترف بتقصيرى ولكن ...

ــ امض في حديثك يابنى .. استمر ..

ــ ولكنى كنت أشفق أن يقتل أبى على الخيانة فلا ترجى له توبة أبدا .. وأنوء أنا بالمذلة والعار ما حييت .

ــ كلا يا شجاع ، ألم تسمع قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ؟

ــ بلى يا سيدى ، ولكنى كنت أحبه حبا لا يد لى فيه ، وكنت أطمع دائما أن يهديه اللّه فيتوب من سوء عمله ويتوب اللّه عليه .

والآن أمازلت تطمع فى توبته ؟

ــ نعم يا سيدى ، إذا أعنتمونى على ذلك .

ــ ماذا تريد منا أن نصنع لك ؟

ــ أن تعفو عما سلف منه إذا أنا أقنعته بالرجوع إلى صوابه . فأطرق أسد الدين قليلا ثم قال : « واللّه إن ذلك ليسرنا من أبيك يا شجاع ، ولكن هل تضمن أنت ذلك ؟ » .

ــ إنى سأبذل غاية جهدى . وعندى أمل كبير ، فليس هو بمفطور على الشر ، وإنه لسخى كريم اليد ، ولكنه رجل ذو أنفة وكبرياء ، وقد استمرأ لذة الحكم قديما . فعز عليه أن يفطم منها وهو يشكو أنكم أهملتموه واطرحتموه .

ولم يستطع صلاح الدين أن يصبر فقاطعه قائلا : « هو الذى دفعنا إلى ذلك ، فقد أمهلناه كما أمهلنا أمثاله برهة كافية ليظهروا تعاونهم معنا فما وجدنا منه غير النكوص والازورار ، وها هوذا يتبين اليوم أنه يمالىء العدو على بلاده وأمته » .

ــ مهلا يا ابن أخى ، دعه يتم حديثه ..

ــ لقد صدق ابن أخيك يا سيدى وقال الحق .. ولكن لا بأس أن تجاملوه قليلا فترضوا غروره وكبرياءه، لعل ذلك يميل بقلبه إليكم فيثوب إلى سبيل الرشد .

ــ اقترح علينا كيف نجامله ؟ نوليه منصبا رفيعا فى الدولة ؟

— لا يا سيدى .. لا ينبغى أن يتولى شيئا .. حسبكم أن تدعوه إلى زيارتكم وتستشيروه فى بعض الأمور و ..

— وماذا يا شجاع ؟

— وحبذا لو تفضلتم فزرتموه فى بيته ، فإن ذلك سيفرحه كثيرا ، ويزيل ما فى نفسه .

وتكلم أبو الفضل حينئذ فقال : « أجل يا أسد الدين ، إن شاور يحب إقامة الولائم ، فأرى أن تلبوا دعوته إلى وليمة عنده » .

قال أسد الدين : « لا مانع عندنا من ذلك ، فليدعنا » .

فتهلل وجه شجاع سرورا ونهض قائلا : « هل تأذنون لى الساعة لأنطلق إليه فأبشره » ؟

قال أسد الدين فى مرحه ودعابته : « اذهب يا شجاع وقل لأبيك يكثر لنا من اللحم ، لحم الضأن ، فإنى مشتاق إلى أكله » .

— تذكر يا عمى أوامر الطبيب ..

— ليذهب الطبيب إلى الجحيم .. لقد كفى ما جوعنى هنا ، أفيمنعنى من أكله هناك ؟ اذهب ياشجاع ، قل له يكثر من اللحم لأعوض ما فاتنى ..

وانصرف شجاع وهو يضحك ..

— ألا تنصح عمى يا أبا الفضل فى اللحم فإنه يضر صحته ويضاعف علته .

— لا تصدقه يا أبا الفضل فإنه يريد أن يأكله وحده من دونى .

— أجل يا أسد الدين ، اقتصد فيه وأطع الطبيب ومتعنا بنفسك .

— لو قد أطعت الطبيب يا أبا الفضل لما وجدتنى اليوم حيا أرزق .. هذا يريد ألا أذوق اللحم ألبتة .

فقال صلاح الدين : « سبحان اللّه ! أأنت أعرف بالطب منه » ؟

— نعم .. أنا أعرف بطب نفسى ، واللّه ما أورثنى العلة أكل اللحم كما يزعم ، ولكن طول قعودى عن قتال الفرنج !

٢٢

وبلغ شجاع المنزل ، فانطلق مسرعا إلى أبيه فقص عليه كل ما يرضيه مما دار بينه وبين أسد الدين ، وطوى عنه مالا يرضيه ، فسر شاور ، ولم يكد يصدق ما يسمع .

— أتقول إنه سيدعونى ويستشيرنى ؟

— نعم .. وسيزورك ويأكل عندك إذا أولمت له .. ولقد قال لى : « قل لأبيك يا شجاع يكثر لنا من اللحم لحم الضأن ...

— إذن واللّه لأعملن له وليمة يتحدث عنها الصيادون فى رشيد ، والفخارون فى أقصى الصعيد !

ولم يملك شجاع نفسه من الفرح أن انطلق إلى أمه فبشرها ، ثم صعد إلى سمية فحكى لها ماجرى من أوله إلى آخره ، فاغتمت سمية فى أول الأمر ، وشق عليها أن ينقض أسد الدين العهد الذى بينه وبينها ، ثم تذكرت أن صلاح الدين هو الذى قابلها آخر مرة إذ كان عمه غائبا فى دمياط ، فألقت التبعة عليه . ولكنها لما رأت زوجها لا يكترث لذلك ، بل رأته مسرورا بما حدث مستبشرا به ، يرجو من ورائه أن يصفو الجو بين أبيه وبين رجال العهد الجديد ، فيكف عن

الدس عليهم والكيد لهم ويتعاون معهم على ما فيه مصلحة البلاد ، ما وسعها إلا أن تشاركه فى فرحه واستبشاره .

وجاء أبو الفضل يزور شاور فأكد له ما سمع من شجاع ، وأخبره أن أسد الدين يرجوه أن يتفضل بزيارته ، فذهب شاور معه إلى دار الوزارة ، حيث استقبله أسد الدين مرحبا محتفيا وأكرمه وعظمه حتى تهلل وجه شاور وانبسطت أساريره .

وجرى بينهما تعاتب طويل ولكنه جميل انتهى بأن أعتب كلاهما الآخر ، واتفقا على أن يتناسيا ما فات ويستأنفا بينهما المودة والصفاء والتعاون على ما فيه خير البلاد .

وفى خلال هذا التعاتب جرى ذكر شجاع ، وكيف أنهم لم يسندوا إليه منصبا مع كفايته وإخلاصه ، فاعتذر أسد الدين بأن ذلك لم يكن من إهمال متعمد بل كان من سهو غير مقصود ، وإنه يختار له اليوم منصب قائد فرقة الجيش المصرى الجديد لأنه أولى الناس بهذا المنصب . فرضى شاور وشكره .

وكان لطلاقة أسد الدين ومرحه ودعابته وطيبة قلبه ، أحسن الأثر فى تهيئة هذا الجو الودى السعيد .

وقد بلغ من هشاشته وصفاء قلبه أن أشار هو إلى الوليمة التى يطمع أن يقيمها شاور له حتى ضحك شاور وقال : « ويحك يا أسد الدين ! إنى قد جئت والله لأدعوك إليها فأبيت إلا أن تسبقنى » .

قال له أسد الدين : « مايدرينى يا أبا شجاع ألا تنصرف من عندى دون أن تدعونى إما نسيانا منك أو بخلا . وأنا قد منيت نفسى بلحم آكله عندك على رغم ذلك الطبيب المأفون الذى يمنعنى منه ، وابن أخى هذا الذى يخطفه منى ويأكله دونى » .

فضحك شاور طويلا ثم اتفق معه على تحديد يوم الدعوة بعد غد ذلك اليوم . وانصرف من عنده ضاحكا مسرورا ، وأقبل على ابنه فبشره بمنصبه الجديد .

وأخذ شاور يستعد للوليمة ويحتشد لها بكل ما عرف عنه من سخاء وكرم فدبت الحركة فى بيته كما دبت فيه هو روح الهمة والنشاط .

٢٣

وما أشرق صباح يوم الوليمة حتى تم إعداد كل شيء ، فأخذ شاور يطوف بنفسه على المطبخ ، وعلى قاعة الطعام ، وبهو الاستقبال ، ويلقى أوامره ووصاياه على الطباخين والفراشين والنُدُل ، وغيرهم من سائر خدمه وعبيده .

وكان شجاع مبتهجاً أشد الابتهاج ، يسعى مع أبيه تارة ، ويتفقد وحده تارة أخرى ، ويصعد حيناً إلى زوجته ووالدته ليطلب منهما شيئاً أو يحدثهما بما تم إعداده ، وينزل حيناً إلى جواده (أدهم) كعادته كل يوم ليتفقده ويطمئن على غذائه وشرابه .

وإنه لفى الإسطبل واقفا أمام جواده يداعبه ويناغيه ويمسح عرفه ومتنه إذا سُميَّة قد أقبلت مسرعة إليه ، فأخذت تتلفت حولها لتستوثق أن المكان خال إلا منهما ، ثم أخبرته بنبأ عظيم ، لم يكد يسمعه حتى ذهل واصفر وجهه ووقف هنيهة حائراً لا يدرى ما يفعل ، ثم قال لها : « سأصعد إليه الآن وأصارحه بالأمر حتى ينتهى عن فعلته » .

قالت : « أليس خيرا من هذا أن تكتفى بإنذار أسد الدين » ؟

ــ كلا يا سمية لا بد أن أنذره هو أولا وأهدده ..

وصعد شجاع مسرعا إلى غرفته فأخذ خنجره ودسه فى وسطه ثم نزل يلتمس والده فوجده واقفا فى قاعة الضيوف ، وعنده عبده الجديد ياقوت كأنه يسارّه ويناجيه ، فلما رأى شجاعا أجفل ، فلم يبق عند شجاع شك فى صدق ما أخبرته سمية ، فدق قلبه دقًّا عنيفا ولكنه تجلد :

ــ هل لى أن أكلمك يا سيدى على حدة ؟

فنظر شاور إليه فى ارتياب ثم نظر إلى ياقوت نظرة ذات معنى .

ــ دعنى الآن يا ياقوت ولا تذهب بعيدا فسأحتاج إليك وإلى الآخرين .. أوصد الباب خلفك ...

فخرج ياقوت وأوصد باب القاعة خلفه .

وجلس شاور على إحدى الأرائك ونظر مرة أخرى يتفرس وجه شجاع ..

ــ هات الآن ما عندك يا بني .. خير إن شاء اللّٰه .

ــ أى خير وأنت تدبر هذه الغدرة التى يستنكف من ارتكابها حتى قُطّاع الطرق ؟

فصعق شاور من هول ما سمع .

ــ ويلك ماذا تقول ؟

ــ لا تحاول الإنكار فقد علمت كل شيء ...

ــ ماذا علمت ؟

ــ إنك تدبر مكيدة لأسد الدين وَرجاله .

فتكلف شاور الابتسام وهو يقول : « ويحك يابنى ! ترانى قد اصطلحت معهم وترانى أقيم لهم هذه الوليمة الفاخرة ثم تظن بى هذا الظن ؟ » .

ــ ما أقمت هذه الوليمة إلا لتغتالهم وهم على ما ئدتك !

ــ ويلك ، من ذا لفق لك هذه الفرية المضحكة ؟

ـ لفقها لى ياقوت !

ـ ياقوت .

ـ أجل ، ما يعلم بهذا السر غير ياقوت.هذا العبد الخبيث الذى اصطفيته وقربته واتخذته نجيك دون أهلك وولدك ..

ـ كذبت يا وغد ، بل كنت تتجسس علىّ .. تتجسس على أبيك ..

ـ أجل ، إن من نكد الدنيا علىّ أن يكون أبرّ عمل أقوم به لدينى ولوطنى هو التجسس عليك لأحول بينك وبين جرائرك وفواقرك .

فاستشاط شاور غضباً ومد يده فلطمه لطمة عنيفة .

ـ أى جرائر يا وغد ؟ وأى فواقر ؟

ـ الطمنى واضربنى يا سيدى ما شئت ، وسبنى واشتمنى ما شئت ، فوالله إن ذلك لا يغضبنى منك لو كنت وفيا لا تخون بلدك ولا أمتك .

ـ اخسأ ياوغد ... لا يقول هذا عنى غير أعدائى ..

ـ من هم أعدائك ؟

ـ أولئك الذين اغتصبوا حقى ..

ـ هؤلاء لا يعرفون خيانتك مثلما أعرفها أنا ابنك !

ـ كلا ، لست ابنى بل أنت عدوّى .

ـ وماذا جعلنى عدوك وقد كنت أحبك إلا خيانتك ؟

ـ اكفف عن ذكر الخيانة ياوغد ، فما أنا خائن !

ـ ومراسلاتك لملك الفرنج واتصالاتك بجواسيسه . ألا تعد ذلك خيانة ؟ حنانيك يا سيدى ! إن أعداءنا الفرنج قد أصابهم الهلع لما قام هذا العهد فى مصر وأيقنوا ألا بقاء لهم فى بلاد الشام ولا فى غيرها من الوطن العربى إذا بقى هذا العهد ، وقد أيسوا من القضاء عليه بالقوة ، فلجأوا إلى المكايد والدسائس فكيف ترضى لنفسك أن تكون لهم مطية ؟

ـ كلا ، هذا باطل كله ولا يستطيع أحد أن يثبت على شيئاً .

ـ اعلم إذن أن الرسالة التى وقعتها مع زعيم الخلافة محفوظة عندى .

فنظر إليه شاور نظرة هائلة :

ـ أنت إذن ..

ـ أجل ، أنا قتلت صاحبك الخائن ابن الخياط لأنقذك وأنقذ البلاد .

ـ أين الرسالة ؟ هاتها ...

ـ هيهات لأسلمنّها اليوم إلى أسد الدين ما لم تنفذ ما أقترح عليك .

ـ ماذا تريد ؟

ـ اصرف هذه العصابة التى أحضرتها اليوم لتستعين بها على تنفيذ مكيدتك .

ـ ويلك ! هؤلاء صنائعى الذين كانوا فى خدمتي ، فظُلِموا فى هذا العهد من أجلى ، وقد دعوتهم لشهود الوليمة عرفاناً منى لجميلهم .

ـ هذه وليمة أسد الدين ، فادع هؤلاء إلى وليمة أخرى إن شئت ، واطرد الساعة ياقوت ومن معه من عبيدك الجُدد ...

ـ ومن يقوم على خدمة الضيوف إذا جاءوا ؟

ـ أنا وميمون وباقى الخدم ...

ـ أصبحت تأمرنى يا شجاع وتنهانى ؟! لا بأس .. سمعاً وطاعة .

وصفق شاور فدخل ياقوت وثلاثة من رفاقه العبيد الجدد ، فصاح بهم شاور : « اقبضوا على هذا الولد العاق » .

فتردد العبيد لحظة ، واستل شجاع خنجره ، وصاح فى وجه أبيه قائلا : « إن تحرك منهم أحد ، أغمدت هذا الخنجر فى صدرك مرهم أن يرموا أسلحتهم هناك فى الأرض وإلا فوالله الذى لا إله إلا هو لأقتلنك !

ـ أطيعوا هذا المجنون ..

وما كاد العبيد يطيعون أمر سيدهم حتى دخلت سمية فجأة فالتقطت مارموه من الخناجر والمدى ثم خرجت من حيث دخلت .

وتمتم شاور فى غيظ : « بنت أبى الفضل » !

فأجابه شجاع متمتما : « بل زوجة شجاع بن شاور » !

ومرت ساعة حرجة !

ــ مر هؤلاء أن يغادروا الدار الساعة ..

ــ ما ذنبهم يابنىّ حتى تطردهم ؟

قال شاور ذلك وأهوى بضربة شديدة على يد شجاع فسقط الخنجر منها ، فأسرع ياقوت فالتقطه .

وكانت سمية قد رأت حرج الموقف وأشفقت أن يستنجد شاور برجاله الآخرين ؛ فأسرعت إلى خالتها زبيدة ، فجرّت يدها لتنزل معها قائلة : « الحق ابنك شجاعا فإن أباه قد أمر رجاله بقتله » .

فنزلت زبيدة تهرول من أعلى الدار وسمية تتقدمها ، فلما دنتا من القاعة رنّ فى أذنهما صوت شاور صائحا فى غضب « اقتله ياقوت ! أسرع » ثم صوت ياقوت : « تذكر يا سيدى أنك أنت الذى أمرتنى» .

فاندفعت سمية إلى الباب كالسهم فوجدت العبد قد طعن زوجها . فترنح ثم خر على الأرض ، وشاور يصيح : « أجهزْ عليه يا ياقوت » ولكن العبد لم يجب إلا بصيحة عالية إذ طعنته سمية من خلفه فى عنقه فسقط على الأرض يخور كالثور الذبيح ، ولم تتركه كذلك بل انهالت عليه طعناً فى صدره وحلقه ووجهه حتى برد .

وأذهلت المفاجأة شاور وعبيده الثلاثة ، فاضطربوا قليلا ثم همُّوا أن يفعلوا شيئاً . لو لم تدخل زبيدة حينئذ مولولة صائحة : « ماذا فعلت بابنى يا شاور ؟ قتلت ابنى يا شاور ، قتلته يا عديم الرحمة !

فارتعد شاور حين رآها . وجف حلقه وتعثرت الكلمات فى لسانه وهو يقول : « إنه أراد أن يقتلنى يا زبيدة » .

ولم تسمع زبيدة لكلامه ، فقد انطرحت على ابنها الصريع فى الأرض تحتضنه وتحوطه وتبلل وجهه بدموعها وهى توسعه لثما كأنما تريد أن تعتصر ما بقى من أريجه قبل أن تفارقه الحياة ، وإلى جانبها سمية وهى تسدّ بكفها موضع الطعنة من جنبه لتمنع انبثاق الدم منه .

واقترب شاور فى ذلة وخجل ، فصاحت زبيدة فى وجهه : « ابتعد عنى يا مجرم ، أتريد أن تجهز عليه ؟ . أنت أقسى علىّ من ضرغام .. لقد أبقى عليه ضرغام فقتلته أنت .. اغرب من وجهى » .

— أريد أن أساعدك يا زبيدة .

— كلا ، لا أريد مساعدتك ...

وكان ميمون وسائر خدم الدار قد دخلوا إذ ذاك فوقفوا ينظرون حائرين لا يدرون ماذا يصنعون .. إلى أن صاح بهم شاور : ويلكم ! ساعدوا مولاتكم ... احملوا سيدكم إلى حيث تأمركم » .

فحملوا شجاعا بين أيديهم وسارت أمه وزوجته حتى صعدوا به إلى غرفته . أما زبيدة فقد أذهلها الخطب ، فصارت كأنها لاتعى ماذا تفعل ، وأما سمية فقد طفقت تمسح الدم عنه ، وتسد جرحه بالقطن والخرق ، وقد أرسلت ميمونا لينطلق إلى أبيها ليخبره الخبر ويحضر معه الطبيب .

وبقى شاور فى القاعة برهة لا يدرى ما يفعل ، فقد ملكت الحيرة عليه كل مذهب حتى خيل إليه أنه قد شل عن التفكير وعن الكلام ، وعن الحركة . ووقف عبيده الثلاثة حوله لا يدرون أيضاً ماذا يصنعون ، وهم ينظرون إلى جثة رفيقهم ملقاه بين أيديهم . كأنها متاع لا يؤبه له .. إلى أن دخل عندهم أولئك الرجال الذين أحضرهم شاور

من صنائعه ليشهدوا الوليمة وليستعين بهم على تنفيذ مكيدته فتعجبوا مما شهدوا إذ لم يكونوا قد علموا بعد بما دعاهم شاور من أجله .

فلما رآهم شاور استيقظ من غفلته فأمرهم بالانصراف إلى بيوتهم لئلا يلحقهم أذى وأن يكتموا ما شهدوا فلا يتحدثوا عنه إلى أحد ، فانصرفوا واجمين .

وأعمل شاور حينئذ فكره وهو يذرع القاعة جيئة وذهوباً ، ويمر بجانب جثة العبد القتيل فلا يلتفت إليها من شدة استغراقه في الفكر ، إلى ان اهتدى ألاّ سبيل أمامه غير الفرار ناجياً بنفسه قبل أن يرسل أسد الدين من يقبض عليه . فقد أيقن أن الخبر سيبلغه وشيكاً . فالتفت إلى عبيده ، وأمرهم أن ينطلقوا فيسرجوا له جواده في الحال ، وانطلق هو فارتدى ثياب سفره وتقلد سلاحه ، ونزل مسرعاً إلى حيث ينتظره عبيده في فناء الدار . فما راعه إلا كوكبة من الفرسان قد أقبلوا فأحاطوا بداره ثم اقتحموها من كل باب ، فأيقن ألا أمل في الفرار من أيديهم فاستعد للقائهم ومنازلتهم حتى يُقتل ، إلا أنه أشفق آخر الأمر على زوجته أن تزعجها جلبة الصدام والقتال وهي فيما هي فيه فاستسلم لهم قائلا :

« خذوني إلى حيث تشاءون ولا تحدثوا ضجة تزعج أهلي ، فكفى ما هم فيه » .

وإذا أسد الدين وصلاح الدين وأبو الفضل يدخلون ، فزوى شاور وجهه عنهم خجلا ، فقال أسد الدين لابن أخيه : « خذه معك يا يوسف حتى نرى رأينا فيه » .

ثم صعد أسد الدين ومعه طبيبه يتقدمهما أبو الفضل وأمامهم ميمون حتى انتهوا إلى غرفة شجاع ، وكانت أمه قد انسحبت إلى حجرتها

حين علمت بقدومهم ، فما وجدوا عنده غير سمية واقفة على رأسه وهو طريح الفراش يئن أنيناً خافياً .

فوقفوا حوله ، وطفق الطبيب يفحصه ، وكان الدم لا يزال ينزف من جرحه من خلال الضماد الذى عملته سمية ، فأخذ يغسل الدم وينظف الجرح ويطليه بمرهم أحضره معه ، ثم أحكم ضماده وربطه ، وبعد ما فرغ من ذلك أفرغ له شراباً فى قدح فأوجره له .

وانتظر قليلا فإذا شجاع يصحو صحوةً فينادى : « سمّية ! سمّية !.

— نعم يا حبيبى ...

— الرسالة التى عندك يا سمية .. « مزقيها .. مزقيها » . لا تدعى أحدا يطلع عليها .. وما لبث أن عاد إلى غيبوبته ...

فتعجب الحاضرون من كلامه ، والتفت أبو الفضل إلى سمية ، فأسرت إليه بالخبر ، فأمرها بإحضارها ، فترددت سمية قليلا ثم قامت إلى خزانة ثيابها ، فأخرجت الرسالة منها فسلمتها لأبى الفضل فجعل يتصفحها ، ويريها لأسد الدين ، فيحركان رأسيهما متعجبين . ثم طواها أبو الفضل ودسها بين ثيابه وهو يقول لابنته بصوت خافض : « قد مزّقتِها أنت ياسمية !.

ثم تحرك شجاع مرة ثانية وفتح عينيه ، ففرحت سمية وأقبلت عليه :

— أين أنا ياسمية ؟ وأين أسد الدين ، هل أصابه شىء ؟

— لا يا حبيبى .. ها هو ذا بين يديك ..

— هأنذا يا شجاع ، ألا تعرفنى ؟

— الحمد للّه على سلامتك ونجاتك .

— وأنا يا شجاع ألا تعرفنى ؟.

— أبو الفضل ... الحمد للّه ... أنت أيضاً سلمت ...

ثم تغير وجهه وبدا فيه كالخجل وهو يقول : « وماذا صنعتم يا أسد الدين بشاور ؟

فتردد أسد الدين قليلا لا يدرى كيف يجيبه .

— هل ..

— إنا قد قبضنا عليه يا شجاع لئلا يقتلك ...

— إنه لم يرد أن يقتلنى .. فالذى طعننى هو ياقوت العبد ، وقد انتقمت لى سمية منه فقتلته . أرأيت يا أبا الفضل كيف نفع اليوم تدريبى لسمية ؟

— صدقت يابنى ، قد رجعت عن رأيى إلى رأيك ...

— وشاور يا أسد الدين ، ماذا أنتم صانعون به ؟

— سنطلقه لك إذ عوفيت ، وإلا اقتصصنا منه لأنه هو الذى أمر ..

— كلا لن أموت ،سأشفى حالا إن شاء اللّٰه .. إنها طعنة يسيرة .

— نرجو ذلك يا شجاع ..

— إنى لا أريد أن أموت حتى أرى الكتائب تنطلق من مصر لتحرير بلاد الشام من سلطان العدو الدخيل .

— ستراها وتشهدها إن شاء اللّٰه .. وتقود الجيش المصرى الجديد بنفسك ..

— الجيش الجديد ... معذرة يا سيدى لقد كنت أريد أن أشكر اليوم إذ عينتنى قائدًا له .. ولكن ...

و لم يتم كلمته إذ تأوه من ألمه ثم ما لبث أن أغمض عينيه وغاب عن وعيه من جديد ..

واقترح الطبيب أن يتركوه وحده ليستريح ، فخرجوا من عنده ودخلوا حجرة أخرى مجاورة ليؤدوا فيها ما وجب من صلاة العصر .

وعادت زبيدة فأخذت سمية تسارها بما شهدت فاطمأن قلبها قليلا وبدأ في وجهها بريق الأمل .

وكان أسد الدين شديد القلق على شجاع . فما إن سلم من صلاته خلف أبى الفضل حتى التفت إلى الطبيب عن شماله فعزم عليه أن يصدقه ما رأى من حالة شجاع ، فأجابه الطبيب بأن الأمل فى نجاته ضعيف لكثرة ما نزف من الدم . ولأن الطعنة قد نفذت إلى جوار القلب ، فاكتأب أسد الدين وأصابه وجوم .

أما أبو الفضل فمتجلد لا يظهر عليه غير القليل من الأسى ، وهو يحدث جليسيه بأشتات مما يعرف عن سيرة شجاع فى مختلف أطوار حياته والطبيب يستمع فى شغف واهتمام وأسد الدين ساكن كالمذهول لا تتحرك منه جارحة إلا حين يمسح الدمع عن مقلتيه الفينة بعد الفينة .

وبينما هم كذلك ، إذ أقبل ميمون فأخبرهم أن شجاعا يطلبهم ، فنهضوا من مجلسهم بين الوجل والأمل حتى عادوا إليه فوجدوه شاحبا كالقرطاس ونفسه يتردد متلاحقا ، كأنه يجود بنفسه ، فنظر الطبيب إلى أسد الدين كأنه يقول له : إنه فى النزع ! » .

ووقفوا ينظرون إليه لا يجرؤ أحد منهم على الكلام ، وأحس بهم شجاع بعد لأى فقال بصوت ضعيف : « تعال ، ادن منى يا أسد الدين ، وأنت يا أبا الفضل .. ومن هذا الذى معكما ؟ » فأجابه أبو الفضل : « هذا طبيب أسد الدين قد جاء به ليعالجك » .

ــ هو الذى عمل لى هذا الضماد ؟

ــ نعم ...

ــ جزاك الله خيرا أيها الطبيب وإن حم القضاء فلم تكن لك معه حيلة !

فقال أسد الدين فى حنان : « إنك بخير يا شجاع ، وستشهد معارك التحرير » ، فقاطعه شجاع قائلا : « هيهات يا أسد الدين قد علمت أنى لن أعيش حتى ذاك اليوم المجيد ، فهل لك يا سيدى أن تأخذ جوادى (أدهم) فتحفظه عندك ، حتى يجىء يوم الجهاد فتركبه أنت إلى الميدان أو تركبه لصلاح الدين ابن أخيك فيكون لى فضل شهود ذلك اليوم ...

فقال أسد الدين والدموع تتحادر من عينيه : « حبا وكرامة يا شجاع سوف أركبه أنا بنفسى إن أحيانى الله حتى ذلك اليوم » .

فلاح السرور فى وجه شجاع حتى كأنه يهمّ أن ينهض وهو يقول : « الحمد لله ، الآن اطمأن قلبى عليك يا أدهم فسيركبك سيد الأبطال » .

ولكن سروره ما لبث أن غاض وحل مكانه الأسى وهو يقول : « ولكن شاور يا أسد الدين ، لقد أردت أن أعيش لتطلقوا سراحه فإذا قضاء الله أسبق ! فهل لك يا سيدى فى معروف آخر تسديه إلى ؟ » .

ــ نعم يابنى ، اطلب ما تشاء ...

ــ إذا قضيتم عليه فلا تقتلوه حتى تستتيبوه عسى أن يتوب الله عليه ، فإنى أخشى ...

ــ ماذا تخشى يا بنى ؟

ــ أخشى يا سيدى ألا أراه فى الدار الأخرى أبدا ..

ــ سأفعل يا شجاع ، سأفعل ...

وخشى أسد الدين أن يغلبه النحيب فانسحب من جواره .

ــ وأنت يا أبا الفضل ؟

ــ نعم يا بنى ...

ــ أوصيك بسمية خيراً . إياك أن تغاضبها مرة أخرى .

ــ هى التى غاضبتنى يا شجاع ...

— سامحها إذن ، فإنها صالحة مجاهدة ، أين هى ؟ وأين والدتى ؟

فخرج الثلاثة من عنده لتدخل أمه وزوجته .

ونظر شجاع إلى أمه فغامت عيناه بالدمع وجاش صدره كالمرجل وهو يقول : « سامحينى يا أماه فإنى تسببتُ اليوم ... » .

ولم تدعه زبيدة يتم كلمته إذ مالت بوجهها على وجهه فجعلت تقبله وهو يقبل وجهها ورأسها حتى اختلط دمعها بدمعه ، وهى تقول : « نفسى فداؤك يابنىّ ، ليس الذنب ذنبك » .

— خذى بالك من سمية فإنها وديعتى عندك .

— اطمئن يا بنى الحبيب ...

— وأنت يا سمية أوصيك بأمى خيراً ، فإنها خالتك ، وليس لها أحد فلا تتركيها وحيدة حزينة .

فطفقت سمية تقبله وهى تقول : « سأفعل يا حبيبى ... سأفعل » وكانت سمية تغالب جزعها وتتجلد جهد ما تستطيع إلى أن سمعته يقول لها « كنت أريد يا حبيبتى أن أشهد مولد هذا الجنين الذى فى أحشائك ولكن ... » .

فحينئذ خانها جلدها المنهوك فانفجرت تنشج وتنتحب .

وامتدت يده الواهنة فأخذت تجول فى وجهها وتمسح دمعها كأنها تستدفىء بحرارته مما يسرى فيها من برودة الموت .

— كلا ، لا تبتئسى يا سمية ، فإن أبا الفضل سيكون له أبا خيرا منى ... ماذا تريدين أن نسميه يا سمية ؟

— كما تريد يا حبيبى ... سنسميه شجاع بن شجاع ..

— كلا يا سمية بل سميه .. سميه ضرغام بن شجاع ..

فقالت زبيدة كالمنكرة : « ضرغام ! » .

ــ أجل يا أماه .. هذا اسم حبيب إلى نفسى .. ولقبوه أسد الدين .. أسد الدين ضرغام بن شجاع ..

ــ وإن جاء أنثى يا بنى ؟

ــ أنثى .. فليكن اسمها زبيدة بنت شجاع .

وكأنما أحس بكرب اشتد عليه فجحظت عيناه وتسارعت أنفاسه ، فأخذ يردد الشهادتين ، ثم أجفل كأنما تذكر شيئا يريد أن يقوله :

ـ سمية !

ــ لبيك يا حبيبى ...

ــ كلا لا تجيئني به أنثى يا سمية .. لا أريد أنثى ... أريد ولدا بطلا يجاهد فى سبيل الله !

وما أتم كلمته حتى لحقته غشية ، فهمت أمه وزوجته أن تنوحا عليه ، لولا نفس خافت ما زال يتردد فى صدره ، فحبسنا أنفاسهما تتطلعان إليه فى قلق بالغ .

وإذا هو يفتح عينيه ويتحرك حركة أشد مما فى وسعه كأنما يريد أن ينهض أو يجلس ، وإذا هو يرنو أمامه كأنه يرنو إلى شىء بعيد .. ونظرت زبيدة وسمية إلى حيث نظر فما أبصرتا غير شفق المغيب !

وإذا صوته يهدر فى سمعهما كأنه آت من عالم آخر .

انظروا ! انظروا ! ذاك ابنى يقود جيش مصر ! أسد الدين ضرغام يقود جيش التحرير .. الله أكبر .. انهزم جيش العدو .. وانتصر جيش مصر .. انتصر العرب . وانتصر المسلمون .

وإذا هذه آخر كلمة قالها شجاع .

رقم الإيداع : ٣٩١١ / ٨٥
الترقيم الدولى : 7 - 0161 - 11 - 977

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٤٥٥ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه